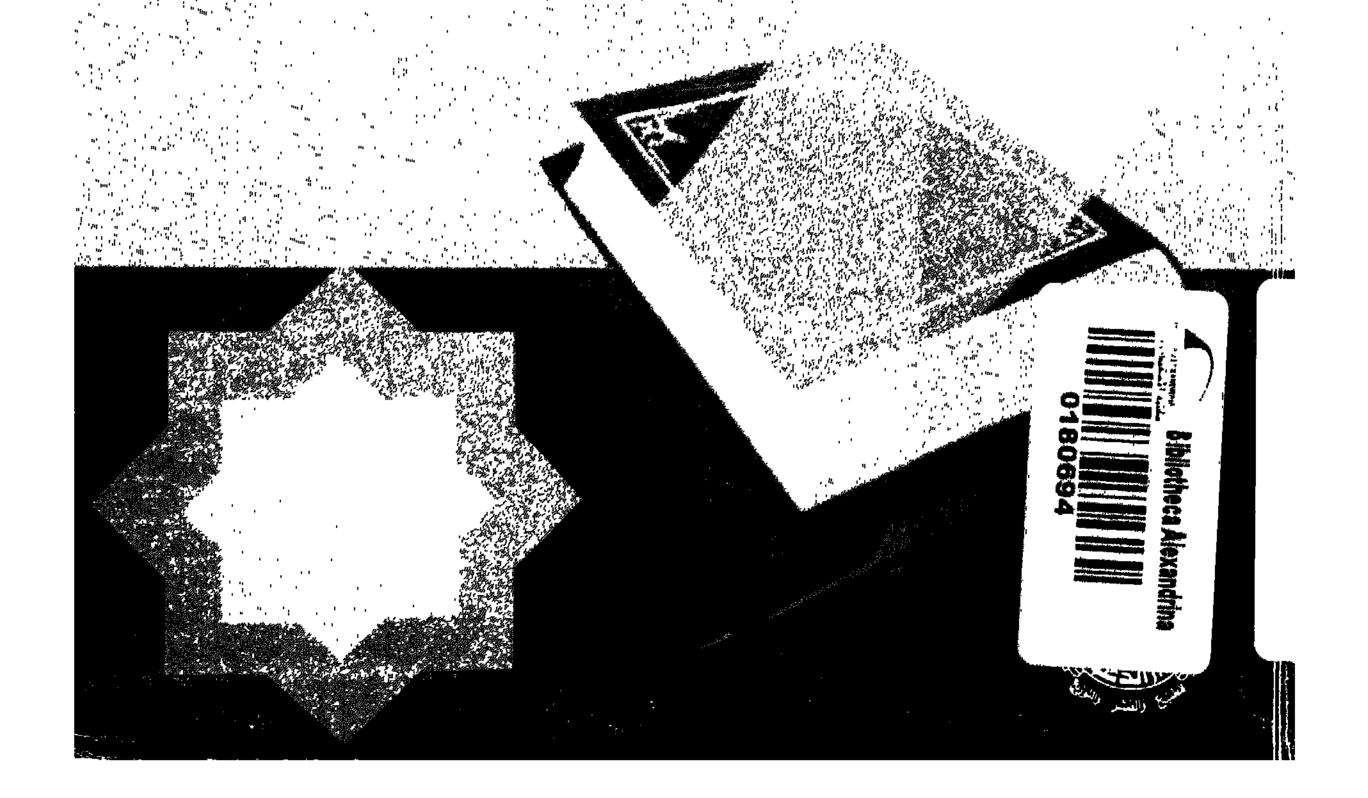
الوحى القرآنى

فى المنظور الاستشراقى ونقده

تأليف
دكتور محمود ماضى



الوحي القرآني

في المنظور الاستشراقي ونقده

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م



دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا ـ محرم بك (الإسكندرية)
ت : ٤٩٠١٩١٤ ، ٤٩٠٧٩٩٨
فاكس: ٥٩٥١٦٩٥

الوحي القرآني

في المنظور الاستشراقي ونقده

د . محمود ماضي

كلية الآداب جامعة الزقازيق

كلية الدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

* ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠]

* إن من يخوفك حتى تلقى الأمن . أشفق عليك ممن يؤمنك حتى تلقى الخوف .

الإمام الحسن البصري

الإهــــداء

○ من وحى طيبة الطيبة التي ضمتني في أحضانها أجمل وأطيب سنين عمري . أهدي هذا البحث :

« إلي من هدي الله به بعد ضلالة وأرسله رحمة للعالمين » .
سيدنا محمد « ﷺ » .

محمـــود ماضي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :

إن نبوة نبينا محمد « ﷺ » حقيقة ثابتة فى أنفسنا نحن المسلمين ، الإيمان بها نفس يتردد فينا ، فهل لنا أن نقيم الدلائل على صحة أنفاسنا المترددة بين جوانحنا ؟!

لقد شغلت نبوة محمد «ﷺ» كثيراً من الفلاسفة والمؤرخين، مسلمين، وغير مسلمين: مستشرقين ومنصرين .

أما المسلمون :فلأنهم معنيون برسولهم ، وأما غيرهم ، فالبعض تناول نبوته وسيرته بشيء من الإنصاف، أما البعض الآخر فلم يستطع مجاوزة نطاق التعصب لمعتقده وظل حبيس هذه الدائرة غير المحمودة فى معايير المنهج العلمى..

لم يستطع الحياد فى الحكم والنزاهة في القصد والتجرد من الهوى، أى لم تقم أحكامه على العقل مبرأ من الهوى وأحكام العقل معايير صحيحة إذا ما آزرتها الفطرة وصاحبها الإنصاف .

والاستشراق فلسفة غربية متعددة الأهداف ، ومن أبرز أهدافها النيل من الإسلام ونبى الإسلام ، فلقد حاولوا ـ إلا القليل منهم ـ، تحليل نصوص القرآن الكريم ، وكذلك تحليل نصوص الأدب العربى الجاهلى علهم يجدوا امتداد الأول عند الأخير ، فأخفقت المحاولة ، لجأ بعض المستشرقين إلى إثارة شبهة التأثر والأخذ من التوراة والإنجيل ، فباءت محاولتهم ـ أيضاً ـ بالفشل ، كما سيتضح لنا من خلال بحثنا هذا .

فى العصر الحالى ظهرت محاولة ـ مغلفة بالعلمية والمنهجية ـ إرجاع القرآن إلى عامل باطنى ، داخلى ، فليس ثمة وحى من خارج النبى « ﷺ » المتلقى ، وإنما انبعاث من داخل النبى ، أى حديث نفسه وتوقد ذهنه ، أو كما تصور «مونتجومرى واط» حين أرجع نبوة محمد ـ دون نبوة غيره من الأنبياء ـ إلى التصور الخلاق أو التصور الخالق ، فالوحى إلى نبينا « ﷺ » لا يعدو نوعاً من النشاط الذهنى المتوقد ، كما هو الحال عند بعض الموهوبين .

هكذا كان الإسلام بالنسبة لهم من عمل الشيطان ، والمسلمون ليسوا سوى نوع من المتوحشين ، فقد كانوا يقولون : « فى العالم فئتان : نحن والبرابرة ... والبرابرة فى نظرنا ، أو الشرق ، هو كل أسيا وأفريقيا ... أى أننا نضع فى مكان

واحد المسلمين والبوذيين والهندوس والوثنيين »[١] .

وفي عصرنا الحالي تغيرت العبارة وأصبحت أقل فظاظة ولكنها ماتزال أقل وضوحاً . وأما معناها فهو هو .

خلاصة القول : إن ألوان التحامل القديم قد تضاءلت منذ فجر هذا القرن إلا أنها مازالت تعيش قوية ، ومازالت فئة المستشرقين تعمل على نشرها فى الغرب وفى الشرق على السواء . فهناك من الشواهد ما يدل على أن الرصيد المختزن من مشاعر العداوة للإسلام قد اتسع وامتد من هذه الشواهد حرب الإبادة التى يمارسها الصرب والكروات ـ ومن خلفهم أوربا كلها ـ ضد مسلمى البوسنة والهرسك .

فضلاً عن تطور أساليب ومناهج الاستشراق عما كانت عليه فى الماضى ، فبعد أن كان هجومه على الإسلام ونبى الإسلام مباشراً ، وجارحاً لمشاعر المسلمين ، أصبحت كتاباتهم وأهدافهم مغلفة بالمكر والدهاء ، وحتى اختلط أمر ـ الاستشراق ـ على الكثير من المسلمين فلم يعد يميز بين المادح منهم من القادح ، فضلاً عن أن بعض كتابات الإسلاميين جاءت دون التوثيق العلمى مما أفقدها قوتها وتأثيرها .

لذلك رأيت أن أنهض ـ مع الناهضين ـ كاشفاً عن أحدث شبهات الفلسفة الاستشراقية حول الوحى القرآنى، محللين لها ومفندين فى ضوء العقل والنقل.

وبحثنا هذا يعد محاولة للانفتاح على فلاسفة الاستشراق وما يكتبونه عنا ، فالخطوة الأولى لمقاومة أى فكر منحرف أو معادٍ هى التعرف الدقيق عليه وسبر أغواره وجمع المعلومات الشاملة عنه وتحليل تلكً المعلومات ونقدها بدقة وأمانة ، ومعرفة الأطوار التى مر بها والمنطلقات التى انطلق منها والأهداف التى يسعى إليها ، ثم يأتى بعد ذلك : التحليل والتفنيد فى إطار منهج علمى واضح .

ولكى يتسنى لنا تطبيق هذا المنهج تناولنا فى فصل تمهيدى: فلسفة الاستشراق، من حيث المفهوم والأهداف والمنهج، وتناول الفصل الثانى خصائص الوحى الإلهى إلى أنبياء الله جل وعلا، مبيناً تناقض بعض المستشرقين حين يثبتون الوحى إلى موسى وعيسى وينكرونه إلى محمد «ﷺ» رغم وحدة الصفات والخصائص، ثم عرض للوحى إلى نبينا محمد «ﷺ» :بداياته ومظاهره.

---

١ ـ جان بول رو : الإسلام فى الغرب ، تعريب : نجدة هاجر ص٧ بيروت لبنان ١٩٦٠م .

وفى مجال تعرية المنهجية الاستشراقية تساءل الفصل الثالث عن دلالة المعجزات على النبوات، بمعنى: إذا تحققت المعجزة على يد مدعى النبوة فهل ينهض هذا دليلاً على أنه مبعوث يوحى إليه ؟

فإذا دلت المعجزة على نبوة موسى وعيسى فكيف لا تدل على نبوة محمد وله من المعجزات ما لموسى وعيسى بل له ما هو أزيد و أوضح و أدوم ؟

جاء الفصل الرابع ليقيم الأدلة والبراهين على نبوة محمد «ﷺ» .

أما أوجه التشابه ، بل التطابق بين الوحى الإلهى إلى موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام فلا مرية فيه وإذا كان الدين واحداً لأنه صادر من مشكاة واحدة ، وإذا كانت صفات الوحى إلى محمد «ﷺ» هى نفسها إلى موسى وعيسى عليهما السلام ، فماذا يريد فلاسفة الاستشراق ؟

إن الادعاء سهل، ولاسيما مع الضّغن . وعندما نتهم المستشرقين بالبعد عن الموضوعية فلأن كثيراً من دراساتهم للإسلام . ونبى الإسلام جاءت من خلال دراساتهم للإنجيل أو اللاهوت ، بل الواقع أن من هؤلاء المستشرقين من ينتظم باستمرار فى سلك هيئات دينية وكنسية . فضلاً عن وقوعهم فى التميز المقصود إلى درجة سوء النية الإرادية والأهداف غير المعلنة[1] .

ونحن لا نريد من المستشرق أن يكون مسلماً ـ إلا إذا انتهت به أبحاثه ودراساته إلى ذلك ـ يعتقد ما يعتقده المسلم ، ولكننا نقول : ليس من الصعب ـ بل هو من المنهج العلمى ـ أن يضع المستشرق مفهوم المسلم لدينه فى تعبير المسلم واصطلاحه ، وهو حين يفعل ذلك لن يكون أكثر اقتراباً من المنهج العلمى الموضوعى فحسب ، ولكنه سيجعل نفسه فى مركز أفضل لكى يدرك مكان نبوغ الإسلام بين أحداث التاريخ .

هذه مناقشة صريحة لشبهات بعض فلاسفة الاستشراق تناولها الفصل الخامس بمباحثه الخمسة .

وأخيراً لعل هذا البحث يكشف عن أهم أهداف فلسفة الاستشراق ، وهى «إبعاد سلطان الدين عن النفوس»[2] أما الوسيلة الفعالة إلى ذلك فهى التعليم حيث يقول «جب» : «والتعليم أكبر العوامل الصحيحة التى تعمل على

---

١ ـ د. حسن حنفى : مقدمة فى علم الاستغراب ص٣٢ الدار الفنية بمصر ١٤١١هـ ١٩٩١م.
٢ ـ هـ.أ. جب ؛ وجهة الإسلام ترجمة د. محمد عبدالهادى أبوريده ص٢١٤ الطبعة الأولى القاهرة

الاستغراب »(١) « الخالصة لهذه الحركة التعليمية أنها حررت ـ بقدر ماكان لها من تأثير ـ نزعة الشعوب الإسلامية من سلطان الدين دون أن تحس الشعوب بذلك غالباً .وهذا هو وحده تقريباً جوهر كل نزعة غربية فعالة فى العالم الإسلامى »(٢) .

الاستشراق حركة فكرية غير محايدة غلبت عليها مناهج تعبر عن بنية الوعى الأوروبى التى تكونت عبر حضارته الحديثة مثل المناهج التاريخية ، والتحليلية ، والإسقاطية ، والأثر والتأثر(٣) .

فهل يمكننا القيام بعمل يعبر عن قدرة الأنا باعتبارها شعوراً محايداً ؟ هذا ما أرجوه من الله جل وعلا أن يكون عملى هذا لبنة فى العمل الكبير المرجو .

وأصلى وأسلم على نبينا محمد «ﷺ» .

* * *

١ ـ جب السابق ص ٢١٤ ، ٢١٧

٢ ـ جب السابق ص ٢١٤ ، ٢١٧

٣ ـ د حسن حنفى السابق ص ٣١

الفصل الأول

مباحث تمهيدية

الاستشراق

المفهوم ـ الأهداف ـ المنهج.

مفهوم الاستشراق

قلنا إن دراساتنا تتناول الوحى إلى نبينا «ﷺ» وموقف المستشرقين منه، لذلك سنقتصر هنا على مجرد إشارات إلى مفهوم الاستشراق «ORIENTALISM».

الاستشراق هو الوجه الآخر والمقابل ، بل والنقيض من الاستغراب ، أو هو رؤية الأنا الشرق) من خلال الآخر (الغرب)[1] .

وذهب المستشرق الألمانى (بارت) إلى أن «كلمة استشراق مشتقة من كلمة شرق[2] وكلمة شرق تعنى مشرق الشمس وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم عالم (الشرق) ».

ويرى بارت أن لفظة الشرق تختلف باختلاف الموقع الجغرافى، وينتهى إلى «أن المفروض أن اسم الاستشراق يختص بالبلدان الشرقية دون غيرها، ومهما يكن من أمر فإن الاسم لا يبين بوضوح مستقيم المقصود منه بالضبط، والمهم هو الموضوع ذاته [3] .

وذهب صاحبا (المفصل فى تاريخ الأدب العربى) إلى أن المستشرق هو «كل من تجرد من أهل الغرب لدراسة بعض اللغات الشرقية، وتقصى آدابها طلباً لتعرف شأن أمة أو أمم شرقية من حيث أخلاقها وعاداتها وتاريخها ودياناتها أو علومها وآدابها، أو غير ذلك من مقومات الأمم. والأصل فى كلمة (استشرق) أنه صار شرقياً أنه كما يقال (استعرب) إذا صار عربياً [4].

لا يمكننا الموافقة على أن الباحث الغربى بعد البحث فى علوم الشرق يصير شرقياً. يقول صاحب (مقدمة فى علم الاستغراب): الاستشراق « هو دراسة الحضارة الإسلامية من باحثين ينتمون إلى حضارة أخرى ولهم بناء شعورى مخالف لبناء الحضارة التى يدرسونها »[5]، فالمستشرق لاينسى أبداً لغته وثقافته وبيئته التى فيها نشأ وتربى . يقول الدكتور أحمد الشرباصى: إن المستشرقين «قوم من أوربا نسبوا أنفسهم

---

١ ـ د. حسن حنفى : مقدمة فى علم الاستغراب ص٢٩ لدار الفنية القاهرة ١٩٩١م .

٢ ـ يعنى الاستشراق لغة طلب علوم الشرق ، لأن الالف والسين والتاء إذا دخلت على فعل فإنها تعنى الطلب .

٣ ـ رودى بارت : الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعات الألمانية ترجمة د.مصطفى ماهر . ص١١ .١٢ دار الكتاب العربى القاهرة . ١٩٦٧م .وانظر أيضاً : د.ميشال جحا : الدراسات العربية والإسلامية في أوربا ص١٥ مون الإنمار العربى ط أول بيروت ١٩٨٢م .

٤ ـ أحمد الاسكندرى ، أحمد أمين : المفصل فى تاريخ الأدب العربى ٤٠٨/٢٠ . القاهرة ١٩٣٤م

٥ ـ د . حسن حنفى : السابق ص٣١

إلى العلم والبحث وشغلوها فى أغلب الأحيان بالبحث فى التاريخ والدين والاجتماع ولكل منهم لغته الأصلية التى رضع لبانها من أمه وأبيه ومجتمعه وبيئته ، فصارت له اللغة الأم كما يعبرون ، فهو يغار عليها ويتأثر بها ، ويستجيب لموحياتها ، ولكنه مع ذلك تعلم اللغة العربية بجوار لغته الأصلية»[1] .

البيئة والثقافة واللغة إذن فى وعى المستشرق، تعمل عملها وهو يتعامل مع الغير، بمعنى آخر: الاستشراق مرتبط بحضارته يقول فالزر Walzer «حركة الاستشراق كانت تسير جنباً إلى جنب مع التحولات والتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى سادت العصور التى عاش فيها أولئك المستشرقون فلا يمكن أن نفصل بين ما شهدته من ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية وبين ما أنتجه أولئك المستشرقون من دراسات.. »[2] فالاستشراق مرتبط بأيدلوجية الغرب الساعية إلى السيطرة والهيمنة على الغير. فالاستشراق « يتضمن الموقف التنفيذى السلطوى للاستعمار الأوربى »[3] كما أنه منهج غربى فى رؤية الأشياء، أو كما يقول إدوارد سعيد : هو « أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودى (Antalogy) ومعرفى (Epstalogy) بين الشرق والغرب »

ويعرف الهراوى الاستشراق بأنه «مهنة، وحرفة، كالطب والهندسة، والمحاماة، وهو أقرب الشبه إلى مهنة التبشير، ولا يخفى... أن التاريخ الإسلامى ينقسم إلى قسمين: القسم الأول منه: هو الإسلام من حيث هو دين ، وعناصره : القرآن والحديث، وحياة سيدنا محمد «ﷺ» والقسم الثانى منه : تاريخ الدولة العربية ـ الأحرى أن تكون الدولة الإسلامية ـ التى نشأت وعاشت فى الإسلام ، وهذا القسم قد خدمه المستشرقون لأنه نوع من المباحث التاريخية الحرة ، أما القسم الأول منه فهو بيت القصيد ، ولا يتصدى له كل المستشرقين ، والذين يتصدون له ترى كلامهم مملوءاً بالتشكيك والاستنتاج الخاطىء واللمز ، إن لم يكيلوا التهم جزافاً ، ويرموا الدين الإسلامى بما شاءت عقائدهم الخاصة وفائدتهم المادية »[4] .

---

١ ـ د. أحمد الشرباصى : التصوف عند المستشرقين ص٦.

٢ ـ R . Walzer - L. Eveil De la phlosaphie Islamique ; GeuthnerParis p.41.
مصطفى نصر السلامونى : الاستشراق السياسى طرابلس . ليبيا ١٣٩٦هـ ـ ١٩٨٦م .

٣ ـ إدوار سعيد: الاستشراق ص٣٨ .

٤ ـ حسين الهراوى : نحن و المستشرقون (مجلة المعرفة ١٩٣٢م)
وكلام الهراوى فضلاً عن التعريف يتناول بعض أهداف وأعمال المستشرقين ، غير أن الذى تصدى ـ منهم ـ لدراسة الدولة الإسلامية تجنى الكثير منهم على الدولة الأموية وعلى مؤسسها معاوية بن أبى سفيان وهو كاتب الوحى ، والطعن فيه مقصور لما بعده ، والذين عالجوا الدولة العباسية ، اعتمدوا بالدرجة

أما صاحب كتاب « الاستشراق » فيضع مفهوماً آخر للاستشراق من واقع الاستشراق ، فينظر إليه نظرة شمولية فالاستشراق «ليس مجرد موضوع أو ميدان سياسي ينعكس بصورة سلبية فى الثقافة ، والبحث، والمؤسسات، كما أنه ليس مجموعة كبيرة ومنتشرة من النصوص حول الشرق، كما أنه ليس معبراً عنه ، وممثلاً لمؤامرة إمبريالية غربية شنيعة لإبقاء العالم الشرقى حيث هو. بل إنه بالحرى، توزيع للوعى الجغراسى(أى الجغرافى السياسى)إلى نصوص جمالية، وبحثية واقتصادية، واجتماعية، وتاريخية ، وفقه لغة، وهو إحكام لا لتمييز جغرافى.أساسى وحسب (العالم يتألف من نصفين غير متساويين، الشرق والغرب) بل كذلك لسلسلة كاملة من المصالح التى لا يقوم الاستشراق بخلقها فقط ، بل بالمحافظة عليها أيضاً بوسائل كالاكتشاف البحثى ، والاستبناء فقه اللغة ، والتحليل النفسى والوصف الطبيعى والاجتماعى، وهو إرادة ، بدلاً من كونه تعبيراً عن إرادة، معينة أو نية معينة لفهم ما هو بوضوح، عالم (أو بديل طارئ)والسيطرة عليه أحياناً ، والتلاعب به ، بل حتى ضمه، وهو قبل كل شيء إنشاء ليس على الإطلاق على علاقة تطابقية مباشرة مع القوة السياسية فى شكلها الخام ، بل إنه لينتج ويوجد فى تفاعل غير متكافىء مع مختلف أنماط القوة مكتسباً شكله إلى حد ما من تفاعله مع القوة السياسية ، كما هى الحال فى تفاعله كمؤسسة استعمارية أو إمبريالية ، والقوة الفكرية ، كما هى الحال مع علوم تحتل مركز الصدارة مثل الألسنية المقارنة ، وعلم التشريح المقارن ، أو أى من علوم السياسة الحديثة، والقوة الثقافية : كما هى الحال مع المذاهب السنية الأرثوذكسية ، وشرائع الذوق والنصوص والقيم ، والقوة الأخلاقية : كما هى الحال مع أفكار تدور حول ما نفعله « نحن » ، وما يعجزون « هم » عن فعله أو فهمه ، كما نفعله « نحن » ، وبالفعل ، فإن منظومتى الحقيقة هى أن الاستشراق لا يمثل ببساطة بعداً هاماً من أبعاد الثقافة السياسية ـ الفكرية الحديثة ، بل إنه هو هذا البعد ، وهو بهذه الصورة أقل ارتباطاً بالشرق منه بعالمنا نحن ... »[1] .

الاستشراق ـ إذاً ـ ليس محصوراً فى الجوانب الأكاديمية فى جامعات الغرب ، أو فى جوانب الفكر والأدب والشعر.والاستشراق لا يمثل إرادة المستعمر بل هو هذه الإرادة ، ولما كان الفكر يسبق العمل،كان النظر إلى الاستشراق بمعزل عن السياسة ،

- الأولى على كتاب الأغانى للأصفهانى ، فشوهوا تاريخنا من خلاله ، فهارون الرشيد الذى كان يحج عاماً ويجاهد عاماً والذى شهدت بلاد الإسلام نهضة علمية رائعة فى عصره صوروه زير نساء (!) فأى خدمة تلك التى قدمها المستشرقون ؟ .

١ ـ إدوارد سعيد : الاستشراق ص٤٦ ـ ٤٧ .

أقصد بمعزل عن قوى الاستعمار يعد خطأ كبيراً .

المستشرق ـ إذاً ـ ينتمي إلى الغرب ، ولو كان يابانياً أو هندياً أو إندونيسياً لما استحق أن يوصف بالمستشرق لأنه شرقي بحكم مولده وبيئته وحضارته ... وليس من الضروري أن يرحل المستشرق ـ فيما يقول الدكتور الخربوطلي ـ إلى الشرق ليعيش فيه أو ليتطبع بطباعه أو حضارته ، فقد يقوم بدراسته في جامعته الغربية أو في وطنه ، وإن كان رحيله إلى الشرق يجعل دراسته أكثر فائدة وأقرب إلى الواقعية ، وليس من الضروري أن يعتنق هذا المستشرق الإسلام أو أحد الأديان السائدة في الشرق ، كما أنه ليس من الضروري أيضاً أن يتحدث باللغات الشرقية ، وإن كان الإلمام بها أو إجادتها يعينه كثيراً في دراسته وأبحاثه[1] .

غير أننا نتساءل : كيف يتسنى لباحث جاد ، غير عربي ـ أي غير شرقي ـ أن يدرس الإسلام : سواء أكانت العقيدة أو الشريعة أو التاريخ ... كيف يتسنى له ذلك إذا لم يكن يجيد العربية ؟ كيف يتسنى له دراسة القرآن وهو يجهل لغة القرآن ؟ من هنا شدد البعض على ضرورة إتقان المستشرق لغة القوم الذين يقوم بدراستهم ، فليس « صاحب علم الشرق الجدير بهذا اللقب بالذي يقتصر على معرفة بعض اللغات المجهولة أو أن يستطيع أن يصف عادات بعض الشعوب ، بل إنه من جمع بين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشرق ، وبين الوقوف على القوى الروحية الأدبية الكبيرة التي أثرت على تكوين الثقافة الإنسانية[2] .

وأخيراً، فإن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن: ما معنى أن يوجد في بلادنا أناس من بني جلدتنا، ولكنهم يحملون فكر المستشرقين، يرددون ما يقولون، ويدعون إلى ما يدعون ؟

هل هو الشعور بالنقص أمام زحف الحضارة الغربية وعجز العالم الإسلامي وانهياره من جراء صدمة عنيفة أحدثها الانقلاب في موازين القوى فأصبح المتقدم متخلفاً والعكس ؟

يقول المفكر مالك بن نبي: « ..ولقد أحدثت هذه الصدمة عند قبيل من المثقفين المسلمين شبه شلل في جهاز حصانتهم الثقافية،حتى أدى بهم مركب النقص إلى أن ولوا مدبرين أمام الزحف الثقافي الغربي،وألقوا أسلحتهم في الميدان كأنهم فلول

---

١ ـ د. علي الخربوطلي : المستشرقون والتاريخ ص٢٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر ١٩٨٨م .
٢ ـ ميخائيل أنجلو جويدي ، علم الشرق وتاريخ الأديان ص١١ ، ١٤ مجلة الزهراء . عدد ربيع الأول ١٣٤٧هـ القاهرة .

جيش منهزم فى اللحظة التى بدأ فيها الصراع الفكرى يحتدم بين المجتمع الإسلامى والغرب ، فأصبح هذا القبيل من المثقفين يبحث عن نجاته فى التزيى بالزى الغربى ،وينتحل فى أذواقه وسلوكه »[١] .

هل هذا من تخطيط الاستشراق كقوة مفكرة، قائدة لقوى الاستعمار، بحيث يأتى التفجير ـ فيما يظنون ـ من داخلنا؟ هل خلق تلاميذ للاستشراق من أهل الشرق ـ أعنى الشرق الإسلامى ـ يعد طوراً من أطوار الاستشراق ذاته،طالما أنهم يحققون أهدافه ؟

وسواء حسنت نية التلاميذ أو كانت سيئة، فمازال « المستشرقون يجدون من يفتح لهم أذرعتهم من الباحثين الذين هم امتداد الاستشراق فى بلادهم ، والذين وقعوا ضحية مناهجهم والذين لم يبلغوا بعد درجة الوعى القومى، والذين مازالوا يسلكون (بعقدة الخواجة) أو الذين تربطهم بالاستشراق الغربى مصالح مشتركة من مناصب أو درجات أو دعوات أو مؤتمرات »[٢] .

وطالما أن هؤلاء امتداد للاستشراق ألا يعدون مستشرقين حتى وإن كانوا عرباً أو شرقيين ؟

لقد اعتبر نجيب العفيفى ـ وهو شرقى/عربى ـ نفسه مستشرقاً،فيقول فى كتابه «المستشرقون »:« ..إننا فى دراستنا لا نسعى إلى نوايا جانبية غير صافية، بل نسعى إلى البحث عن الحقيقة الخالصة »[٣]فهو ينسب نفسه للمستشرقين ، فضلاً عن أنه يتكلم عن المدرسة المارونية ضمن مدارس الاستشراق ، ويجعل نفسه واحداً من رجالها[٤] .

وإذا كان الاستشراق يمثل خطراً على الإسلام، فلقد ظهر« علماء مسلمون فى الشرق والغرب هم أعظم خطراً من المستشرقين إذا ما عد هؤلاء من تلاميذ المستشرقين »[٥].

ننتهى من هذه الإشارات إلى أن الاستشراق قوة :سياسية وعقائدية ،واجتماعية ،

---

١ ـ مالك بن نبى : إنتاج المستشرقين وأثره فى الفكر الإسلامى الحديث ص١٣ ـ ١٤ مكتبة عمارة . القاهرة .

٢ ـ د. حسن حنفى : الراث والتجديد ص٩٣ مكتبة الجديد

٣ ـ نجيب العفيفى : المستشرقون جـ٣ ص٥٩٨

٤ ـ د. عبدالعظيم الديب : المستشرقون والتراث ص١٠ الهامش مكتبة ابن تيمية / البحرين ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

٥ ـ د. على بن ابراهيم النملة : كنه الاستشراق .. ص٢٩ الكتاب الدورى لقسم الاستشراق كلية الدعوة بالمدينة المنورة ١٤١٢هـ .

وعسكرية ، وثقافية ، وعلمية ، ونفسية ، وتخيلية،..فهل بذلك يمكننا أن نكتنه الاستشراق؟وإذا كان ذلك كذلك فهل يمكننا التعامل مع الاستشراق بالروية والموضوعية والنفس الطويل ؟

يمكننا ذلك إذا صلحت النيات ، وغيرنا ما بأنفسنا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

* * *

أهداف الإستشراق

تتداخل أهداف الاستشراق ، بحيث لا يستطيع الباحث ـ بسهولة ـ وضع خطوط أو فواصل بينها ، فالهدف الدينى والهدف العلمى ، والهدف السياسى أو الاستعمارى ، ... هذه الأهداف جميعها حاضرة فى التخطيط الاستشراقى بحيث تؤدى جميعها فى نهاية المطاف إلى تحقيق هدف وحيد هو ـ فيما نرى ـ قهر الإسلام وأهله وإعلاء المسيحية وسيادتها .

يقول المستشرق الإنجليزى هـ . أ . جب محدداً الهدف النهائى للاستشراق «كانت النتيجة الخالصة لهذه الحركة التعليمية أنها حررت ـ بقدر ما كان لها من تأثير ـ نزعة الشعوب الإسلامية من سلطان الدين دون أن تحس الشعوب بذلك غالباً ، وهذا وحده تقريباً هو جوهر كل نزعة غربية فعّالة فى العالم الإسلامى »(١) .

الهدف النهائى للاستشراق إبعاد سلطان الدين عن نفوس المسلمين بأى وسيلة ، عن طريق التعليم ـ أو غيره ـ فالتعليم « أكبر العوامل الصحيحة التى تعمل على الاستغراب » . رغم هذا التداخل فإننا سنحاول تناول أهداف الاستشراق ، وسنقتصر هنا على ثلاثة منها :

○ أولاً : الهدف الدينى :

الهدف الدينى للاستشراق من الأهداف الواضحة فقد صاحب الاستشراق طوال مراحل تطوره يقول الدكتور إدوارد سعيد : « إن الاستشراق السامى والاستشراق الإسلامى لم يكونا قد حررا نفسيهما ، إلا إلى درجة ضئيلة جداً ، من إسار الخلفيّة الدينية التى اشتق منها أصلاً »(٢) .

صاحب كتاب « الاستشراق » يشير إلى بدايات الإستشراق الكنسية ، كالذى جاء فى الخطاب الموجه إلى مؤسس كرسى اللغة العربية فى جامعة كمبردج والمؤرخ فى ٩مارس من سنة ١٦٣٦م:«ونحن ندرك أننا لانهدف من هذا العمل إلى الاقتراب من الأدب الجيد بإلقاء الضوء على المعرفة وهى ماتزال بعد محتبسة فى نطاق هذه اللغة التى نسعى لتعلمها ، ولكننا نهدف أيضاً إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية، وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة النصرانية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن فى الظلمات »(٣) .

١ ـ جب : وجهة الإسلام ص٢١٧ ، ٢١٤ ترجمة د. محمد عبدالهادى أبو ريدة المطبعة الإسلامية بمصر . الطبعة الأولى .

٢ ـ إدوارد سعيد : الاستشراق ص٢٦٥ ترجمة كمال ابوديب مؤسسة الأبحاث العلمية .

١ ـ د . عبداللطيف الطيباوى : المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ص (٢١ ، ٢٢) ترجمة د. قاسم السامرائى . مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .

ومهما قيل عن أهداف تعلم العربية وإنشاء كرسى لها ، فإن الهدف التنصيرى واضح ، « فهذا أول جالس على كرسى اللغة العربية فى جامعة كمبردج قد أعد مشروعاً لم يكتمل تنفيذه قط لتفنيد القرآن »[١] .

وبداية أخرى ـ سبقت إنشاء كرسى اللغة العربية فى جامعة كمبردج ـ على يد الراهب « بطرس المبجل »(١٠٩٢ ـ ١١٥٦) رئيس دير كلونى الشهير ، فقد استقر رأيه على ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية بغية فهمه أولاً ثم الرد عليه ثانياً .

هدف هذا الراهب من وراء ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية هو هداية المسلمين ـ فيما يظن ـ إلى الديانة النصرانية ـ وهذا هدف تبشيرى بالدرجة الأولى ، استخدم المبشرون فيه العلم لرد المسلمين عن دينهم[٢] .

يقول الدكتور محمد البهى: «..والسبب الرئيسى المباشر الذى دعا الأوربيين إلى الاستشراق، هو سبب دينى فى الدرجة الأولى.. فقد تركت الحرب الصليبية فى نفوس الأوربيين ما تركت من آثار مرة عميقة ، وقد تركزت أهداف الاستشراق ـ مع تنوعها أخيراً ـ فى خلق التخاذل الروحى، وإيجاد شعور بالنقص فى نفوس المسلمين والشرقيين عامة، وحملهم من هذا الطريق على الرضا والخضوع للتوجيهات الغربية»[٣] .

والهدف الدينى للاستشراق ـ أو قل للتنصير ـ سار فى اتجاهين متعاكسين ، اتجاه الشمال، واتجاه الجنوب، اتجاه إلى العقل الأوربى المسيحى وآخر إلى العقل المسلم اتجه إلى الأول ليحول بينه وبين الإسلام بتشويهه وحجب محاسنه، واتجه إلى الثانى بغرض التشكيك فى العقيدة الإسلامية وزعزعة ثقته فى نبوة محمد «ﷺ»، فقد ظهرت فى القرن الحادى عشر الميلادى كتب تناولت الإسلام، قد حفلت بالاتهامات والشتائم، وكلها تتصف بالتهور والافتراءات الغريبة التى لا تدل على تفكير سليم، ولم تبذل محاولة جدية لفهم الإسلام أو دراسة حياة محمد «ﷺ»[٤] .

من أجل هذا كانت ترجمة القرآن الكريم، وإنشاء المدارس والمعاهد لتعليم العربية وكل ما يتعلق بالدين الإسلامى، بغرض الجدل ومحاولة الإفحام .

---

١ ـ د . عبداللطيف الطيباوى : المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ص (٢١ ، ٢٢) ترجمة د. قاسم السامرائى . مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .

٢ ـ دكتور : ساسى سالم الحاج : الظاهرة الاستشراقية جـ١ ص٤٣ ـ ٤٤ (مالطا) ط أولى ١٩٩١م .

٣ ـ د. محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٠٤٣ . مكتبة وهبة القاهرة . الطبعة العاشرة وأيضاً : مصطفى خالدى، وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ص٢٤ ، ٢٥ بيروت ١٩٨٢م.

٤ ـ د. على حسنى الخربوطلى : المستشرقون والتاريخ الإسلامى ص٥٦,٥٧ الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٨٨.

الهدف الدينى وراء نشأة الاستشراق حتى اليوم « فحين نسأل التاريخ عن حركة الاستشراق والتبشير كيف نشأت ؟ يلقانا جوابه الصريح بأنها قامت أول ما قامت فى رعاية الكنيسة الكاثوليكية للإشراف المباشر من كبار أحبارها »[١] .

أما عن المستشرقين اليهود ، فقد لاحظ بعض الباحثين ـ فيما يقول الدكتور محمد البهى ـ أنهم أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية : هى محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك فى قيمه بإثبات فضل اليهودية على الإسلام بادعاء أن اليهودية فى نظرهم هى مصدر الإسلام الأول ، والأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية : فكرة أولاً ثم دولة ثانياً .

يقول الدكتور البهى: هذه وجهة نظر ربما لا تجد مرجعاً مكتوباً يؤيدها غير أن الظروف العامة ، والظواهر المترادفة فى كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه ، وتخلع عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمى[٢] .

ويمكننا تلخيص غايات الهدف الدينى فى نقاط :

١ ـ زعزعة إيمان المسلمين بقرآنهم ونبيهم « ﷺ » .

٢ ـ تشكيك المسلمين فى الشريعة الإسلامية وعجزها ـ فى زعمهم ـ عن مسايرة التطور ، فالدراسات الاستشراقية الحديثة تحاول « التركيز على أهمية القوانين الوضعية وتطبيقها على المسلمين بدلاً من شريعة القرآن[٣] .

٣ ـ حجب محاسن الإسلام عن العقل المسيحى حتى لا يقتنع به ثم يعتقده.

٤ ـ زرع تخاذل روحى وشعور بالنقص فى نفوس المسلمين خاصة والشرقيين عامة .

وإذا كان الهدف الدينى لم يعد ظاهراً الآن فى كتابات المستشرقين المعاصرين ، فليس معنى ذلك أنه قد اختفى تماماً ، إنه لايزال يعمل من وراء ستار[٤] . لأنه من الصعب على المستشرقين وأكثرهم مسيحيون متدينون، أن ينسوا أنهم يدرسون ديناً ينكر عقيدة التثليث وعقيدة الصلب والفداء، وهما أسس الدين المسيحى، كما أنه

١ـ د. عائشة عبدالرحمن : تراثنا بين ماض وحاضر ص٥٢ معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ١٩٦٨م .

٢ ـ د. محمد البهى : المصدر السابق ص٤٣١ .

٣ ـ د. عدنان وزان : الاستشراق والمستشرقون ص١٢٩ مطبعة رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة ط١٤٠٤هـ .

٤ ـ د. محمود حمدى زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص٨٧ دار المنار . القاهرة ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م .

من العسير أن يتغافلوا عن الفتوحات الإسلامية التى قضت على المسيحية وأحلت الإسلام محلها[١] .

يقول برنارد لويس (اليهودى) :« لاتزال آثار التعصب الدينى الغربى ظاهرة فى مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة فى الغالب وراء الحواشى المرصوصة فى الأبحاث العلمية »[٢] . ورغم هذا الاعتراف من برنارد لويس إلا أنه يحذو حذو سابقيه ومعاصريه فتراه يتخذ موقفاً عقائدياً عدائياً للإسلام ، فضلاً عن تأثيره على صانعى القرار الأمريكى فيما يتعلق ببلاد الإسلام .

الهدف الدينى الصليبى لايحتاج إلى جهد لتبينه أو لإثباته فى إنتاج المستشرقين ، فلا يخفى أن معظمهم من الرهبان والقساوسة .

○ ثانياً الهدف الاستعمارى أو التسلطى :

تعانقت حركة الاستشراق مع الحركة الاستعمارية الغربية . يقول الدكتور إدوارد سعيد: « إذا اتخذنا من أواخر القرن الثامن عشر نقطة للانطلاق محددة تحديداً تقريبياً، فإن الاستشراق يمكن أن يناقش ويحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق، التعامل معه بإصدار تقريرات حوله ، وإجازة الآراء فيه وإقرارها، وبوصفه، وتدريسه، والاستقرار فيه ، وحكمه : وبإيجاز الاستشراق كأسلوب غربى للسيطرة على الشرق، واستبنائه وإمتلاك السيادة عليه »[٣] .

تلاقت الأهداف والغايات، أهداف ملوك أوروبا الصليبية مع أهداف مفكريها من مستشرقين ومنصرين، « تلقف الاستعمار هذه الحركة ـ حركة الاستشراق ـ وكان ملوك الدول الاستعمارية رعاتها، وكان قناصلهم فى « بلدان الشرق عمالها »[٤] .

كانت رغبة المحتل « الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات عن البلاد التى وقعت تحت الاحتلال الأوربى حتى تستغل هذه المعلومات فى فهم روح الشعوب القاطنة هناك حتى تسهل السيطرة عليها ومخاطبتها بلغتها ، كانت الغاية جمع المعلومات إلى الوطن الأم وهى ـ أوربا ـ عندما كانت دولها سيدة البحار ، وكان المستشرقون هم الوسيلة لذلك »[٥] .

يؤكد هذا ما ذهب إليه مارسيل بوازار، من أن « الاستشراق كان فى الأصل أحد

١ ـ إبراهيم اللبان : المستشرقون والإسلام ص٣٦ . القاهرة ١٩٧٠ .
٢ ـ لويس : العرب فى التاريخ ص٦٣ نقلاً عن . اللبان : المصدر السابق .
٣ ـ د. إدوارد سعيد : الاستشراق ص٣٨ .
٤ ـ زكريا هاشم : المستشرقون والإسلام ص٦٥ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٥م
٥ ـ د. حسن حنفى : التراث والتجديد ص٩٢ مكتبة الجديد القاهرة .

الفروع العلمية المرتبطة بالعلوم الاستعمارية فى فرنسا وفى بريطانيا العظمى... فقد كان المطلوب إجمالاً فهم العقلية الإسلامية فهماً جيداً لتسهيل الإدارة الاستعمارية للشعوب الإسلامية »[١] .

وفى مطلع القرن العشرين ، لم يكن بإمكان رجال مثل بلفور وكرومر ـ وهم من عتاة ودهاة المحتل البريطانى ـ أن يقولوا ما قالوه ، وبالطريقة التى بها قالوا : إلا « لأن تراثاً من الاستشراق ، أقدم من تراث القرن التاسع عشر ، زودهم بمفردات ، وصور ، وبلاغة ، ومجازات ليتولوه بها . ومع ذلك فإن الاستشراق عزّز، وعزّز بالمعرفة الأكيدة لكون أوربا أو الغرب تسيطر .. »[٢] كان الاستشراق سجلاً من المعلومات ، استخدمها المحتل ـ إنجليزى وفرنسى ـ للسيطرة على الشرق الإسلامى والسيادة عليه .

ومن الأمثلة العديدة لارتباط الاستشراق بالاستعمار ، يذكر الدكتور محمود حمدى زقزوق، بعض النماذج للمستشرقين الذين كانوا أداة فى يد الاستعمار، منهم (كارل هينريس بيكر) (ت١٩٣٣م) مؤسس «مجلة الإسلام» الألمانية الذى قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية فى أفريقيا .

أما المستشرق الروسى (بارثولد Barthold) (ت١٩٣٠م) وهو مؤسس « مجلة عالم الإسلام » الروسية ، فقد تم تكليفه عن طريق الحكومة الروسية بالقيام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية فى آسيا الوسطى .

أما عالم الإسلاميات الهولندى (سنوك هورجرونيه) (ت ١٩٣٦) فإنه فى سبيل استعداده للعمل فى خدمة الاستعمار توجه إلى مكة فى عام ١٨٨٥م، بعد أن انتحل اسماً إسلامياً ، وأقام هناك ما يقرب من نصف عام، وكان يجيد العربية ، وقد لعب هذا المستشرق دوراً مهماً فى تشكيل السياسة الثقافية والاستعمارية فى المناطق الهولندية فى الهند الشرقية، كما شغل مناصب قيادية فى السلطة الاستعمارية الهولندية فى إندونيسيا[٣] .

من المعروف أن معظم المستشرقين من المنصرين أو كانوا منصرين ، لذلك فإن التقاء المحتل الغاضب بالمنصرين هو التقاء بالمستشرقين ، يقول الدكتور محمد البهى:

« أقبل الأوربيون على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز المبشرين وإرسالهم للعالم الإسلامى ، والتقت هنا مصلحة المبشرين مع أهداف الاستعمار فمكن لهم ، واعتمد

١ ـ مارسيل بوازار : الإسلام اليوم ص١٩ ـ٢٠ بيروت ١٩٨٦م
٢ ـ د. إدوارد سعيد : المصدر السابق ص٧٢ .
٣ ـ د. محمود حمدى زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية ص٥٥ ـ ٥٦ مصدر سابق .

عليهم في بسط نفوذه في الشرق . وأقنع المبشرون زعماء الاستعمار بأن المسيحية ستكون قاعدة الاستعمار الغربي في الشرق، وبذلك سهل الاستعمار للمبشرين مهمتهم وبسط عليهم حمايته ، وزودهم بالمال والسلطان، وهذا هو السبب في أن الاستشراق قام في أول أمره على أكتاف المبشرين والرهبان ثم اتصل بالاستعمار »[١] .

وأصبح دور المستشرق في ظل المد الاستعماري يماثل دور المنصر ، وكأن الاستشراق ولد من أبوين غير شرعيين هما : الاستعمار والتنصير يضاف إليهما الصهيونية التي تهدف من سيطرتها على الاستشراق إلى الحيلولة دون تجمع المسلمين العرب في وحدة تقاوم الصهيونية[٢] .

يقول أحد قادة فرنسا العسكريين في المغرب العربي ، مقالة المستشرقين: «أليس من الواجب أن نقلل من درجة قوتهم وديانتهم الزاهرة... أقول هذا ، ويقيني بأنني لوكنت عالماً بأن المسلمين سيطلعون على مقالي هذا ما غيّرت من لهجته »[٣] .

قد يظن ظان أنه بعد رحيل العسكر عن بلادنا توارى الهدف الاستعماري للاستشراق، نقول: لا . لقد تنامى هذا الهدف، فلقد كانوا يحتلون الأرض، وأصبحوا الآن في ضوء هدفهم هذا يحتلون العقل والفكر، تم لهم ذلك، بعد أن « سقطت معظم الجامعات المنشأة في بلاد المسلمين ، تحت الأيدي الخفية للاستشراق والتبشير والدوائر الاستعمارية، وغدت خططها ومناهجها تخضع بطريق غير مباشر لما تفرضه وغلبة هذه الأيدي الخفية ، وغدت الكنيسة الغربية تفخر بأن العلوم الإسلامية والعلوم العربية تدرس على طريقتها التي تخدم أغراضها في بلاد المسلمين . وبأن المشرفين على تدريس هذه العلوم من تلامذة أبنائها .

وأي انتكاس أقبح من هذا الانتكاس . أن يتعلم المسلمون دينهم ولغاتهم ، وفق طرائق أعدائهم وأعداء دينهم ، ووفق دسائسهم وتشويهاتهم ، وتحويراتهم وأكاذيبهم وافتراءاتهم : هل يقبل اليهود والنصارى أن يتعلموا أصول دياناتهم وفروعها على أيدي علماء المسلمين ، وأن يأخذوا منهم الشهادات كذلك ؟

إن الاستعمار المادى أهون من هذا اللون من ألوان الاستعمار ، الذى وصل إلى

---

١ ـ د. محمد البهى : المصدر السابق ص٤٣٠ .

٢ ـ د. أحمد عبدالرحيم السائح : العلاقة بين الاستشراق والتبشير ص٢٩١ ، د. محمد أحمد محمد : منهج نقد الاستشراق ... ص١٨٥ . الكتاب الدورى لقسم الاستشراق بكلية الدعوة بالمدينة المنورة العدد الأول ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٣م .

٣ ـ جريدة الفتح : محب الدين الخطيب السنة الخامسة جمادى الآخرة ع ٢٢٢ ، مصطفى نصر المسلاتى : الاستشراق السياسى ص١٣٤ ـ ١٣٥ الطبعة الأولى . منشورات إقرأ طرابلس .

القاعدة الكبرى التى تقوم عليها الأمة الإسلامية ، وهى قاعدة دينها وعلومه المتصلة بهذا الدين »[١] .

يتضح مما سبق أن أهداف الاستشراق والتبشير والاستعمار واحدة ، فأكثر المستشرقين كانو عملاء للاستعمار فى بلاد العروبة و الإسلام ، ودأبوا على تقويض الخصائص و المقومات الدينية و التاريخية للعرب و للمسلمين ، كى يمكنوا للاستعمار فى هذه البلاد ، وليشيعوا النزعة الصليبية الغربية فى مجالات مختلفة ومنها بطبيعة الحال مجال التظاهر بالبحث العلمى الصرف المحايد[٢] .

وهكذا أصبح الاستشراق وسيلة فعالة لخدمة الاستعمار الغربى بعد أن أنجز تقمصه وتحوله من إنشاء بحثى إلى مؤسسة أمبريالية[٣] .

○ **الهدف العلمى:**

هذا النفر من المستشرقين هم أفضلهم ـ و الفضل هنا نسبى أيضاً ـ إذ أنهم أقبلوا على الدراسات العربية والإسلامية بدافع المعرفة الحقة أوالبحث عن الحقيقة التى افتقدها الكثير منهم فيما هم عليه من نصرانية، ومن ثم جاءت أبحاثهم متسمة بالموضوعية والاعتدال.

قد تأتى دراسات البعض ـ إذن ـلغرض علمى الافادة من الجوانب المشرقة فى تاريخ الشرق، كالوقوف على تاريخ العلوم التى ازدهرت فى رحاب الحضارة الإسلامية...أو الوقوف على حلقات غامضة من تاريخ الحضارة الأوربية ولكنها تتضح من خلال معرفتهم بتاريخ الحضارة الإسلامية . ومن ذلك محاولتهم الوقوف على تاريخ اليونان و الرومان..من خلال المصادر الإسلامية ...[٤]

ومن هؤلاء من يؤدى بهم البحث العلمى الخالص لوجه الحق إلى اعتناق الاسلام و الدفاع عنه فى أوساط أقوامهم الغربيين [٥]

ويرى المستشرق (بارت) أن ظهور هذه الفئة من المستشرقين كان على وجه التقريب منتصف القرن التاسع عشر . يقول : «إننا نعنى أن الصفة العلمية بالمعنى الحديث ظهرت فى هذا الوقت على الاستشراق بوضوح أكثر من ذى قبل.. وذلك

١ ـ الشيخ عبدالرحمن حبنكة : أجنحة المكر الثلاثة ص٨٨ ط . دمشق

٢ ـ د . أحمد الشرباصى : التصوف عند المستشرقين ص ٨،٩ مصدر سابق .

٣ ـ د . ادوارد سعيد : السابق ص ١٢٠ .

٤ـ د. اسماعيل عميرة : الجذور التاريخية للظاهرة الاستشراقية ص ٦٠ دار حزين . عمان ١٩٩٢ م .

٥ ـ د. مصطفى السباعى : الاستشراق و المستشرقون ص ٢٤ .

عندما اجتهدوا فى نقل صورة موضوعية لعالم الشرق متجردين من الأراء السبقية وعن كل لون من ألوان الانعكاس الذاتى »[١].

ويرى إدوارد سعيد فى كلام بارت تعميماً ، فيوافقه على أن فى هذه الفترة بدأ طموح بعض المستشرقين لصياغة اكتشافاتهم ، وتجاربهم ، ونظراتهم الثاقبة ، بلغة حديثة مناسبة ، أو لجعل أفكارهم حول الشرق على اتصال وثيق بالواقع الحديث ... ومع أن الاستشراق مثل كثير من العلوم الطبيعية والاجتماعية ، له منطلقات للبحث وجمعياته العلمية ومؤسسته الخاصة إلا أنه أخضع للإمبريالية ، والوضعية المنطقية ، والطوباوية والدارونية والعرقية والفرويدية والماركسية[٢] ...

ويدافع بارت عن الهدف العلمى للاستشراق بقوله : « نحن معشر المستشرقين ، عندما نقوم اليوم بدراسات فى العلوم العربية والعلوم الإسلامية لانقوم بها فقط لكى نبرهن على صفة العالم العربى الإسلامى ، بل على العكس ، نحن نبرهن على تقديرنا الخالص للعالم الذى يمثله الإسلام ومظاهره المختلفة والذى عبر عنه الأدب العربى كتابة »[٣] ...

يبدو أن بارت فضلاً عن أسلوبه التعميمى الفضفاض يبالغ فى توجهات المستشرقين العلمية المجردة ، ومع الإقرار بتوافر نزعة التحرر ـ من سلطان الكنيسة والاستعمار ـ العلمية لدى القليل من المستشرقين « ولكن لا يشك كثيراً أيضاً فى أن الوصول إلى هذا الهدف لم يتحقق لعدد كبير من الدارسين للإسلام سواء من مات منهم أو من لم يزل حيا . وتنقسم جهودهم بطبيعتها إلى قسمين متميزين : نشر النصوص ، والدراسات التحليلية ... ولكن يمكن أن نقرر هنا على سبيل الإجمال أن النظرة العلمية للدارسين للإسلام ... كانت أقل عمقاً فى دراسات هؤلاء منها فى نشرهم النصوص . ولا تعوذنا الشواهد على نقص التجرد العلمى حتى بالنسبة لتحقيق أو ترجمة النصوص حيث كان الموضوع يستسلم لأهواء الآراء الثابتة المقررة عن الإسلام مما لايزال قائماً فى عقول بعض الباحثين الغربيين[٤] .

ويرجع بعض الباحثين الإسلاميين نمو الأغراض العلمية للدراسات الاستشراقية إلى أسباب عديدة منها : انحسار المد الاستعمارى المباشر بعد الحرب العالمية الثانية

---

١ ـ روى بارت : الدراسات العربية و الاسلامية .. ص ١٧ .

٢ ـ إدوارد سعيد : المصدر السابق ص ٧٣ ، ٧٤ .

٣ ـ بارت السابق ص١٠ .

٤ ـ د. طيباوى : المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ص٢٤ ، ترجمة د. قاسم السامورائى .

وبروز أفكار جديدة تنادى بالمساواة بين الدول ، وحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وإلغاء الهيمنة الاستعمارية وخلق جهاز دولى جديد كالأمم المتحدة ، يحاول طبقاً لمجهوداته حفظ الأمن والسلام ، والمساواة بين الشعوب ، ومنها تطور طرق البحوث العلمية فى مجال العلوم الإنسانية[١] .

إننا نرى أن الهدف العلمى الخالص ينبع من ذاتية المستشرق وأمانته العلمية، أما أى شىء آخر فيأتى كعامل مساعد وإن لم يوجد فعلى الباحث ـ المستشرق ـ التخلى عن الموضوع .

وإذا كان صحيحاً ما ذهب إليه الدكتور ساسى فإلى أين سيتجه الاستشراق أو هذه الفئة المتجردة للعلم من المستشرقين بعد انحسار دور الأمم المتحدة وتخاذلها أمام ما يسمى بالنظام الدولى الجديد ؟ ومعروف أنه محاولة أمريكية أوروبية للسيطرة والهيمنة بشكل أو بآخر ؟

إن إعجاب البعض منا بتوجهات هؤلاء المستشرقين العلمية لا يجب أن يحول «دون مناقشتهم فى آراء لهم غير سديدة قال بها من قال ذهاباً مع أهواء النفس الكثيرة»[٢] .

وأخيراً ، إذا أراد الاستشراق أن يلعب دوراً فعالاً فى ميادين العلوم، وخاصة العلوم الإنسانية، فعليه أن يدرك، وقد آن الأوان لذلك، أن قيمة دراساته لا تعتمد على ما فيها من مشاحنات وانفعالات، بل على ما فيها من صدق، وإخلاص ومنهجية موضوعية[٣] .

يجمع الاستشراق وحدة الهدف الذى يتمثل فى معرفة الآخر ، أى معرفة الشرق عامة والشرق الإسلامى خاصة، ومعرفة الشرق أو الشرقيين لا حذر منها، ولكنهم سعوا إليها ويسعون بغرض فهم شعوبه أكثر، ليتسنى لهم السيطرة والسيادة عليه ـ بأساليب غير الاحتلال المباشر[٤] ـ وذلك بإضعاف مثل الإسلام وقيمه العليا من جانب ، وإثبات تفوق المثل الغربية وعظمتها من جانب آخر، وإظهار أى دعوة للتمسك بالإسلام بمظهر الرجعية والتأخر[٥] .

---

١ ـ د. ساسى سالم الحاج : المرجع السابق ص١٨٥ .

٢ ـ محمد كرو على : الإسلام والحضارة العربية جـ١ ص١٩٣٣م.

٣- د. أحمد سمايلوفتش : المصدر السابق ص ١٠٢ .

٤ - أمام عجزهم عن تنصير المسلمين، أذاعوا ونشروا المذاهب الفكرية الحديثة، كالشيوعية ، والوجودية، والدارونية ، والبراجماتية ، والوضعية المنطقية ...

٥ ـ د. عبدالكريم عثمان : معالم الثقافة الإسلامية ص٩٩ .

كلمة في المنهج

إن المنهج الذى يتبعه جل المستشرقين فى دراساتهم للإسلام عامة ، والوحى القرآنى خاصة يقوم على مسلمة ـ بالنسبة لهم ـ تلك هى: أن محمداً « ﷺ » ليس نبياً يوحى إليه،ثم يسيرون فى هذا الاتجاه للتدليل على صحته، ولاشك أن هذا حكم أو نتيجة وضعوها وحددوها قبل وضع المقدمات ، ومع هذا يحاولون إلباس مناهجهم ـ المدعاة ـ ثياب العلمية والمنهجية والموضوعية .

فالمستشرق الألمانى « رودى بارت » يقول:« ... فنحن معشر المستشرقين، عندما نقوم اليوم بدراسات فى العلوم العربية والعلوم الإسلامية لا نقوم بها قط لكى نبرهن على ضعة العالم العربى الإسلامى، بل على العكس، نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذى يمثله الإسلام ومظاهره المختلفة والذى عبر عنه الأدب العربى كتابة. ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شىء ترويه المصادر على عواهنه دون أن نعمل فيه النظر، بل نقيم وزناً فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخى أو يبدو وكأنه يثبت أمامه، ونحن فى هذا نطبق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية التى نشتغل بها المعيار النقدى نفسه الذى نطبقه على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن »[1] .

ما ذهب إليه « بارت » لاغبار عليه ، إلا ما يبدو أنه خلط بين العقيدة الإسلامية والفكر الإسلامى فهل يصح وضع العقيدة بجوانبها الغيبية على محك البحث والنظر العقلى ؟ والعقل البشرى ناقص ، وإذا أجاب بارت : بنعم. فهل يقبل أن نضع العقيدة النصرانية على نفس المحك ؟أم أن عقيدتهم من الغيبيات فلا تعرض على العقل ومن ثم يؤمن بها وهو مغمض العينين ؟!

على كل حال « القوم يدرسون العلوم الإسلامية العربية ، ويضعون نظريات ويكونون آراء فى أثناء ما يقومون به من دراسات، ويهتمون بتقديم أدلة وأسانيد لهذه الآراء والنظريات، يستمدونها من المراجع الإسلامية نفسها ، وهذا العمل فى ظاهره عمل علمى سليم. ولكن عند الفحص الدقيق أثبت أن كثيراً منه مصنوع، وكثيراً ما يكون الدافع إليه الرغبة فى التجريح ، وتوهين العقيدة الدينية والشريعة الإسلامية »[2].

يقول ليوبولد فايس(محمد أسد) : « ... أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة، وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التى خلفتها الحروب الصليبية، بكل ما لها

١ ـ بارت : الدراسات العربية ...ص١٠ مصدر سابق .
٢ ـ [illegible] : المستشرقون والإسلام ... ٣٢ ... ١٩٧٠

من ذيول، فى عقل الأوربيين »[١] .

ويعترف بعض المستشرقين بهذا الخلل المنهجى ، فيقول المستشرق مونتجمرى واط: « أما أوسع الدراسات فهى دراسة كيتانى فى كتابه (حوليات الإسلام) وليس من الصعب تصحيح مبالغاته فى الشك... »[٢]. ولكن يبدو أن هذا الاعتراف من باب المداهنة ، لأنه وقع فى نفس المحظور الذى عابه على كايتانى ـ على ما سوف نرى ـ.

يقول الدكتور جواد على : (كان كايتانى)« ذا رأى وفكرة ، وضع رأيه وكونه فى السيرة قبل الشروع فى تدوينها فإذا شرع بها استعان بكل خبر من الأخبار ظفر به ، ضعيفها وقويها ، وتمسك بها كلها ولاسيما ما يلائم رأيه ولايبالى بالخبر الضعيف بل قوّاه وسنّده وعده حجة وبنى حكمه عليه ، ومن يدرى فلعله كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء ولكنه عفا عنها وغض نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها لأنه صاحب فكرة يريد إثباتها بأية طريقة كانت ، وكيف يتمكن من إثباتها وإظهارها وتدوينها إذا ترك تلك الروايات،وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل على أساليب البحث الحديث »[٣]. إن الكثير من كتابات كثير من المستشرقين سارت على هذا النهج ، مدفوعة فى أغلب الأحيان بآراء مسبقة وأفكار متصورة سبق أن اعتقدها المستشرق حول : ماذا يجب أن يكون الإسلام ونبى الإسلام ، فضلاً عن الضلال ، والكذب ، وادعاء العلمية والموضوعية .

يقول الدكتور عبدالرحمن بدوى عن المستشرق اليسوعى (هنرى لامانس) : وأبشع ما فعله خصوصاً فى (كتابه فاطمة وبنات محمد) هو أنه كان يشير فى الهوامش إلى مراجع بصفحاتها . وقد راجعت معظم هذه الإشارات فى الكتب التى أحال عليها ، فوجدت أنه إنما يشير إلى مواضع غير موجودة إطلاقاً فى هذه الكتب.

أو يفهم النص فهماً ملتوياً خبيثاً . أو يستخرج إلزامات بتعسف شديد يدل على فساد الذهن وخبث النية ، ولهذا ينبغى ألا يعتمد القارئ على إشارته إلى مراجع ، فإن معظمها تمويه وكذب وتعسف فى فهم النصوص . ولا أعرف باحثاً من بين المستشرقين المحدثين قد بلغ هذه المرتبة من التضليل وفساد النية [٤] .

وهكذا نتبين أن منهج كلاً من كايتانى ولامانس هو اللامنهجية، إذ كيف يستقيم ادعاء التزام المناهج العلمية فى تناول الإسلام مع هـذا العبث؟كيف يستقيم

---

١ ـ محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق ص٦٠ . ٢ ـ واط : محمد فى مكة ص٩ .
٣ ـ د. جواد على : تاريخ العرب فى الإسلام ١١٨ بيروت ١٩٨٣م .
٤ ـ د. عبدالرحمن بدوى : موسوعة المستشرقين ص٣٤٧ ـ ٣٤٩ .

هذا مع الأحكام الجزافية بتلفيق الأسانيد ووضعها لتأييد الآراء المسبقة ؟

أما رأى الدكتور بدوى ، فله اعتباره لأنه صادر عن أستاذ، باحث، منهجى، له باع طويل فى الدراسات الإسلامية والاستشراقية .

وإلى سوء النية والقصد لدى بعض المستشرقين يشير «واط» فيقول «... وإذا حدث أن كانت بعض آراء العلماء الغربيين غير معقوله عند المسلمين ، فذلك لأن العلماء الغربيين لم يكونوا دائماً مخلصين لمبادئهم العلمية ، وأن آراءهم يجب إعادة النظر فيها من وجهة النظر التاريخية الدقيقة [١] .

ومع أن هذه شهادة من «واط» تستحق التقدير،إلا أنه لم يستطع « الفكاك من نقاط الشد الأخرى التى تمسك بتلابيب العقل الغربى : النزوع العلمانى والمسلمات المادية والرؤية الوصفية..» [٢] .

المستشرق الموضوعى هو الذى يبدأ فى عرض موضوع بحثه من وجهة نظر أهله وأتباعه كما يعتقدونه. فمثلاً : القرآن بالنسبة للمسلم هو كلام الله ـ جل وعلا ـ الأزلى، غير المخلوق، أوحاه الله تعالى عن طريق جبريل الأمين إلى نبيه محمد «ﷺ» ومحمد ليس نبياً ورسولاً فحسب وإنما خاتم الأنبياء . هكذا دون ما حذف أو إضافة، ثم يعرض لرأيه إما بالموافقة أو بالمعارضة . المهم: يضع الحقيقة ـ من وجهة نظر المسلمين ـ مقترنة برأيه هو، أمام القارئ فلا يمارس عليه ضغطا بتشويه ثم بوضع رأيه بمقتضى هذا التشويه .

« غير أن هذا المنهج المنطقى والطبيعى فى العرض قلما يتبع ـ مع الأسف الشديد ـ إذ أن الحقائق كثيراً ما تحرّف فيتعرض القارئ نتيجة لذلك ـ إذا لم يكن على علم واسع ـ إلى شيء من الإيحاء برأى معين أو أنه يتعرض فى الأقل إلى اختلاط فى الأمور تجعله عاجزاً عن التمييز بين الأصل المتوارث لدى جماعة المسلمين وبين رأى الكاتب . وهكذا نجد كثيراً من المستشرقين الذين يحمّلون غيرهم أعباء معارفهم الخاصة، يهملون ملاحظة أية مبادئ أولية يفترضها المنهج العلمى فى معالجة المسائل التاريخية، فهم يؤكدون مثلاً: أن القرآن من إنشاء محمد «ﷺ» ، ثم يذهبون مذهباً بعيداً فى تأسيس الأحكام التاريخية والعقيدية والأدبية وغيرها على هذا التأكيد ، وسرعان ما ترتفع هذه التأكيدات بمجرد التكرار إلى مرتبة الحقائق الثابتة[٣]».

---

١ ـ واط : السابق ص ٦ .   ٢ ـ د. عماد الدين خليل : السابق ص٦٨ .

٣ ـ د. طيباوى : المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ص٢٩ .

لا شك أن هناك فرقاً أساسياً بين العلوم المادية وبين العلوم الإنسانية ، فإن «كلاً من الملحد والروحانى يتفقان على تحليل قطعة الصوديوم كلورايد (الملح) ولكن شتان بين رأييهما حول الذات الإنسانية»[1] ومن ثم تتباين مناهج هذه العلوم .

غير أن جل المستشرقين وقع فى هذا الخطأ باعتبار أن مناهجهم[2] تقوم على دراسة الظاهرة الفكرية كظاهرة مادية خالصة ، وكتاريخ خالص مكون من شخصيات وأنظمة اجتماعية وحوادث تاريخية محضة ، يمكن فهمها بتحليلها إلى عوامل مختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية تحدد نشأتها وطبيعتها، وهكذا تفقد الظاهرة طابعها المثالى ، وتنقطع عن أصلها فى الوحى وتصبح ظاهرة مادية خالصة .

وسبب هذا الخطأ أن جل المستشرقين يهود ونصارى وهم ينكرون الوحى إلى نبينا محمد «ﷺ» ، فاليهود ينكرون الوحى إلى عيسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ بينما النصارى ينكرونه إلى محمد ، وهذا فى حد ذاته يعد حاجزاً نفسياً .

أمام إرجاع مايدرسونه من إسلاميات إلى أصولها فى الكتاب والسنة ـ بل إن هذا الحاجز تأدى بهم إلى إرجاع الوحى القرآنى إلى نتاج تاريخى[3] .

من ناحية أخرى فإن المستشرق ابن بيئته التى تربى فيها ورضع لغتها وثقافتها ومناهجها . نقصد أن هذه المناهج جاءت بعد خيبة الأمل التى حصلت ـ لهم ـ من كشف أخطاء الموروث ـ عندهم ـ وكل مصدر سابق للمعرفة باسم الوحى أو الدين نتيجة تسلط الكنيسة باسم الدين وحدوث الخلاف بين العلم والدين فى الغرب ، ثم الحملة على الدين بصفة عامة ـ مع أنهم لم يكونوا قد عرفوا الإسلام ـ مع أن الخلاف كان بين العلماء وبين تفسيرات دين الغرب .

وقد ترتب على ذلك ، فضلاً عن الثقة المطلقة فى المعرفة العقلية ، ظهور أو انتعاش المذاهب المادية وسيادتها بظهور المذهب الوضعى على يد أوجست كونت فى القرن التاسع عشر، فأصبح ـ من وجهة نظرهم ـ كل فكر تاريخياً، وكل وحى أصبح من نتاج البيئة وفعل الأساطير وإسقاطات الشعوب[4] .

إن الصدام التقليدى بين الدين والعلم ـ فى أوربا ـ نتاج من نتاج القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهما العصران اللذان ظهرت فيهما العلوم الحديثة. وبعد ظهور هذه

---

١ ـ Carlel : Man the unknown(1961) P.7

٢ ـ اعتمدنا فى هذا الجزء على كتاب : التراث والتجديد للدكتور حسن حنفى مكتبة الجديد. القاهرة.

٣ ـ د. حسن حنفى : التراث والتجديد ص٨٠ـ٨٢ مكتبة الجديد القاهرة

٤ ـ وحيد الدين خان : الدين فى مواجهة العلم ص٥٠ كتاب المختار الإسلامى القاهرة ١٩٧٨م

الاكتشافات الحديثة بدأ كثير من الأوربيين يظنون أنهم لم يعودوا بحاجة إلى الإيمان بالله. وهكذا أصبح « الإله » فى نظرهم فكرة غير ضرورية ، وكل فكرة غير ضرورية لا تقوم على أساس! . ولعله لا يغيب عنا مقالة نيتشه : لقد مات الإله الآن !! .

تأثر المستشرقون أو معظمهم بهذه الموجة المادية الإلحادية التى سادت أوربا، فطبقوا المنهجية الوضعية على العلوم الإنسانية،ومنها العلوم الإسلامية التى يلعب الوحى الدور الرئيسى فيها،ومن ثم جاءت نتائج أبحاثهم فى الأعم خاطئة، لعدم الدقة فى اختيار المنهج وكيفية تطبيقه فضلاً عن البون الشاسع بين بيئة المنهج المطبق وبيئة موضوع الدراسة بين بيئة المستشرق وبين بيئة الشرق الإسلامى .

وبذلك فقد المستشرق الشعور بالتعاطف مع موضوعه الذى يدرسه، أو على الأقل نقول:فقد الحياد فى التعامل معه، لأن الصلة العقلية والعاطفية بين الباحث وموضوعه تماثل فى الأقل تلك الصلة التى توجد بين القاضى العادل وبين الخصوم[1] .

وترتيباً على هذا يقول الدكتور حسن حنفى « الاستشراق ليس جزءاً من الحضارة الإسلامية ولا يرتبط بها ولا يفيد شيئاً ، بل هو جزء من الحضارة الغربية يكشف عن تكوين الباحث الأوربى ومزاجه ، ويكشف عن حقيقة ما يسمى بالموضوعية أو العلمية ، كما يبين عمل شعور الباحث الأوربى فى دراساته لحضارات أخرى غير حضارته ويعرض تحيزاته »[2] .

وإزاء هذه الالتواءات ، والانثناءات ، فى نشأة المنهج وتطبيقاته ، نتساءل: ما هذه المناهج التى يزعم المستشرقون التعويل عليها فى كتاباتهم؟ وهل كلها صالحة لكل الموضوعات البحثية؟ بمعنى: هل مناهج العلوم الطبيعية صالحة للتطبيق على العلوم الإنسانية؟ وهل ما يصلح للعلوم الإنسانية يمكن إخضاع العلوم والمعارف الغيبية لها؟

بمعنى آخر : هل المنهج المتّبع يتطابق مع موضوع الدراسة ؟ وإذا لم يكن فما مدى التزام المستشرق حين التطبيق ؟

استخدم المستشرقون عدة مناهج فى دراساتهم للإسلام: عقيدة وشريعة،وفكراً وتاريخاً. منها:المنهج التاريخى،والمنهج التحليلى،والمنهج الإسقاطى،ومنهج الأثر والتأثر.

١ ـ المنهج التاريخى :

هو عبارة عن وصف وتسجيل ما مضى من وقائع تاريخية أو اجتماعية ووضعها بجوار بعضها البعض وترتيبها ثم الإخبار عنها والتعريف بها باعتبارها الظاهرة الفكرية

١ ـ د. طيباوى : السابق ص٦١ .
٢ ـ د . حسن حنفى : السابق ص٨٣ .

ذاتها. وليس المنهج التاريخي مقتصراً على دراسة علم التاريخ فحسب ، بل له استخداماته في مجالات العلوم الطبيعية والاجتماعية والسياسيةوالاقتصادية. والمنهج التاريخي ليس منهجاً وصفياً وحسب أو لا يقف عند مجرد الوصف، وإنما يدرس ظاهرة ما كالظاهرة السياسية ويحللها ويفسرها على أسس منهجية علمية دقيقة ، بقصد التواصل إلى حقائق تساعد على فهم الماضي والحاضر.

من المعروف أن البيئة الثقافية الغربية تنسب الأفكار والمذاهب إلى قائليها ، كالديكارتية إلى ديكارت، والكانطية إلى كانط ،والهجلية إلى هيجل، والماركسية إلى ماركس، حتى انعكس ذلك أيضاً على الدين فالمسيحية تنسب إلى المسيح .

ظن المستشرق أن كل حضارة لابد وقد نشأت بالضرورة على نمط الحضارة الغربية ، فيصنفون مفكري الإسلام كالغزالي ، والأشعري ، وابن تيمية باعتبارهم أصحاب مدارس تماماً كما يفعلون في بيئتهم الغربية ، فيشيرون إلى الغزالية والأشعرية و...وكما نسبوا الدين إلى المسيح ، يقولون : المحمدية أو المذهب المحمدي، وعندما يتكلمون عن محمد ـ «ﷺ» يقولون: إنه كان تاجراً كبيراً وناجحاً[١]، وعندما يتناولون دعوته يقولون : إنها جاءت للانقضاض على الأرستقراطية القرشية .

والمستشرق ـ في ضوء المنهج التاريخي ـ عندما ينسب الأفكار إلى الذين صاغوها يهدف من وراء ذلك إلى القول: بأن هذه الأفكار وهذه العلوم نشأت أساساً من هؤلاء الأشخاص. بينما في الإسلام : المفكر المسلم عارض ومحلل ومفسر لتيارات فكرية تتخلله، فهناك علوم عامة تنشأ من الوحي وتحولت إلى حضارة .

المقصود أن واقع المؤلف وفكره يلزمانه اللجوء إلى النصوص الموحى بها خشية أن يستبدل الناس الحضارة بالوحي ، وترك الأصول وأخذ الفروع.

أما في الغرب ـ فكما قلنا ـ فينسب الفكر إلى قائله « وقد يكون هدف المستشرق من نسبة الفكر إلى القائل به هو إثبات جدب الحضارة ، وصمت الوحي ، وأنه لولا الفيلسوف أو العالم لما ظهر الفكر، فالإنسان هو خالق الفكر وليس الوحي هو مصدر الفكر ، فإذا كان هؤلاء المفكرين والعلماء معظمهم غير عرب وإن كانوا مسلمين ، فإن المستشرق بذلك يكون قد حقق هدفه من إثبات نظرته القومية على الحضارة الإسلامية وإرجاع الإبداع إلى الخصائص القوميةللحضارة وحتى لا تكون هي الحضارة العربية »[٢] .

---

١ ـ واط : محمد في مكة .

٢ ـ د. حسن حنفي : السابق ص٩٠ ـ ٩١ .

ولكن المستشرق غفل أن العمل الفكرى فى تراثنا عملاً جماعياً، لم يحدث باجتماع المفكرين معاً فى حلقة بحث واحدة، بل عمل جماعى قامت به الحضارة الناشئة من مركز واحد وهو الوحى، وكأن الوحى المتحول إلى حضارة هو الذى يضفى على المؤلفين من وحدتهم ، ويجعلهم جميعاً وسائل يظهر هو فيها من خلالهم .

هدف الباحث ـ المسلم ـ إذن ليس الإخبار والتعريف بل إرجاع الظواهر الفكرية إلى أصولها الأولى التى خرجت منها ـ الكتاب والسنة ـ لمعرفة كيفية خروجها منها ومحاولة العثور على منهج أو مناهج دائمة ومتكررة يمكن بواسطتها العثور على منهج إسلامى عام .

أما الفهم الغربى للمنهج التاريخى ، فإنه « يقضى على وحدة الظاهرة واستقلالها. ويرجعها إلى عناصر مادية وإلى عوامل تاريخية مع أن هذه العناصر المادية إن هى إلا عوامل للفكر وليست مصدراً لموضوعاته فالطبيعة لا تنتج فكراً»[(١)] .

هذه كلها تفعل فعلها فى حقل الدراسة الاستشراقية وتمسك بتلابيب الباحث ، فلا يستطيع منها فكاكاً، فضلاً عما تفرضه مكونات البيئة فى الزمان والمكان من مؤشرات قد تصلح لهذا القرن ولكنها لا تصلح البتة لقرن مضى أو واقعة تاريخية سبق وأن تخلقت فى بيئة أخرى.. فى مكان آخر وزمان غير الزمان . وهى مؤشرات قد تكون كذلك خاطئة أو مضلله ، لكن المستشرق، ابن القرن العشرين يتشبث بها ويعض عليها بالنواجز معتقداً أنها مفاتيح الحل ومفردات المنهج العلمى السليم[(٢)].

استخدم الأوربيون المنهج التاريخى لدراسة المسيحية ودراسة المؤثرات الخارجية على نصها الدينى ، كالبابلية والأشورية والفنوصية، ويبيح هذا المنهج للباحث الكشف عن العناصر الأساسية التى ساعدت على تكوين المسيحية الأولى ـ عهد بولس ـ ، وعندما يطبق المستشرق هذا المنهج على الظواهر الفكرية الإسلامية ـ والتى هى فى حقيقتها ليست مادية ، أى أنها موضوعات مستقلة وليست موضوعات تاريخية ـ تأتى نتائجه غير صحيحة لأنه يحيل كل شىء إلى ظواهر تاريخية ، وطبقاً لهذا المنهج ينكرون نبوة محمد «ﷺ» ويصنفونه مع حكماء الفرس وذلك عندما يعقدون المقابلات بينه وبين زرادشت ومانى. وهكذا يصبح هذا المنهج أداة لمحو نبوة محمد وتفسيرها ضمن النبوءات الأخرى التاريخية . وهو بذلك يقوم على فكرة مسبقة

١ ـ د. حسن حنفى : السابق ص٩٤ .
٢ ـ د. عماد الدين خليل : المستشرقون والسيرة ، ص٦٦ مصدر سابق .

وعلى تميز حضارى وتعصب دينى[١] .

وإذا كان هذا المنهج التاريخى يمارس بصراحة إمبريالية على التاريخ ، يبرز ما يريد ويقمع ما يريد ، فإن المناهج الأخرى التى تختلف ـ والتى سنعرض لبعضها بعد قليل ـ لم تكن تمس أبداً الإطار الذى قام هذا المنهج من أجل تشييده وتقويته ، إطار المركزية الأوربية بوصفها مرجعاً لكل شىء يقع خارج أوربا[٢] .

والمنهج التاريخى إذا أريد له النجاح فى تناول السيرة فإن ذلك يقتضى ثلاثة شروط :

أولها:.. احترام المصدر الغيبى لرسالة محمد «ﷺ»وحقيقة الوحى الذى تقوم عليه.

ثانيها : اعتماد موقف موضوعى بغير حكم مسبق يعرقل عملية الفهم .

ثالثها : تقنية تتمثل فى الإحاطة جيداً بأدوات البحث التاريخى بدءاً باللغة وجمع المادة الأولية وانتهاءً بطرق المقارنة والموازنة والنقد والتركيب ...»[٣] .

٢ ـ المنهج التحليلى[٤] :

يقوم المنهج التحليلى على تفتيت الظاهرة الفكرية إلى مجموعة من العناصر يتم التأليف بينها فى حزمة لا متجانسة من الوقائع أو العوامل التى أنشأتها . بمعنى أنه إذا كان المنهج التاريخى يقوم باستبدال واقعة مادية بالظاهرية الفكرية ، فإن المنهج التحليلى يقوم بعد ذلك بتفتيت هذه الظاهرة وردها إلى عناصرها الأولية ، كأن تكون ظروفاً اجتماعية أو سياسية أو دينية .

وطبقاً لهذا المنهج وهذه الخطوة يصبح العنصر الدينى مع أنه الدافع الأول لتكوين الظاهرة عنصراً مساعداً لبقية العناصر ، ضامراً ، متقوقعاً .

وهذا المنهج مخالف لطبيعة الظاهرة الفكرية المدروسة التى تكونت أساساً من تحويل النص الموحى به إلى معنى والمعنى إلى بناء نظرى . لأن فكرة العوامل التى تحدد تكوين الظاهرة وتتحكم فيها ، وفكرة العناصر التى تتكون منها مادة الظاهرة لا يمكن أن تساعد على فهم الظاهرة الفكرية التى نشأت طبقاً لمنهج التفسير فى تفسير النصوص ، أى طبقاً لمنطق فى فهم الوحى ، وحسب منطق عقلى آخر حدد طبيعة

١ ـ د. حسن حنفى : دراسات إسلامية ص٢٢٧ ـ ٢٢٨ دار التنوير ١٩٨٢م ، د. سامى سالم الحاج : الظاهرة الاستشراقية ... جـ١ ص٢٠١ .

٢ ـ د. محمد عابد الجابرى : الرؤية الاستشراقية فى الفلسفة الإسلامية (مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية)جـ١ ص٣١٩ .

٣ ـ د. عماد الدين خليل : المستشرقون والسيرة ... ص٨ مصدر سابق .

٤ـ د. حسن حنفى : السابق ص٩٧ ـ ١٠١ .

البناء النظرى للظاهرة الفكرية الناشئة من تحول الوحى إلى حضارة ليست ظاهرة مركبة تركيباً صناعياً من عناصر ووقائع مادية أنشأتها عوامل تاريخية ، فالظاهرة الفكرية هنا امتداد للنص الدينى[١] .

وقد عارض المستشرق السويدى « تور أندريه Tor Andrac » صاحب كتاب (محمد حياته وعقيدته) هذا المنهج العقيم الذى سلكه بعض المستشرقين فى البحث، مبيناً أن جوهر النبوة، لا يمكن تحليله إلى مجموعة من آلاف العناصر الجزئية، ويرى أن مهمة الباحث: أن يدرك فى نظرة موضوعية كيف تتألف من العناصر والمؤثرات المختلفة وحدة جديدة أصيلة تنبض بالحياة[٢] .

ومنهج تفتيت الظواهر إلى جزيئات لا يمكن أن تكون منهجاً عاماً متفقاً عليه ، لأنه نابع من عقلية الباحث الغربى ومزاجه وثقافته وبيئته وطبيعة الدين الذى نشأ فيه. ومن هنا يتضح خطأ المستشرق حين يطبق هذا المنهج ـ الإقليمى أو المحلى ـ على الظاهرة الدينية الإسلامية .

أما المسيحية ، فطبقاً لها يمكن تقسيم الظاهرة إلى عوامل دينية وأخرى غير دينية، وذلك لأن الدين المسيحى لا ينظم إلا الجانب الروحى ، أما الجوانب المادية التى تتضمن ، عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية فلا شأن للدين بها .

ومن أخطاء المستشرقين ـ أيضاً ـ فى تطبيق هذا المنهج على النبوة والوحى، والقرآن والسيرة ... :

١ ـ أنه قد يلجأ إليه عامداً للقضاء على الطابع الكلى الشامل وهو أهم ما يميز الحضارة الإسلامية التى قامت ـ أيضاً ـ على وحى كلى شامل .

٢ ـ قد يلجأ إليه بطريقة لا شعورية، عن رغبة دفينة فى الهدم والقضاء على الظاهرة .

٣ ـ قد يلجأ إليه حتى يمكن رد كل جزء إلى أجزاء شبيهه فى حضارات معاصرة ، ومن ثم يكون التحليل مقدمة لإثبات الأثر الخارجى وتفريغ الظاهرة ـ الوحى والنبوة ـ من مضمونها الأصيل .

وأخيراً فإن نظرة المستشرقين إلى هذا المنهج ـ نتاج الفكر الاستشراقى الغربى على أنه منهج عام وشامل ، يمكن تطبيقه على أى دراسة إنسانية ، كدراساتهم للإسلام ،

---

١ ـ د. حسن حنفى : السابق ص٩٧ .

٢ ـ محمد كامل عياد : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق جـ٤ ص٧٩٧ ، ١٩٦٩م .

هذه النظرة أدت بهم إلى أخطاء جسيمة كإصدار أحكام عامة على الحضارة الإسلامية بالجدب ، وعلى الدين بالجمود ، وعلى الوحي بالاضطراب والاختلاط وعلى التوحيد بالتجريد، وعلى العقائد بالقضاء والقدر وعلى الشعوب بالتخلف[1]

٣ ـ المنهج الإسقاطي :

منهج التصورات والانطباعات الزائفة عن موضوع البحث ، والتي تنشأ من خضوع المستشرق لهواه وعدم استطاعته التخلص من الانطباعات التي تركتها بيئته لديه بيئته الثقافية المعينة ـ مع أن التحرر من الأحكام المسبقة العقلية والانفعالية معا هو الشرط الأول للبحث العلمي ـ .

هذه الانطباعات والتصورات والأحكام المسبقة تؤدى بالباحث ـ المستشرق ـ إلى أخطاء جسيمة : فالظاهرة الموجودة بالفعل بما أنها لا توجد كصورة عقلية في ذهنه فإنه يحكم عليها بالنفي . والظاهرة التي لا وجود لها بالفعل ولكنها توجد كصورة ذهنية عند المستشرق فإنه يحكم عليها بالوجود الفعلي[2] .

ومعنى هذا أن أصحاب هذا المنهج من المستشرقين : يعينون لهم غاية ويقررون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق ، ثم يقومون لها بجمع معلومات من كل رطب ويابس ... وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها، ويقدمونها بعد التمويه بكل جراءة ، ويبنون عليها نظرية لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم[3] .

وطبقاً لهذا المنهج فإن الباحث يصدر أحكاماً قيمة يعلى فيها من شأن الصور الموجودة في ذهنه، ويقلل من شأن الموضوعات المدركة بالفعل .

وبتطبيق هذا المنهج على الدراسات الإسلامية فإن المستشرق يسقط تصوره للمسيحية على الإسلام، فتصبح المسيحية المتصورة هي الإسلام في الواقع، والإسلام الحقيقي منفى ، فلا وجود له ، كأن يسمى الإسلام بالمحمدية كما تنسب المسيحية للمسيح ، والبوذية لبوذا ، وكثيراً ما تحدث المستشرقون على الكنيسة الإسلامية أو السلطة الدينية وعلاقتها بالدولة ، أو اتهام التوحيد الإسلامي بأنه تجريد خالص ، والحكم على التنزيه بأنه تجريد إسقاط من التجسيم والتشبيه الذى تعج بهما اليهودية والنصرانية

---

١ ـ د حسن حنفي : السابق ص١٠٠ ـ ١٠١ .   ٢ ـ د. حسن حنفي · السابق ١٠١

٣ ـ أبو الحسن الندوى · الإسلام والمستشرقون ص٢٠ ط ندوة العلماء لكنهؤ . الهند ، وانظر د. محمد الدسوقي : الفكر الاستشرافي في ميزان النقد العلمي ص ١٠٨ الكتاب الدوري لقسم الاستشراق بكلية الدعوة بالمدينة المنورة . العدد الأول ١٤١٣ هـ .

وواضح أن كل حكم نفى يقوم به المستشرق يقوم على نفى لما لا يوجد فى ذهنه ، وكل حكم إيجاب يقوم على إثبات لما يقوم فى ذهنه(١) .

يشير المستشرق الفرنسى بوكاى إلى تطبيقات هذه المناهج لدى بعض المستشرقين بقوله : « إن الأحكام المغلوطة تماماً التى تصدر فى الغرب عن الإسلام ناتجة عن الجهل حيناً وعن التسفيه العامد حينا آخر ، ولكن أخطر الأباطيل المنتشرة تلك التى تخص الأمور الفعلية ، وإذا كنا نستطيع أن نغفر لأخطاءٍ خاصة بالتقدير فإننا لا نستطيع أن نغفر لتقديم الوقائع بشكل ينافى الحقيقة » .

ويسوق بوكاى مثالاً على ذلك : فى دائرة المعارف أو نيفر ساليس الجزء السادس تحت عنوان « الأناجيل » يقول المؤلف : (إن المبشرين ـ لا يدّعون ـ كما يفعل القرآن ـ نقل سيرة ذاتية أملاها الله بشكل معجز على محمد «ﷺ»). وحقيقة الأمر ألا صلة بين القرآن ومايسميه المولف : بالسيرة الذاتية . القرآن رسالة . ولو كان المؤلف قد استعان حتى بأسوأ ترجمة للقرآن لثبت له ذلك . إن الدعوى تنافى الواقع هى الأخرى .. إن المسئول عن هذه الأكذوبة الخاصة بالقرآن أستاذ بجامعة اليسوعيين اللاهوتية بمدينة ليون . إن نشر أكاذيب من هذا النوع يساهم فى إعطاء صورة زائفة عن القرآن والإسلام »(٢) .

وعلى ذلك يمكن القول بأن الإسقاط خطأ فى الإدراك يجعل المستشرق فى عزلة ذهنية ، ويضعه فى موقف نرجسى خالص .

والإسقاط بهذه الصورة لايؤسس منهجاً ولا يعطى رؤية لأنه إسقاط لهوى أو مصلحة أو صورة ذهنية بيئية هى الذاتية عندما تتوقف عن أداء دورها فى كشف الموضوع(٣) .

٤ ـ منهج الأثر والتأثر : المفهوم المستقيم لهذا المنهج هو : أن تبادل الآراء قديماً وحديثاً، والتفاعل والتأثير والتأثر بين الناس، وبين العلماء سنة اجتماعية لا يمكن انكارها .

ولكننا فى ضوء هذا المفهوم ننبه إلى أمرين :

١ ـ الاستفادة ـ نتيجة التأثر والأثر ـ شيء وإنشاء مذهب مستقل شيء آخر.

٢ ـ أن التأثر ينطبق على الفكر البشرى فهذه طبيعته ، يؤثر ويتأثر وذلك لمحدودية

---

١ ـ د. حسن حنفى : السابق ص١٠٤ .
١ ـ موريس بوكاى : دراسة الكتب المقدسة ...ص١٣٥ مصدر سابق .
٣ ـ د. حسن حنفى : السابق .

المعرفة البشرية المحصورة فى الحس والعقل .

أما طور ما وراءهما، نقصد الوحى، والمعرفة الآتية من قبله، فلا تتأثر بشىء، باعتبار مصدرها الإلهى، فهى معرفة فوق الزمان والمكان مؤثرة غير متأثرة .

أما منهج الأثر والتأثر عند نفر من المستشرقين فإنه يقوم على نزعة التعالى والترفع والعلمنة ، لاعتقادهم أن الحضارة اليونانية ـ وحضارتهم الأوربية إمتداد لها ـ هى أصل الحضارات، ومن ثم فهى المؤثرة دائماً، وكل شىء يرد إليها .

فلما رأى المستشرق أن حضارته الغربية ما هى إلا مردود للحضارة اليونانية، متأثرة بها كل التأثر ظن أن كل الحضارات كذلك لابد آخذة من اليونان، مردودة إلى حضارتهم . فى حين لو أنه قارن مقارنة موضوعية منصفة بين الفكر الإسلامى، والحضارة اليونانية لوجد أن ما بينهما كانت علاقة رفض أكثر منها علاقة قبول[١] .
وخطأ المستشرق ـ أيضاً ـ ناتج عن تصور العلاقة بين الثقافات على أنها أحادية الطرف، الأولى معطية منتجة مبدعة وهى الثقافة الأوربية، والثانية مستقبلة ـ دائماً ـ مجدبة فارغة، خاوية وهى الثقافة غير الأوربية[٢] .

ولو أنصف المستشرق لعلم أن هيرودت وأفلاطون قد زارا مصر ، وتأثرا بالحضارة الفرعونية ، كما أن انطباعات فيثاغورث عن الشرق غير خافية فى فلسفته .

بعض المستشرقين يتجاهلون الثوابت التاريخية ، وينكرون الجميل ـ إذا صح التعبير ـ ويقابلون الحسنة بالسيئة ، من الثابت أن أوربا تأثرت بالحضارة الإسلامية تأثراً عظيماً ، يقول «جوستاف لوبون» : « كان الشرق يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب[٣]، وأما الغرب فكان غارقاً فى بحر من الهمجية، ولم يكن عند أولئك البرابرة ـ يقصد الحملات الصليبية على ديار الإسلام ـ ما يفيد الشرق ولم ينتفع الشرق منهم بشىء فى الحقيقة ، ولم يكن للحروب الصليبية عند أهل الشرق من النتائج سوى بذرها فى قلوبهم الازدراء للغربيين على مر الأجيال »[٤] .

التبادل إذن ليس أحادى ، بل العكس كانت الحضارة الإسلامية هى الأصل وهى النبع .

وتطبيقات هذه الفئة من المستشرقين لهذا المنهج على الإسلام وعلومه تكمل عملية الهدم التى مارسها المنهج التاريخى، والمنهج التحليلى وكذلك المنهج الإسقاطى.

---

١ ـ د حسن حنفى : السابق ص١٠٧ ـ ١٠٨ ٢- د حسن حنفى : السابق ص١٠٧ ـ ١٠٨ .
٣ ـ بل قل بفضل المسلمين . ٤ ـ جوستاف لوبون : حضارة العرب ص٣٣٤ .

فبعد أن يقوم المنهج التاريخى بمهمة الفصم بين مصدر الظاهرة الفكرية وهو النص الدينى وبين هذه الظاهرة نفسها ، مرجعاً إياها إلى مصدر تاريخى محض، وبعد أن يقوم المنهج التحليلى بمهمة تفتيت الظاهرة الفكرية إلى آلاف العناصر والجزئيات، وبعد أن يقوم المنهج الإسقاطى بمهمة سد اعتبار الوجود الذهنى للظاهرة دون الوجود الفعلى، يقوم منهج الأثر والتأثر بالقضاء التام على ما تبقى من الظاهرة مفرغاً إياها من مضمونها ، ومرجعاً إياها إلى مصادر خارجية، دون وضع أى منطلق سابق لمفهوم الأثر والتأثر، بل بإصدار هذا الحكم دائماً بمجرد وجود اتصال بين بيئتين ثقافيتين وظهور تشابه بينهما .

وغفل المستشرق أن هذا التشابه قد يكون كاذباً وقد يكون حقيقياً ، وقد يكون لفظياً، وقد يكون معنويا[١] .

وطبقاً لمنهج الأثر والتأثر فإن المسيحية «مسيحية بولس»[٢] تنهار من أساسها ، لأن أصولها التى قامت عليها هى هى الأصول التى كانت فى الديانات الوثنية، لذلك شكك كثير من الباحثين الأوربيين فى حياة المسيح ـ عليه السلام ـ لأنهم وجدوها صورة من الآلهة الوثنية القديمة مثل : مثرا، وأودنيس، وإيزيس، وبوذا ... وكلها آلهة متشابهة . ومسيحية بولس خلعت صفاتها على المسيح (!) .

يقول الأب بولس إلياس اليسوع : «لقد لقحت الكنيسة الفكر الوثنى المسيحى ، فحمل مرسلوها إلى اليونان حكمة التوراة وآداب الإنجيل ، وأخذوا منهم وضوح التعبير ودقة التفكير ، فنتج عن ذلك التلاقح تراث جديد نقلوه إلى روما ، ولقد احترمت الكنيسة تعاليم الشعوب وحافظت على تنوع الطقوس فى مختلف الطوائف، فما فرضت صيغة موحدة لصلاة...» ثم يستطرد قائلاً:« إنه فى مفتتح القرن السابع الميلادى،كتب البابا (غريغوريوس) ... إلى القديس (أوغطينوس) أسقف (كنتربرى) ببريطانيا ، يقول: دع البريطانيين وعاداتهم وابق لهم أعيادهم الوثنية واكتف بتنصير تلك الأعياد والعوائد واضعاً إله المسيحيين موضع آلهة الوثنيين.. »[٣]. فكان تطعيم وكان مزج بين المسيحية والوثنية، نزولاً على حكم الأخيرة فى عباداتها وصلاتها

---

١ ـ د. حسن حنفى : السابق ص١٠٤ ـ ١٠٥ .

٢ ـ دخل بولس المسيحية بعقلية مصبوغة بالصبغة الهيلنية، محشوة بمعلومات وعقائد وثنية فأفرغها فى مسيحية جديدة .

٣ ـ الأب بولس إلياس كتاب يسوع المسيح ص١٩٩ .

د. محمد أبو الغيط الفرت : تحقيق تاريخ الإناجيل ...ص٦١ ـ ٦٢ مجلة كلية أصول الدين ع.لأول ١٣٩٧هـ ـ ١٣٩٨هـ . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

وطقوسها بكل وضوح وصراحة[١] .

وقد عقد الدكتور أحمد شلبى موازنة طويلة بين المسيحية والعقائد الوثنية التى كانت فى سوريا وما حولها ، نجتزئ منها هذه الإشارات :

١ ـ من التشابه بين مثرا[٢] ويسوع :

ـ كل منهما كان وسيطاً بين الله والبشر .

ـ ولد مثراً فى كهف، وولد عيسى فى مزود البقر .

ـ ولد كل منهما فى الخامس والعشرين من ديسمبر .

ـ كل منهما كان له اثنى عشر حوارياً .

ـ كل منهما مات ليخلص البشر من خطاياهم .

ـ كل منهما دفن وعاد للحياة بعد دفنه .

ـ كل منهما صعد إلى السماء ليخلص تلاميذه .

ـ كل منهما كان يدعى منقذاً ومخلصاً .

ـ كل منهما كان له اتباع يعمرون باسمه ويقام عشاء مقدس فى ذكراه[٣] .

ويقول الأستاذ العقاد فى كتابه «حياة المسيح فى الكشوف والتاريخ» أن عبادة مثرا هذه انتقلت إلى الدولة الرومانية ، وامتزجت بعبادة ايزوريس المصرية ومنها جاءت عبادة ديمتر، وهى فى جملتها هى الديانة المصرية التى حوربت، وقد صوروها فى صورة أم تحتضن طفلها الرضيع دلالة على (الحنان والبراءة) ، والصورة هى صورة إيزيس وحوريس ، ثم هى هى أيضاً صورة مريم العذراء التى تحتضن المسيح[٤] .

٢ ـ وهناك موازنة أطول بين حياة عيسى وحياة بوذا[٥] .

ومع ذلك ـ وهو قليل من كثير ـ فهمُّ المستشرقين ـ دون خجل أو حياء ـ الطعن فى الإسلام باسم العلم والبحث العلمى، مع أنهم لايعالجون الإسلام كموضوع من موضوعات البحث العلمى بل باعتباره متهماً يقف أمام قضاته ، وحقيقة أمرهم أنهم « ليسوا من العلم ولا من الأمانة كما يتصورهم الناس، وأنهم ممن لا يوثق بهم فى

١ ـ د. محمد أبو الغيط : المصدر السابق ٦٢ .

٢ ـ مثرا ديانة فارسية ازدهرت فى فارس فى القرن السادس قبل الميلاد .

٣ ـ د أحمد شلبى ك المسيحية ص١٧٢ .

٤ ـ عن د عبد الجليل شلبى : رد مفتريات على الإسلام ص٩٧ دار القلم . الكويت ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م .

٥ ـ أنظر : المبحث الرابع من الفصل الخامس فى هذا الكتاب .

البحث العلمى »[١]، فبعض مناهجهم تنضح بالتعصب الذميم ، وتتخطى أصول المنهج العلمى .

فضلاً عن نزعة التعالى والغرور . فالمستشرق يتعامل مع موضوعه ـ وهو هنا الإسلام والمسلمين ـ تعامل المغرور الذى يستأنس فى نفسه المقدرة الفائقة ـ وموضوعه العجز ـ يشعر أن أصوله قوية ومتينة ، وأصول الغير أو الآخر منهارة أو هباء ونأخذ مثلاً على ذلك « ماسينيون » وقد غمره الشعور بالرحمة المسيحية الحانية على الشرق وأهله ، فيقول : « فيما يخص الشرقيين ، علينا أن نلجأ إلى علم الرحمة الحانية هذا ، إلى هذه المشاركة حتى فى بناء لغتهم وبنيتهم العقلية ، التى ينبغى بحق أن نشارك فيها ، لأن هذا العلم فى نهاية المطاف يشهد إما لحقائق هى لنا أيضاً، أو لحقائق فقدناها وعلينا أن نستعيدها .

وأخيراً لأن كل ما هو موجود هو، بمعنى عميق خير بطريقة ما. هؤلاء البشر المساكين المستعمرون لا يوجدون لأغراضنا وحسب بل يوجدون بذاتهم ولذاتهم[٢].

وحول نزعة التعالى والبعد عن الموضوعية يقول الدكتور « فرانتز روزنتال »: ومن المزالق التى يندر أن يتحاشاها الباحثون الغربيون عند تقديرهم البحث العلمى عند المسلمين أنهم يضعون مقاييس صارمة يحكمون بموجبها على ما أنتجه الفكر الإسلامى ، مقاييس أشد صرامة من تلك التى نطبقها على ذواتنا نحن الغربيين. فإن العدل والإنصاف يقتضياننا أن نميز بين مختلف أنواع النشاط الأدبى ومراتبه التى من شأنها أن تترك أثراً بعيد الغور فى طبيعة النتاج العلمى الرفيع، على أننا قلّ أن نرى عالماً غربياً يراعى هذا التمييز عندما يحكم على البحث العلمى عند المسلمين »[٣].

وأخيراً، وبعد الإشارات السابقة عن بعض مناهج الكثير من المستشرقين فى تناولهم الإسلام وعلومه ، فإننا لا نستطيع أن نخرج إلا بدرس واحد هو : الريبة وعدم الثقة بكثير من الكتابات التى تعرض تحت : الأكاديمية والمنهجية وهى تخفى آراء عقائدية وأحقاداً مختلفة ، فضلاً عن الأحكام المسبقة وما لها من تأثير ـ شعورى أو لا شعورى ـ يؤدى إلى اختلال المنهج .

وأين هذه الادعاءات المنهجية من قول الله جل وعلا فى قرآننا الكريم : ﴿ وَلا

---

١ ـ د. حسن الهراوى : ضرر المستشرقين أكثر من نفعهم مقال بمجلة الهلال . ع٣، ١٩٣٣م .

٢ ـ د. إدوارد سعيد : السابق ص٢٧٣ .

٣ ـ د. فرانتز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى ترجمة د. أنيس فريحة ص١٩ . دار الثقافة . بيروت ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

يجْرِمنَكُمْ شنآنُ قوْمٍ علىٰ ألاَّ تعْدلُوا اعْدلُوا هُو أقْربُ للتّقْوىٰ ﴾ [المائدة : ٨] .

وأين تلك المناهج المدعاة من قول الحسن بن الهيثم فى المنهج : « الحق مطلوب لذاته ، وكل مطلوب لذاته فليس يعنى طالبه غير وجوده »[١] . فإن كنت ناقلاً فالصحة ، أو مدعياً فالدليل .

لقد استجابت المناهج الاستشراقية للثقافة التى انتجتها أكثر مما استجابت لموضوعها المزعوم[٢] .

***

١ ـ مقالة الشكوك على بطليموس تحقيق د عبدالحميد صبرة ص٣ القاهرة ١٩٧١ م

٢ ـ إدوارد سعيد : الاستشراق ص٥٥

الفصل الثاني

الـــوحـــي

- الـوحي في اللـغة والاصـطـلاح.
- مـراتب الـوحي .
- أشكال الـوحي.
- الـــوحي إلى الرســـول « ﷺ » .
- بدايات الوحي .
- مظاهر الوحي وكيف كان يجيء.

○ الوحي في اللغه والاصطلاح :ـ

جرب الإنسان ارتياد عالمه بحواسه وعقله ، وثبت عجزه عن تجاوز هذا العالم المشاهد ، فضلاً عن عدم إحاطته بهذا العالم . ومن ثم أصبح الإنسان بحاجة إلى وسيلة معرفية أخرى ـ غير الحس والعقل ـ وسيلة مأمونة مضمونة تبدد هذه الحيرة وهذا الاضطراب، لابد من وسيلة موصولة بخالق الكون ومدبره، لابد من وحى من الله تعالى يكشف للإنسان عن بعض ما غيب عن الحس والعقل .

الوحى الإلهى إلى الإنسان مقصود به هدايته وتكميل إدراكاته ، ووصل إدراكه الجزئى بالمدركات الكلية وراء الكون المشاهد .

نريد أن نقول أن الوحى والعقل ضروريان ومتكاملان وأن هذا التكامل لا يكون ولا يتحقق إلا بإدراك أن للعقل ميدانه لا يتجاوزه . فالعقل آلة إدراكية محدودة كمحدودية الحواس .

يقول الإمام الشاطبى : « إن الله جعل للعقل فى إدراكه حداً تنتهى إليه، لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك فى كل مطلوب ولو كانت كذلك لاستوت مع البارى ـ تعالى ـ فى إدراك جميع ما كان وما لا يكون »[1] .

الوحى لا يضاد طبيعة العقل كعقل ، فلا تنافر بينهما بشرط أن يكون المعقول صريحاً والمنقول صحيحاً كما يقول الإمام ابن تيمية :[2]

لا يستقل عقل دون هداية	بالوحى تأصيلاً ولا تفصيلا
كالطرف دون النور ليس بمدرك	حتى تراه بكرة وأصيلا
نور النبوة مثل نور الشمس	للعين البصيرة فاتخذه دليلا[3]

○ حقيقة الوحي :ـ

الوحى هو « الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفى ، وكل ما ألقيته إلى غيرك ، يقال : وحيت إليه الكلام ، ووحى وحياً ، وأوحى أيضاً أى كتب »[4]

١ ـ الشاطبى: الاعتصام جـ٢ ص٣١٨ . دار عمر بن الخطاب بالإسكندرية / مصر .
٢ ـ ابن تيمية : نقض المنطق ص٥٣ .
٣ ـ ابن القيم : مختصر الصواعق المرسلة ص١٤٦ ـ ١٤٧ مكتبة المتنبى . القاهرة .
ومباحث فى المعرفة فى الفكر الإسلامى للمؤلف .
٤ ـ ابن منظور : لسان العرب جـ٣ دار المعارف بمصر ١٩٨٢م .

وقيل أيضاً: « أصل الوحي في اللغة: إعلام في خفاء ، ولذلك صار الإلهام وحياً[١] ويقال: « في فعله وحى وأوحى »[٢]

ويحتمل أن يكون الوحي اسماً ومصدراً،فهو اسم «ومعناه الكتاب، ومصدراً وله معان منها، الإرسال والإلهام والكتابة والكلام والإشارة والإفهام»[٣]وقد « يطلق ويراد به اسـم المفعول منه أى الموحى وهو كـلام الله المنزل علـى النبيﷺ »[٤] .

الوحى ـ إذن ـ إعلام الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ، ولكن بطريقة خفية، غير معتادة للبشر، أى خارجة عن طوق البشر .

ولما كانت صفة الوحي إلي نبينا محمدﷺ، توافق صفة الوحى إلى من تقدمه من النبيين ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [الشورى: ٣] فإن عمدة الأدلة فى الوحى : الشرع، قرآناً وسنة .

قد يبدأ الوحى بالرؤيا المنامية يراها العبد المصطفى ويوقن أنها وحى الله تعالى ورؤيا الأنبياء ليست من أضغاث الأحلام التى تترجم بها النفس عن رغباتها المكبوتة ، فأفئدتهم معدة إعداداً إلهياً .

كانت الرؤيا الصالحة أول مطالع الوحى إلى نبينا محمد ﷺ. أخرج أبو نعيم عن علقمة بن قيس قال:« إن أول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهدأ قلوبهم ، ثم ينزل الوحى بعد فى اليقظة »[٥]. وعن عائشـة أنها قالت:« أول مابدئ به رسول الله ﷺمن الوحى الرؤيا الصـالحة ـأو الصـادقة ـ فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جـاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء،وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك، فقال:اقرأ »[٦] .

من هذا الحديث يمكن استنباط ثلاث نتائج هي :

أولها: أن قول أم المؤمنين عائشة (من الوحى) يحتمل أن يكون (من) تبعيضية، أى من أقسام الوحى للأنبياء ، والرؤيا وإن كانت جزءاً من النبوة باعتبار صدقها لاغير

١ ـ المصدر السابق .

٢ ـ ابن القيم : مدارج السالكين جـ١ ص٢٩ دار الكتاب العربى

٣ ـ الرازى التفسير الكبير جـ٢٨ ص٢٤٢ ط ثانية طهران

٤ ـ العسقلانى . فتح البارى جـ١ ص٢٧ عام ١٣٧٩هـ

٥ـ العسقلانى . المصدر السابق جـ١ ص٩ ، ٢٣ ، صحيح مسلم بشرح النووى جـ٢ ص١٩٧ . دار الفكر بيروت .

١ ـ صحيح مسلم بشرح النووى .

وإلا لساغ لصاحبها أن يسمى نبياً »[1] .

ثانيها : أن خلوة النبي « ﷺ » مترتبة على الرؤيا الصالحة التي هي قسم من أقسام الوحي ، فإن قيل : « أمر الغار قبل الرسالة ، فلا حكم . أجيب بأنه أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة ثم حبب إليه الخلاء... فدل ذلك على أن الخلوة حكم مترتب على الوحي لأن كلمة ثم للترتيب ، فكان ذلك أمعن في الذهاب إلى أن التحنث لم يكن تبعية لعادة ولا رياضة نفسية خاصة ، بل كان وحياً بوحي من عند الله ، والله أعلم حيث يجعل رسالته »[2] .

ثالثها : أنه «ﷺ» خاف على نفسه لما رأى الملك أول مرة... »[3] فلم يكن «ﷺ» ينتظر النبوة ولا متهيء لها، وإلا لما خاف على نفسه، ولو كان كذلك «لظهر عقب ذلك ما كانت تنطوى عليه نفسه الوثابة »[4] .

ولكن لا يعني ذلك أن كل من رأى رؤيا صادقة تحنث .

والمعنى أن النبي «ﷺ» كان يرى الرؤيا فتقع كما رأى، وتلك إرهاصات الوحي، وكانت مدته قبل وحي اليقظة الصريح ستة أشهر[5]. ولقد كان ذلك هو الحال مع إبراهيم عليه السلام حين نزل الأمر بذبح إسماعيل ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ [**الصافات**: ١٠٢] فضلاً عن دلالته على أن رؤيا الأنبياء أمر إلهي يترتب عليه آثار سلوكية ، فإنها «كلها وحي مقطوع على صحته »[6] .

○ مراتب الوحي ووسائله :ـ

حددت الآية (٥١) من سورة الشورى ضروب تكليم الله تعالى لأنبيائه ـ وإن كان هذا الأمر لا يعرف كنهه ـ : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) ﴾ .

تضمنت الآية ثلاث مراتب للوحي :

المرتبة الأولى : وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ أن يكلمه الله إلا وحياً ﴾ وهو نفث

---

١ ـ العسقلاني : السابق .

٢ ـ القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري جـ٦ ص٣٤ المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣٠٤هـ .

٣ ـ رشيد رضا : الوحي المحمدي ص٩٣ـ٩٤ الطبعة السادسة ١٣٨٠هـ .

٤ ـ المرجع السابق .

٥ ـ البيهقي : دلائل النبوة جـ١ ص٣٩٣ ط أولى . دار النصر للطباعة . القاهرة .

٦ـ ابن حزم الفصل جـ٥ ص١٤ . مكتبة السلام العالمية . القاهرة (ب ـ ت)

ينفث في قلبه فيكون إلهاما[١] فقد جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله «ﷺ» أنه قال: « إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها ... »[٢] وهي حالة فيض إلهي يتعرض لها النبي حتى إذا ما فارقته كان قد وعى تماماً ما ألهم به .

المرتبة الثانية: وهو الذي « وصل إليه الوحي لا بواسطة شخص آخر ولكنه سمع عين كلام الله »[٣]والسامع لا يبصر من يكلمه، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ كما حدث لموسى عليه السلام ﴿ وكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾[النساء : ١٦٤] .

والله تعالى فضل بعض الرسل على جميعهم بالتكليم في اليقظة من وراء حجاب دون وساطة ملك ، لكن بكلام مسموع بالآذان معلوم بالقلب زائد على الوحي المسموع من الملك عن الله تعالى[٤] وهذا النوع كما هو ثابت لموسى ثابت لنبينا محمد «ﷺ» ليلة الإسراء والمعراج. قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

وسماع النبي من الله ـ فيما يقول الغزالي ـ يكون بخلق الله علما ضرورياً يدرك به الرسول ثلاثة أمور .

أولها : أن المتكلم هو الله تعالى . **وثانيها** : أن ماسمعه هو كلام الله .
وثالثها : مراد الله من كلامه[٥] .

أما المرتبة الثالثة : فإنها تكون عن طريق الملك الذي يأتي النبي فينقل إليه كلام الله ، أي « وصل إليه الوحي بواسطة شخص آخر ، وهو المراد بقوله تعالى: (أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء) »[٦] والمعنى بالرسول ملك الوحي المعبر عنه بالروح الأمين وهو جبريل[٧] عليه السلام .

والله سبحانه ميز بين هذه المراتب الثلاثة ، ففرق بين « الوحي وبين إرسال الرسول

١ـ القرطبي . الجامع لأحكام القرآن ص ٥٨٧٣ كتاب الشعب مصر
٢ ـ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص١٢١ الحلبي مصر
٣ ـ الرازي التفسير الكبير ج٢٧ ص١٨٦ ٤ ـ ابن حزم الفصل جـ٢ ص٨
٥ ـ عبداللطيف السبكي : الوحي إلى الرسول محمد ص٨٣ ـ ٨٤ ، مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . القاهرة ٦ ـ الرازي : السابق
٧ ـ يتساءل المستشرق (دى بور) ساخراً : ما السبيل إلى معرفة الروح الذي هو أسمى من روحنا والذي نحن في حاجة إلى هدايته ؟ ثم يقول : هذا سؤال إذا نظرنا إليه بمنظار العقل المجرد فقد يتحطم على صخرته كل مذهب ديني يقول بوساطة إنسان ما (انظر : تاريخ الفلسفة في الإسلام ترجمة د. أبوريدة

الذى يوحى بإذنه ما يشاء ، كما فرق بين ذلك وبين المتكلم فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾إلى قوله تعالى ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٣ ١٦٤] ففرق بين الإيحاء العام المشترك بين الأنبياء وبين تكليمه موسى ،كما فرق بين الإيحاء وبين إرسال رسول يوحى بإذنه ما يشاء [١].

هذه مراتب الوحى الخاص الذى لا يكون لغير الأنبياء ، وذكر الإمام ابن القيم فى مدارج السالكين مراتب أخرى دون الوحى الخاص هى مرتبة التحديث أو الإلهام[٢].

نخلص مما سبق إلى أن النبوة « ليست صفة راجعة إلى النبى ولا درجة يبلغ إليها أحد بعلمه وكسبه ولا استعداداً نفسياً يستحق به إتصالاً بالروحانيات ، بل رحمة من الله يمن بها على من يشاء .. »[٣] .

كيف كان يأتى الوحى ؟ :

لا شك فى تلقى الملك من الله تعالى ثم تلقى النبى منه ، أما « صفة تلقى الملك من الله فلا نعلمها لأنها من الغيب ولا صفة تلقى النبى من جبريل لأنه من شأن النبوة »[٤].

أما عن كيفية مجيء الوحى ، فيقول الرسول «ﷺ» : «أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول »[٥] .

ذهب العلماء فى طرق التنزيل مذهبين :

الأول : يقول بانخلاع «النبى من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه من جبريل »[٦] لأن النبى إذا «شارك الناس فى البشرية والإنسانية من حيث الصورة باينهم من حيث المعنى، إذ بشريته فوق بشرية الناس لاستعداد بشريته لقبول الوحى : ﴿ قل

– ص٢٢٨ سنة ١٣٥٧هـ) . ونسأل دى بور : ما رأيك فى اليهودية . ألا تؤمن بها ؟ فإن أجاب بنعم . فلا محل لسؤاله وتهكمه لأن الذى جاء بالتوراة متوسط جسمانى هو موسى عليه السلام وإن أجاب : بلا . فهو كافر باليهودية وعهدها القديم كافر بالنصرانية ، ومن لم يقول ولا حرج ، فإن لم يستح فليصنع ما يشاء .

١ ـ ابن تيمية : الصفدية ص٢٠٤ ، تحقيق د. محمد.رشاد وسالم مطابع حنيفة بالرياض ١٣٩٦هـ

٢ ـ ابن القيم : مدارج السالكين جـ١ ص٤٥ ـ ٥١ عام ١٣٩٢ هـ

٣ـ الشهرستانى : الملل والنحل ص ٨٤ بهامش الفصل ١٩٦٨م

٤ ـ رشيد رضا : تفسير المنار جـ١

-- ابن حجر . فتح البارى ... جـ١ ص٤٥ ، والدهلوى حجة الله البالغة جـ٢ ص ٢٠٦ دار التراث بالقاهرة .

٦ ـ السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن جـ١ ص٤٤ ط٣ الحلبى القاهرة .

إنما أنا بشر مثلكم﴾ أشار إلى طرف المشابهة من حيث الصورة ﴿ يوحي إلي ﴾ أشار إلى طرف المباينة من حيث المعنى »[١]. وهذا معنى مجيء الملك إلى النبى وظهور أثر التغير على الرسول ، فيغيب كما لو كان مغشياً عليه وهو ليس كذلك وإنما هى حالة انسلاخه من حالته البشرية العادية . وعلم النبى فى تلك الحالة « علم شهادة وعيان ـ لا وهم وخيال ـ لا يلحقه الخطأ والزلل ولا يقع فيه الخطأ والزلل ، ولايقع فيه الخطأ والوهم ، بل المطابقة فيه ذاتية لزوال حجاب الغيب وحصول الشهادة الواضحة عند مفارقة هذه الحالة البشرية »[٢] .

ولأصحاب هذا المذهب دليلان :

الأول : نزول جبريل ـ عليه السلام ـ فى زمن صبا النبى ليطهر قلبه من المادة التى تمنعه من الترقى ، فقد روى أنس « أن رسول الله « ﷺ » ، أتاه جبريل ذات يوم وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه فاستخرج منه علقه ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ... »[٣] .

الثانى : أن صعود الآدمى ببدنه إلى السماء قد ثبت فى أمر المسيح فإنه صعد إلى السماء ... وكذلك إدريس صعد إلى السماء . وكذلك عند أهل الكتاب أن إلياس صعد إلى السماء ببدنه »[٤] .

المذهب الثانى : القائل بانسلاخ الملك من صورته الملائكية إلى الصورة البشرية ، فالملائكة قادرة على التشكيل بأشكال مختلفة[٥] ، فالملك الروحانى قد يتمثل للنبى بمثال صورة البشر[٦] تمثل المعنى الواحد بالعبارات المختلفة أو تمثل الصورة الواحدة فى المرايا المتعددة أو الظلال المنكسرة للشخص الواحد فيكالمه مكالمة حسية ويشاهده مشاهدة عينية »[٧] وإذا تصور صعود البشر فلم لايتصور نزول الملك؟ وإذا تصور أنه خلع لباس البشرية فلما لا يجوز أن يلبس الملك لباس البشرية ؟

---

١ ـ الغزالى : معارج القدس ص١٤٧ . والملل والنحل للشهرستاني جـ٢ ص١٠٥ .
٢ ـ ابن خلدون : المقدمة ص٣٩٥ . كتاب الشعب . بمصر .
٣ ـ أخرجه مسلم جـ١ ص٢١٦ بشرح النووى ، دار الفكر ببيروت وأخرجه أحمد فى مسنده جـ٢ ص١٢١ ، ١٤٩ وزاد فى آخره : وقال أنس : وكنت أرى أثر ذلك المخيط فى صدره « ﷺ » .
٤ ـ ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ٤ ص١٧٠ ـ ١٧١ مطابع المجد التجارية. مصر.
٥ ـ أنظر عصمة الأنبياء فى اليهودية والمسيحية والإسلام للمؤلف . دار الإيمان بالإسكندرية
٦ ـ ينكر مونتجمرى واط انسلاخ الملك من الحالة الملائكية إلى الحالة البشرية وسوف نفند شبهته فى الفصل الخامس من هذا الكتاب . إن شاء الله .
٧ ـ الشهرستانى : السابق جـ٢ ص١٠٥ ، السيوطى : السابق ص٤٤ .

هكذا كانت حال جبريل إذا جاء النبى « ﷺ » ، فقد كان يأتيه فى صورة دحية الكلبى ، وكذلك لما أتى الملائكة « إبراهيم ولوطا ورأتهم سارة وقوم لوط، لم يأتوا إلا فى صور رجل .. »[1] .

وبعد فالآيات القرآنية والأحاديث المتواترة تقرر هذين الطريقين للتلقى عن الملك .

نخلص مما سبق إلى أن للوحى طرقاً مختلفة ووسائل متنوعة منها : الرؤيا المنامية والتعليم المباشر من الملائكة فى صورتها البشريه ، والتعليم بصوت من الملائكه فى طبيعتها النورانية ، وتعليم الملائكة فى خفاء، والكلام من وراء حجاب .

الوحى كله هبة واصطفاء من الله جل وعلا .

* * *

١ ـ ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص٥٣٩ ط٣ (١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م).

الفصل الثالث

دلالة المعجزات علي النبوات

دلالة المعجزات على النبوات

يجيء هذا الفصل توطئة لإثبات نبوة محمد «ﷺ» ، بأدلة غير قرآنية ، وذلك من خلال الإجابة على هذه التساؤلات :

هل حقاً المعجزات دلالة على النبوات ؟ بمعنى هل من يجرى الله تعالى على يديه أفعالاً أو أقوالاً خارقة أو من قبيل المعجزات يكون نبياً ؟ وكيف نستدل على صدقه ؟

وحتى لاتثار الشبهات : ما الفرق بين المعجزة والسحر ؟ وما هى المعجزة وما أوصافها وما شروطها ؟

○ **المعجزة فى اللغة والاصطلاح :**

المعجزة فى اللغة مأخوذة من العجز الذى هو نقيض القدرة[١] .

أما فى الاصطلاح : « الفعل الذى يدل على صدق المدعى للنبوة »[٢] وسمى معجزة لعجز المرسل إليهم عن المعارضة بمثلها .

المعجزة إذن أمر يظهر على يد مدعى النبوة يجريه الله جل وعلا على وجه يعجز الناس عن الإتيان بمثله ، كما يقول الإمام ابن تيمية : إن « لفظ المعجز يدل على أنه أعجز غيره ، كما قال تعالى :﴿ وما هم بمعجزين ﴾ [الزمر : ٥١] وقال تعالى ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير (٢٢) ﴾ [العنكبوت : ٢٢] »[٣] .

○ **أوصاف وشروط المعجزة :**

وضع العلماء شروطا عدة للأمر المعجز منها :

الأول أن « تكون المعجزة فعلاً من أفعال الله تعالى... نازل منزلة قوله تعالى لمدعى النبوة: صدقت »[٤]أو كأنه من جهته «لأن المعجز ينقسم إلى ما لايدخل جنسه تحت مقدور القدر كإحياء الموتى... وقلب العصا وما شاكل ذلك و إلى ما يدخل جنسه تحت مقدور القدر مثل قلب المدن رأساً على عقب ونقل الجبال . »[٥]

---

١ ـ البغدادى أصول الدين ص١٧٠

٢ ـ عبدالجبار المعتزلى شرح الأصول الخمسة ص٥٦٨ والرازى التفسير الكبير جـ٢١ ص٦٥

٣ ـ ابن تيمية الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ٤ ص٦٩

٤ ـ الجوينى الإرشاد إلى قواطع الأدلة ص٣٠٨ ط السعادة بمصر ١٩٥٠م

٥ ـ عبدالجبار السابق ص٥٦٩

بمعنى أن جنس الفعل مما يقدر عليه قومه إلا أن النوع المعجز لا يقدرون عليه، فالقرآن الكريم نوع فى جنس الكلام، فهم يقدرون على الكلام كجنس إلا أنهم عجزوا عن الإتيان بمثل هذا النوع من الكلام .

ومن علماء المسلمين من رفض أن يكون جنس المعجزة مما يقدر عليه العباد، يقول الباقلانى فى إعجاز القرآن فلا « يصح دخوله تحت قدرة العباد وإنما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه .. لأنه لو صح أن يقدروا عليه بطلت دلالة المعجز »[١] .

غير أن كلام الباقلانى مدفوع باعتبار أن كل حادث مقدور لله تعالى، وأفعال العباد مقدورة لله وهو خالقها والاعتبار فى فعل مدعى النبوة كونه خارقاً.

الثانى : أن يكون خارقاً للعادة إذ لا إعجاز دونه[٢] لأنه لو كانت « المعجزة عادة معتادة يستوى فيها البار والفاجر والصالح والطالح ومدعى النبوة المحق بها والمفترى بدعواه لما أفاد ما يقدر معجزاً وتنصيصاً على الصادق »[٣] . أى أن يكون خارقاً لما اعتاده الناس واستمروا عليه مرة بعد أخرى لتمييز المدعى عن غيره ، وهذا الأمر « قد يكون إتياناً بغير المعتاد وقد يكون منعاً من المعتاد »[٤] .

ولكن قد يقول قائل : كيف « يتيقن العاقل كون ما جاء به النبى خارقاً للعادة ، وقد استقر فى نفسه ما اطلع الحكماء عليه من خواص الأجسام وبدائع التأثيرات، حتى توصلوا إلى قلب النحاس ذهباً إبريزاً ... فما يؤمننا أن يكون مدعى النبوة قد عثر على سر من هذه الأسرار وتظاهر به ؟»[٥] .

أجاب الجوينى بأننا نضطر إلى العلم بأنه ليس فى القوى البشرية والفكر الحكيمة إحياء العظام بعد ما رمت وإبراء الأكمه والأبرص وقلب العصا حية .

المقصود أن حجة النبى لا تكون كذلك حتى تعجز الناس ـ بل الأنس والجن ـ وتخرج عن حد طاقتهم .

الشرط الثالث : اقتران المعجزة بدعوة النبى ، بمعنى أن يقع الأمر المعجز عقب دعوى المدعى للنبوة . أى يجب أن يكون المعجز حادثاً فى المدلول عليه وفى زمانه .

غير أن الإمام ابن تيمية رفض هذا الشرط ، لأن الآيات ما هى إلا « شهادة من

---

١ ـ الباقلانى : إعجاز القرآن ج١ ص٢٨٨ بهامش الإتقان فى علوم القرآن ط الحلبى ١٣٧٠هـ .

٢ ـ الأيجى : شرح المواقف جـ٢ ص٤١٠ .

٣ ـ الجوينى : السابق ص٣٠٩

٤ ـ الرازى : محصل أفكار المتقدمين ... ص١٥١ .

٥ ـ الجوينى : السابق ص٣١٢ .

الله وإخبار منه بنبوتهم فلا يجب أن يكون فى محل النبوة ولازمانها ولا مكانها »[١]، ولكنه يشرح ما ذهب إليه بقوله : « ...فإذا أريد بأن آيات الأنبياء مختصة بهم وأنها لا تكون لغيرهم وأنها لا تكون مع انتفاء النبوة المدلول عليها) فحدوثها فى محل المدلول عليه وفى زمانه أمرضرورى . أما إذا « أريد أنها لا توجد إلا فى ذات النبى أو مقترنة عن نبوته أو المكان الذى كان فيه أو الزمان فهذا كله غلط » .

الشرط الرابع : أن يتحدى النبى بالمعجزة لأنه « لا معنى للمعجزة إلا ما يقترن بتحدى النبى عند استشهاده على صدقه على وجه يعجز الخلق عن معارضته »[٢] . ويكفى فى التحدى « قرائن الأحوال ، مثل أن يقال له : إن كنت نبياً فأظهر معجزاً ففعل بأن دعا الله فأظهره فيكون ظهوره دليلاً على صدقه ونازلاً منزلة التصريح بالتحدى »[٣] .

غير أن ابن حزم والإمام ابن تيمية ذهبا إلى أن مقتضى شرط التحدى « أن ما كان يظهر على يد النبى « ﷺ » فى كل وقت من الأوقات ليس دليلاً على نبوته لأنه لم يكن كلما ظهر شيء من ذلك احتج به وتحدى الناس الإتيان بمثله، ولا نقل التحدى عن غيره من الأنبياء مثل موسى وصالح »[٤].

ولكننا نرى أن المعجزة تتضمن التحدى أو هى نازلة منزلة التحدى وإن لم يصرح النبى بذلك، كما أن القرآن الكريم وهو معجزة محمد « ﷺ » جاءت تحدياً للعرب على فصاحتهم وبلاغتهم ؛ بل التحدى يتعداهم ليشمل الإنس والجن .

الشرط الخامس : وهو أن تقع المعجزة على وفق الدعوى لا على خلافه، لأنها حينئذ تكون تكذيباً له . روى أن مسيلمة الكذاب طلب من أصحابه أن يتفل فى بئر ليكثر الماء فغارت البئر فدل على كذبه[٥] .

○دلالة المعجزات على النبوات :

وبمقتضى الشروط السابقة : فإذا تحققت فى أمر معجز فهل يعد هذا دليلاً على صدق مدعى الرسالة ؟ بمعنى آخر. هل إذا طالب الناس مدعى النبوة بالدليل على صدقه ، فأجرى الله تعالى على يديه ما طلبوا فهل ينهض هذا دليلاً على أنه مبعوث يوحى إليه ؟ أم يكفى إخبار المدعى أنه يوحى إليه ؟ بمعنى أنه هل يكفى سلامة ما

١ ـ ابن تيمية : النبوات ص٢٧١ ـ ٢٧٢ .
٢ ـ الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص١٠٥ .
٣ ـ الا يجى : شرح المواقف ص٤١٠ .
٤ ـ ابن تيمية : النبوات ص١٣٠ ، وابن حزم : الفصل جـ٥ ص٥ .
٥ ـ القرطبى : الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص٣٠ .

جاء به من شرع ؟ .

المشهور عند جمهور العلماء تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات ، بمعنى أنه لابد من إظهار معجزة تدل على صدق المدعى « فإذا أتى بها وبان لقومه وجه الإعجاز فيها لزمهم تصديقه وطاعته »[١] وبالغ بعضهم حتى قال : إن نصب دليل على صدق النبى غير المعجزة غير ممكن[٢] حتى لو « صدق بالخبر لم يستغن عن معجز ، وإذا دل عليه بالمعجز استغنى عن الخبر »، فالدليل على نبوة أنبياء الله المعجزات ، وإن كان يدل بالخبر على جهة التأكيد [٣] .

نخلص من ذلك إلى ضرورة المعجزات للدلالة على النبوة أما الذين لم يشترطوها واكتفوا بسلامة شرع المدعى دلالة على صدقه فإننا نقول: إن الله لم يخلق شيئاً عبثاً فلابد للمعجزة من وظيفة هي إخضاع العقول وإجبارها على التصديق، ومن ثم يمكن القول ـ أيضاً ـ بأن سلامة شرعه حجة وليست الحجة . أما إذا أنكر المستشرقون خرق العادة أو القانون ـ كما أنكر أسلافهم انشقاق القمر لنبينا « ﷺ »ـ فهم بذلك منكرون للمعجزات ،منكرون معجزات موسى وعيسى ،منكرون للنبوات كلها ، وعندئذ يكون كلامنا معهم على محور آخر .

أما إذا خلطوا بين المعجزة والسحر ـ كما قالوا : ساحر أو مجنون ـ فذلك متهافت من وجهين، كما يقول الإمام الماوردى الشافعى:الأول : «أن الشعبذة تظهر لذوى العقول وتتدسس على الغر الجهول ، فخالفت المعجزة التى تذهل لها العقول» الثانى : « أن الشعبذة تستفاد بالتعليم فيتعلمها من ليس يحسنها فيصير مكافئاً لمن أحسنها ويعارضه بمثلها والمعجزة مبتكرة لا يتعاطاها غير صاحبها ولا يعارضه أحد بمثلها كما انقلبت عصا موسى حية تسعى تلتقف ما أفكه السحرة »[٤] فلو كان السحر معجزة إلهية لما ظهر من السحرة العجز والانقياد لموسى ـ عليه السلام ـ عند مشاهدة قلب العصا حية .

فضلاً عن أن السحر « تخييل يخدع الأعين فيريها ما ليس بكائن كائناً ، قال تعالى: ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾[طه:٦٦] ، والكلام فى حبال السحرة وعصيهم وفى آية أخرى ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾[الأعراف: ١١٦] .

السحر إذن إظهار شيء للإحساس على خلاف حقيقته بوجه من وجوه التمويه ،

---

١ ـ البغدادى : أصول الدين ص١٧٣ . ٢ ـ الجوينى السابق

٣ ـ الرازى : محصل أفكار ص١٥١ ، ابن حزم : الفصل جـ١ ص٩١

[illegible] ١٣٣ .

وهذا يحدث في نفس الرائي وإحساسه

كما أن الساحر لا يمكنه التحدي والدعوة ، وانتفاءهما يخرجان السحر « عن أن يكون معجزاً مشبهاً لآيات الرسل »[١] .

أما إذا ادعى صاحب خارقة النبوة وتحدى بها كذباً فإن الله تعالى يعجزه ويبطل ادعاءه بوسائل عديدة منها :

الأولى : ينسيه الله تعالى عمل السحر .

الثانية : يقدر الله تعالى بعض خصومه على معارضته بمثلها في حال دعواه فيها فيعلم أنه كاذب في دعواه الرسالة[٢] .

ومع هذا فإن علماءنا فرقوا بين المعجزة والسحر ، بين الصادق والكاذب تفريقاً حاسماً ودقيقاً وذلك بوجوه :

الأول : أن النبي صادق فيما يخبر به ـ عن الله ـ لا يكذب قط ، أما السحرة والكهان لابد أن يكذبوا ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) [الشعراء ٢٢١ ، ٢٢] ﴾[٣] . السحر إذاً لا يأتيه إلا الفاسق .

الثاني: المعجزة « غير مكتسبة ولا معروف بها النبي قبل إتيانها »[٤] . أما السحر «والكهانة فيناله الإنسان بتعلمه وسعيه واكتسابه وهذا مجرب عند الناس»[٥] . يؤيد ذلك ما كان من سحرة فرعون لما انقلبت عصا موسى حية وتلقفت عصيهم فقد خروا له ساجدين وما دفعهم إلى ذلك إلا علمهم أن موسى لم يعرف السحر و لم يتعلم فنونه لأنه تربى بينهم وهم قد تعلموه ونبغوا فيه .

الثالثة الحيلة « تفتقر إلى آلات وأدوات لو فقدت واحدة منها لم تنفذ وليس كذلك المعجزة »[٦]

الرابعة : أن آيات الأنبياء « لا يمكن أن تعارض بالمثل ، فضلاً عن الأقوى ، ولا يمكن لأحد إبطالها بخلاف خوارق السحرة والشياطين فإنه يمكن معارضتها بمثلها وأقوى منها »[٧]

الخامسة . أن المشعوذ والمحتال إنما ينفذ حيلته على من ليس من أهل صناعته ،

---

١ الباقلاني كتاب البيان ص٩٤ ، الرازي : التفسير الكبير جـ٢١ ص٨٥

٢ البغدادي . أصول الدين ص١٧٤ ٣ ـ ابن تيمية : النبوات ص١٣٦

٤ ابن الوزير : ايثار الحق على الخلق ٥ ـ ابن تيمية : السابق ص١٣٦

٦ ـ عبدالجبار المعتزلي : السابق ٥٧٢ ٧ ـ ابن تيمية : الجواب الصحيح جـ١ ص١٤

ومن ليس له بها دراية ومعرفة ، بينما معجزة كل نبي جعلها الله جل وعلا مما يتعاطاه أهل زمانه .

ننتهي مما سبق إلى أن المعجزة ضرورية للنبي « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . وقد تبين أن علماء المسلمين يرون أن للإقناع إحدى سبيلين : إما العقل والبرهان ، وإما المعجزة المبنية على خرق العادة وإذا كان البرهان العقلي لا يخضع له إلا ذووالعقول المستنيرة ، والأذهان الصافية ، والقلوب المستشرفة للعرفان ، فإن من البشر من لا يصلح لدعوته إلا أن يروا أمراً خارقاً ، ويلمسوا بأيديهم شيئاً متصوراً بالعقل ، معجزاً للبشر ، فتقوم الحجة .

* * *

الفصل الرابع

كيفية الاستدلال على نبوة محمد (ﷺ)

○ **المبحث الأول** : ادعاؤه النبوة وإظهار ذلك ، شأنه شأن إخوانه من الأنبياء السابقين .

○ **المبحث الثاني** : ظهور المعجزات على يديه :

أ ـ المعجزة القرآنية .

ب ـ معجزات الأحداث .

الرد على منكرى نبوته من اليهود والنصارى ـ انشقاق القمر نبع الماء من بين يديه ـ تسبيح الحصا فى يديه .

○ **المبحث الثالث**: أحواله قبل النبوة وبعدها وأخلاقه وأوصافه ـ شهادة هرقل .

○ **المبحث الرابع** : أخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته بشهادات العهدين : القديم والجديد ...

***

كيفية الاستدلال على نبوة محمد

○ لم يكن محمد «ﷺ» .. محتاجاً إلى تقرير جنس النبوة إذ كان الرسل قبله قد جاءت بما أثبتت به ذلك .

○ وقومه كانوا مقرين بالصانع، وإنما كانت الحاجة داعية إلى تثبيت نبوته»[1]

والطريق .. التى بها تثبت نبوّة الأنبياء تثبت بها نبوة محمد «ﷺ» ... لأن كل ما يستدل به على نبوة نبى فمحمد أحق بجنس ذلك الدليل من غيره وما يعارض به نبوة نبى فالجواب عن محمد أولى...»[2] .

○ **الناس أمام النبوات فريقان :**

أحدهما : مكذب بجنسها وهؤلاء هم البراهمة. وقد رددنا عليهم حججهم.

والثانى : وهم اليهود والنصارى وهؤلاء آمنوا بجنس الرسالة وكذبوا بالعين . واليهود فريقان :

الأول : منهم ينكر نبوة محمد «ﷺ» لمنعهم نسخ الشرائع .

الثانى : لا ينكرون نبوته «ﷺ» ولكنهم «يقولون إنه كان نبياً ولكن كان مبعوثاً إلى العرب دون العجم » أما النصارى فإنهم ينكرون نبوته « ﷺ » جملة لمماراتهم فى آياته ومعجزاته .

* * *

---

١ ـ ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ٤ ص٢٨٤

٢ ـ ابن تيمية : المصدر السابق جـ٣ص٢٩٩

أوقبلناه قلنا :

إن المعجزة لا تدل على الصدق ، فحينئذ تبطل نبوة سائر الأنبياء وإن اعترفنا بصحة التواتر ، واعترفنا بدلالة المعجزة على الصدق ثم إنهما حاصلان فى حق محمد وجب الاعتراف قطعاً بنبوة محمد .

ضرورة عند الاستواء فى الدليل لابد من الاستواء فى حصول المدلول[١] .

على أية حال فإن « محمد «ﷺ» ادعى النبوة بين قوم لا كتاب لهم ولا حكمة فيهم بل كانوا معرضين عن الحق معتكفين إما على عبادة الأوثان كمشركى العرب، وإما على دين التشبيه وصفة التزوير وترويج الأكاذيب المفتريات كاليهود وإما على عبادة الإلهين ونكاح المحارم كالمجوس ..وإما على القول بالأب والابن والتثليث كالنصارى فقال لهم إنى بعثت من عند الله بالكتاب والحكمة الباهرة لأتمم مكارم الأخلاق وأكمل الناس فى قوتهم العلمية بالعقائد الحقة والعملية بالأعمال الصالحة وأنور العالم بالإيمان والعمل الصالح، ففعل ذلك وظهر دينه على الدين كله كما وعده الله . ولا معنى للنبوة ـ فيما يقول الرازى ـ إلا ذلك لأنه كان لا معنى للنبوة إلا تكميل الناقصين فى القوة النظرية وفى القوة العملية ورأينا أن ما حصل من هذا الأثر بسبب مقدم محمد «ﷺ» أكمل وأكثر مما ظهر بسبب مقدم موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ علمنا أنه كان سيد الأنبياء[٢] .

ويمثل الشيخ رشيد رضا لذلك برجل « ادعى فى بلاد كثرت فيها الأمراض أنه طبيب وأن دليله .. يداوى المرضى .. فيبرءون .. ثم عرض عليه ما لا يحصى عدداً من المرضى وقبلوا ما وصفه لهم من الأدوية فبرئوا من عللهم وصاروا أحسن الناس صحة فهل يمكن المراء فى صحة هذه الدعاوى ..؟ كلا .

(فضلاً عن أن) العلم بطب الأرواح أعلى وأعز منالاً من العلم بطب الأجساد وأن معالجة أمراض الأخلاق وأدواء الاجتماع أعسر من مداواة أعضاء الأفراد ... ومن المعلوم بالضرورة أن النبى «ﷺ» عالج (بالقرآن) أمة عريقة فى الشقاق وحمية الجهل، عريقة فى الجهل والأمية ورذائل الوثنية فشفيت واتحدت وتعلمت الكتاب والحكمة .. مع أنه كان أمياً ..»

ادعى محمد «ﷺ» ـ إذن ـ أنه نبى يأتيه وحى السماء واقترنت دعوته بوقوع

١ ـ الرازى : مناظرة فى الرد على النصارى ص٢٢ . تحقيق د. عبدالمجيد النجار . دار الغرب الإسلامى ـ بيروت ١٩٨٦م

٢ ـ الرازى : محصل أفكار المتقدمين .. ص٩٦ ـ ٩٧ . ٣ ـ رشيد رضا : تفسير المنار جـ١ ص١٨٣ .

المبحث الأول

( ) إدعاؤه النبوة وإظهار ذلك ، شأنه شأن إخوانه من الأنبياء السابقين .

ونبوة محمد « ﷺ » نثبتها بوجوه منها :

ـ أنه ادعى النبوة وأظهرذلك .

ـ والمعجزات التى ظهرت على يديه وهى قسمان :

(أ) المعجزة القرآنية ، ولن نفيض فيها لما أثبتناه[١] للقرآن الكريم من أوجه إعجاز وباعتبار ذلك معجزة محمد الخالدة ومن ثم دليل نبوته .

(ب) ما يمكن أن نصطلح على تسميته بمعجزات الأحداث .

ـ ثم أحواله قبل النبوة وبعدها . وأخلاقه العظيمة ..

وأخيراً إخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته (بشارات العهدين القديم والجديد) : أنه «ﷺ» ادعى النبوة وأظهر ذلك وآية صدقه : لا شك أن محمداً «ﷺ» ادعى النبوة ودعا قومه إلى التصديق برسالتة ورسالة الرسل كافة من قبله وظهر المعجز عقيب دعواه .. والمعجز يدل ـ كما سبق القول ـ على صدق من ظهر عليه أى أن اقتران دعوى محمد بالمعجز دلالة على صدقه فيما ادعاه .

أما أنه ادعى النبوة فهذا معلوم بالاضطرار ، فنحن نعلم أنه « هو الذى كان بمكة ثم هاجر إلى المدينة وأنه كان يدعى النبوة ويجعل الدلالة على نبوته القرآن ويتحدى به العرب،كل ذلك بالنقل المتواتر«كالعلم بالبلدان » وإخبارها وإخبار الملوك بالنقل »[٢] ونشير هنا إلى أمر هام وهو أن التواتر موجب للعلم لأننا نجد فى أنفسنا ضرورة العلم بوجود مكة والمدينة وإن لم نبصرهما بل نقول إن « ظهور الأنبياء مما نؤرخ به الحوادث فى العالم لظهور أمرهم عند الخاصة والعامة ...

ولهذا جعل عمر تاريخ المسلمين من الهجرة النبوية فإنها أظهر أحوال الرسول المشهورة »[٣] .

وكما نقل إلينا ظهور « الخارق على يد موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام . نقل إلينا أيضاً ظهور الخارق على يد محمد «ﷺ» فإن رددنا التواتر

---

١ ـ أنظر كتابنا : النبوة فى الإسلام

٢ ـ القاضى عبدالجبار : المختصر فى أصول الدين ضمن مجموعة رسائل العدل والتوحيد، تحقيق د محمد عمارة ص٢٢٨ ، والبغدادى أصول الدين ص١٦١

٣ ـ ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص٢٩٢ دار المعرفة بيروت

المعجزات على يديه .

المبحث الثاني

○ ظهور المعجزات على يديه :

○ **أولاً : المعجزة القرآنية** : نود ابتداء الإشارة إلى بعض أوجه إعجاز القرآن ، ثم نبين بعد ذلك كيف أن هذا القرآن المعجز معجزة لمحمد « ﷺ » .

١ ـ الإعجاز البلاغي :

تأليف القرآن ونظمه معجز محال وقوعه منهم كاستحالة إحياء الموتى منهم وإنه علم لرسول الله «ﷺ» يقول الإمام ابن تيمية: إن « نفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب فإنه ليس من جنس الشعر ولا الرجز ولا الرسائل ولا الخطابة ولا نظمه شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هذا عجيب خارق للعادة ليس له تظير فى كلام جميع الخلق »[1] . تحدى البلغاء والخطباء والشعراء بنظمه وتأليفه فى المواضع الكثيرة والمحافل العظيمة فلم يرم ذلك أحد ولا تكلفه ولا أتى ببعضه ولا شبيه منه ولا ادعى أنه فعل ، وليس قول جميعهم أنه كان كاذباً معارضة لهذا الخبر إلا أن يسمعوا الإنكار معارضة وإنما المعارضة مثل الموازنة والمكايلة فمتى قابلونا بأخبار فى وزن أخبارنا ومخرجها ومجيئها فقد عارضونا ووازنونا وكايلونا وقد تكافينا وتدافعنا ولكنهم اختاروا الحرب والمنابذة وفقد الأهل والولد توهيناً لأمر محمد «ﷺ» ودليل نبوته، اختاروا هذا ولم يقل أحدهم : لم تقتلون أنفسكم وتستهلكون أموالكم وتخرجون من دياركم والحيلة فى أمره يسيرة والمأخذ فى أمره قريب . ليؤلف واحد من شعرائكم وخطبائكم كلاماً فى نظم كلامه كأقصر سورة يخذلكم بها وكأصغر آية دعاكم إلى معارضتها .

وهذا الجانب البلاغى من القرآن معجز بمقتضى نقض العادة ـ فيما يقول الرمانى ـ لأن العادة « كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة منها الشعر ومنها السجع ومنها الخطب ومنها الرسائل ومنها المنثور الذى يدور بين الناس فى الحديث، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة فى الحسن تفوق به كل طريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة فى الحسن تفوق به كل طريقة »[2] . ويفوق

---

١ ـ ابن تيمية : الجواب الصحيح ، جـ٤ ص٧٨

٢ ـ الرومانى · النكت فى إعجاز القرآن ص١١١ ضمن ثلا· . ـائل تحقيق ، محمد خا· . الله والدكتور زغلول سلام . دار المعارف بمصر .

الموزون الذى هو أحسن الكلام .

« ... وأما قياسه بكل معجزة فإنه يظهر إعجازه من هذه الجهة إذا كان سبيل فلق البحر وقلب العصا حية وما جرى هذا المجرى فى ذلك سبيلاً واحداً فى الإعجاز إذا خرج عن العادة قعد الخلق فيه عن المعارضة » .

القرآن إذن خالف جميع الكلام « الموزون والمنثور ، وهو منثور غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع فصار نظمه من أعظم البرهان وتأليفه من أكبر الحجج[1] وليس وجه الإعجاز فى نظم القرآن لأنه حكاية عن كلام الله وإلاّ كانت التوراة والإنجيل مثله فى الإعجاز فأى منهما ليس بمعجز فى النظم والتأليف وإن كان معجزاً كالقرآن فيما يتضمن من الأخبار بالغيوب .

ولكن كيف يمكن الوقوف على الجانب الإعجازى للقرآن ؟ .

يقول الزمخشرى : « ... لا يغوص على شىء من تلك الحقائق إلاّ رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعانى وعلم البيان، وتمهل فى ارتيادهما آونة وتعب فى التنقير عنهما أزمنة وبعثته على تتبع مظانهما همة فى معرفة لطائف حجة الله وحرص على استيضاح معجزة رسول الله «ﷺ» بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ فارساً فى علم الإعراب ... ذا دراية بأساليب النظم والنثر ... قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف .. وكيف ينظم ويرصف ... »[2] .

يقول (أتيين دينيه) : « إن نبى الإسلام هو الوحيد من بين أصحاب الديانات الذى لم يعتمد فى إتمام رسالته على المعجزات وليست ... الكبرى إلا بلاغة التنزيل الحكيم »[3] .

لقد كان القرآن معجزاً فى كلامه البين الواضح الذى تحداهم الإتيان بمثله، وهذا التحدى هو أحد أوجه إعجازه ، فقد جاء فى التنزيل فى نص التلاوة ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨] .وقال : ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود: ١٣] .

ويدلل الجرجانى على عجز العرب حين تلى عليهم القرآن وتحدوا إليه وذلك

---

١ ـ الجاحظ : البيان والتبيين جـ١ ص٣٩٣ .

٢ ـ الزمخشرى : الكشاف ج١ ص٣ الطبعة الأولى المطبعة الشرقية .

٣ ـ دينيه (ناصر الدين) : أشعة خاصة بنور الإسلام ص١٦ ترجمة راشد رستم . المكتب الفنى بيروت ١٩٦٠م .

بدلالة أحوالهم . ودلالة الأحوال ـ فيما يرى ـ تتلخص فيما يأتى :

١ ـ المتعارف من عادات الناس التى لا تختلف وطبائعهم التى لا تتبدل أن لا يسلموا لخصومهم الفضيلة ، وهم يجدون سبيلاً إلى دفعها ، ولا ينتحلون العجز وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم »[١] .

٢ ـ فإذا كان كذلك فكيف يجوز أن يظهر فى صميم العرب ، وفى قريش ذوى الأنفس الأبية والهمم العالية ... من يدعى النبوة ويخبر أنه مبعوث من الله تعالى إلى الخلق كافة .. ثم يقول : حجتى كتاباً عربياً مبيناً تعرفون ألفاظه وتفهمون معانيه ... إلا أنكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله ولا بعشر سور منه ولا بسورة واحدة ... ثم لا تدعوهم نفوسهم إلى أن يعارضوه ويبينوا سرفه فى دعواه مع إمكان ذلك » ..؟[١] وقال ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٣] مبالغة فى تقريعهم بالعجز عنه .

٣ ـ هل يجوز أن يخرج خارج من الناس على قوم لهم رياسة ولهم دين ونحلة فيؤلب عليهم الناس ويدبر فى إخراجهم من ديارهم و أموالهم وفى قتل صناديدهم وكبارهم وسبى ذراريهم وأولادهم وعدته التى يجد بها السبيل إلى تألف من يتألفه، ودعاء من يدعوه دعوى إذا بطلت بطل أمره كله وانتقض عليه تدبيره، ثم لا يعرض له فى تلك لدعوة ولا يشتغل بأبطالها مع إمكان ذلك و مع أنه ليس بمعتذر و لا ممتنع ؟[٢] .

ولا معنى لهذا إلا العجز التام عن أبطال حجة النبى «ﷺ» .

ثم يخبر الله تعالى أن عجزهم هذا ينسحب على الماضى والمستقبل وذلك فى قوله ﴿ .. فإن لم تفعلوا ﴾ يعنى فيما مضى ﴿ ولن تفعلوا ﴾ أى تطيقوا ذلك فيما يأتى . وفيه إشارة لهم لتحريك نفوسهم ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع وهذا من الغيوب التى أخبرهم بها القرآن قبل وقوعها »[٣] .

من هنا لا يجوز لقائل أن يقول: إن كان أهل عصر النبى «ﷺ» قد عجزوا عن الإتيان بمثله فإن أهل الأعصار التالية لن يعجزوا ،وذلك لأن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الإتيان بمثله فمن بعدهم أعجز لأن فصاحة أولئك... مما لا يزيد عليه فصاحة من بعدهم وأحسن أحوالهم أن يقاربوهم أو يساووهم فأما أن يتقدموهم أو يسبقوهم فلا ، فضلاً عن أن التحدى فى الكل على جهة واحدة والتنافس فى

---

١ ـ الجرجانى : الرسالة الشافية ص١١٩ ـ ١٢١ . ثلاث رسائل المصدر السابق .

٢ ـ الجرجانى : الرسالة الشافية ص ١١٩ ـ ١٢١ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن .

٣ ـ القرطبى : الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص٢٢٠١ ،وابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ١ ص٥٩ .

الطباع على حد (واحد) والتكليف على منهاج لا يختلف ولذلك قال تعالى ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن ﴾[1] الآية . ولكن الذى يمكن أن يقال هو : وما مثله هذا حتى نأتى بسورة من ذلك المثل ؟ وعنه يجيب صاحب الكشاف بأن «معناه فأتوا بسورة مما هو على صفته فى البيان الغريب وعلو الطبقة فى حسن النظم»[2] .

أو فأتوا : بسورة من بشر أتى من مثله لا يحسن الخط ولا الكتابة ولا يدرى الكتب وهذا قول من اعتبر الضمير فى مثله عائد على محمد عبد الله ورسوله .

ولكن إذا كان التحدى بالقرآن قد وقع . ألم تقع منهم المعارضة ؟

ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن غير أنه لا يوجد لابن المقفع كتاب يدعى مدع أنه عارض فيه القرآن بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدة ثم مزق ما جمع واستحيا لنفسه من إظهاره. فإن كان كذلك فقد أصاب وأبصر القصد[3]. بيد أنه قيل إنهم يجوز أن يكونوا قد عارضوه ، ولمصلحة الدين والحفاظ عليه لم تنقل المعارضة؟

لقد أفرد القاضى عبدالجبار ـ المعتزلى ـ فصلاً للإجابة على هذا السؤال، بعنوان «فى بيان الدلالة على أنهم لم يعارضوه عليه السلام لتعذر المعارضة» قال فيه إنهم لو«تكلفوا المعارضة وبلغوا النهاية لا يزيدون على من تقدم من طبقات الشعراء ، لأن مزية شعرهم وخطبهم على من كان فى زمنه «ﷺ»، معروفة فى الجملة فكان يجب أن يحتج بذلك الجم الغفير، وإن تواطأت الجماعة اليسيرة على ترك المعارضة أو إخفائها لأن هذا الاحتجاج أسهل من إيراد المعارضة وأقوى فى بطلان أمره «ﷺ» لأنه.لا فرق بين أن يبينوا أن الذى جاء من القرآن معتاد بذكر مثله فيما تقدم أو بإيراد مثله فى الوقت، وبعد فإنا لا نجوز على الجمع اليسير ماظننة السائل على كل حال لأنه من التنافس الشديد والتقريع العظيم وتحرك الطباع ودخول الحمية والأنفة وبطلان الرياسة والأحوال المعتادة والدخول تحت المذلة لا يجوز فى كثير من الأحوال على الواحد أن يسكت عن الأمر الذى يزيل به عن نفسه الوصمة والعار والأنفة وكيف على الجماعة القليلة أو الكثيرة»[4] . ثم يذكر ابن تيمية أن القرآن «لما كذب به المشركون واجتهدوا فى إبطاله بكل الطرق مع أنه تحداهم بالإتيان بمثله ثم بالإتيان بعشر سور ثم الإتيان بسورة واحدة ، كان ذلك مما دل ذوى الألباب على عجزهم عن المعارضة مع شدة الاجتهاد وقوى الأسباب»[5] .

١ـ ابن تيمية : الجواب الصحيح جـ٤ ص٧٣ ـ ٧٤ . ٢ ـ الزمخشرى : الكشاف جـ١ ص٤٠ .
٣ ـ الباقلانى : إعجاز القرآن جـ١ ص١٦ .
٤ ـ القاضى عبدالجبار : المغنى جـ١٦ ـ إعجاز القرآن ص٣٧٢ .
٥ ـ ابن تيمية الجواب الصحيح ... جـ١ ص١٤ .

يقول الشيخ محمد عبده عند (آية ٢٣ : البقرة) :(فهذا القضاء الحاكم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ما تحداهم به ليس قضاءً بشرياً ، ومن الصعب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزم كالذى التزمه وشرط كالذى شرطه على نفسه، لغلبة الظن عند من له شيء من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته وإنما ذلك هو الله المتكلم ، والعليم الخبير ، هو الناطق على لسانه - أى محمد - وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى من تناول ما استنهضهم له وبلوغ ما حثهم عليه »[1] .

نخلص من ذلك إلى أنهم حاولوا فعجزوا « وهل يذعن الأعراب وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز والتوقيف على النقص ثم لا يبذلون مجهودهم ولا يخرجون مكنونهم وهم أشد خلق الله أنفة وأفرط حمية وأطلبه بطائله وقد سمعوه فى كل منهل »[2] .

فمع أن الكلام كان سيد عملهم فقد عجزوا عن المعارضة مع بذلهم المحاولة تلو الأخرى . وهو كذلك معجز أى لتركهم المعارضة مع التحدى .

ننتهى مما سبق إلى أن القرآن الكريم لم يلتزم شيئاً مما كانوا يلتزمون بسجعهم وإرسالهم ورجزهم وإشعارهم بل جاء على النمط الفطرى والأسلوب العادى الذى يتسنى لكل إنسان أن يحذو مثاله ولكنهم عجزوا فلم يأتوا ولن يأتى غيرهم بسورة من مثله فثبت أنه معجز ببلاغته وفصاحته وحسن نظمه ، الذى هو أم إعجازه والقانون الذى وقع عليه التحدى . فالرسول «ﷺ» تحداهم الإتيان بمثله . وكيف يتصور أن يكون الفصحاء والبلغاء من العرب كثيرين مشهورين بالعصبية والحمية فيتركون الأمر الأسهل الذى هو الإتيان بقدر أقصر سورة ويختارون الأصعب مثل الحرب وسفك الدماء والسبى .

الجانب الثانى : الإخبار عن الغيوب .

رأينا أن الإعجاز القرآنى لا يرد إلى بلاغته فقط بل أن هناك وجوهاً أخرى منها : ما تضمنه من الأخبار عما سيكون فى مستقبل الزمان، وأخبار الأمم السابقة، وكل ما بعد عن إدراك الإنسان فهو غيب ، حتى النفس: خلجاتها ونزعاتها فهى غيب أيضاً .

فالدليل على كون القرآن معجز إنما هو كما يقول الإمام ابن تيمية : ليس من جهة فصاحته وبلاغته فقط ، أو نظمه وأسلوبه فقط ، ولا من جهة اخباره بالغيب

١ - محمد عبده : « رسالة التوحيد ص١٧٠ جـ١ المنار بمصر

٢ - الجاحظ : حجج النبوة بهامش الكامل للمبرد جـ٢ ص ١٣٠

فقط ولا من جهة صرف الدواعى عن معارضته فقط ، ولا من جهة سلب قدرتهم عن معارضته فقط .

بل هو آية بينة معجزة من هذه الوجوه جميعاً . من جهة معانيه التى أخبر بها عن الغيب الماضى وعن الغيب المستقبل ، ومن جهة ما أخبربه عن المعاد ومن جهة ما فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية التى هى الأمثال المضروبة . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤) ﴾ [الكهف : ٥٤].

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٨٩) ﴾ [الإسراء : ٨٩][١] . يقول الزمخشرى عند قول الله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤) ﴾ [هود : ١٤] . أى أنزل متلبساً بما لا يعلمه إلا الله من نظم معجز وأخبار لغيوب لا سبيل لهم إليه واعلموا عند ذلك أنه لا إله إلا الله »[٢] . وهذا التحدى كان بمكة، فهود مكية ، ثم أعاد التحدى فى المدينة ، فقال تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤] .

يقول الإمام ابن تيمية فى الجواب الصحيح : الله تعالى ذكر هنا أمرين :

أحدهما: قوله ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ أى إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق ، فخافوا الله أن تكذبوه فيحيق بكم العذاب الذى وعدبه المكذبين ..

والثانى : قوله ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ و(لَن) لنفى المستقبل فثبت للخبر أنهم فيما يستقبل من الزمان لا يأتون بسورة من مثله[٣] .

وإذا قيل :من أين لكم أنه إخبارٌ بالغيب على ما هو به حتى يكون معجزة ؟ أجاب صاحب الكشاف : لأنهم لو عارضوه بشىء لم يمتنع أن يتواضعه الناس ويتناقلوه إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال لا سيما والطاعنون فيه أكثف عدداً من الذابين عنه فحين لم ينقل علم أنه إخبار بالغيوب على ما هو به فكان معجزة[٤] .

أما الإنباء بالمستقبل القريب أو البعيد ، فقد حفل القرآن الكريم بالكثير منها وتم

---

١ ـ الجواب الصحيح .. جـ٤ ص٧٤ .
٢ ـ الكشاف جـ٢ ص ٤٣٧ .
٣ ـ الزمخشرى · السابق جـ١ ص٤٢ .
٤ ـ ابن تيمية : الجواب الصحيح جـ٤ ص٧٣ .

وقوعها طبق الأصل على مدى قريب أو بعيد :

أولاً : نحو قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑤ ﴾ [الروم: ١ – ٥] .

لقد تضمنت هذه الآية ثلاثة من الأخبار عن الغيوب . « أحدها قوله عز وجل ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ هذا من الغيب الذى لايعلمه إلا الله عز وجل . والثانى: قوله ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ والبضع فوق الثلاثه ودون العشرة وهذا التحدى أيضاً من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله . والثالث: قوله ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ فأخبر أنهم يفرحون فى ذلك الوقت بنصر الله، وهذا أيضاً من الغيب لأنه خبر عن بقاء المؤمنين إلى ذلك الوقت مع قلتهم وطمع الأعداء فى انتسافهم، وعن أنهم يفرحون ولا تعترض هناك أحوال تمنعهم من الفرح لأن هذه الآية نزلت بمكة قبل الهجرة، فى حال ضعف المسلمين وقلتهم واستيلاء المشركين عليهم »[1] وهذه القصة مشهورة .

أما النصر الذى له سر المسلمون، فقد قيل: «إن فرحهم إنما كان لإنجاز وعد الله تعالى إذ كان فيه دليل على النبوة لأنه أخبر تبارك وتعالى بما يكون فى بضع سنين فكان فيه » .

أما ما قيل من أن سبب ذلك أن الروم أهل كتاب كالمسلمين فإنه يعلل «بما يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدو الأصغر لأنه أيسر مئونة ومتى غلب الأكبر كثر الخوف » . يعضد هذا ، ما كان يرجوه الرسول «ﷺ» من ظهور دينه وشرع الله الذى بعثه به وغلبته على الأمم » .

يعلق « جيبون » على هذه الآيات بقوله:«فى ذلك الوقت حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعاً لأن السنين الاثنتى عشرة الأولى من حكومة هرقل كانت تؤذن بانتهاء الامبراطورية الرومانية »[2] .أى أنه باستقراء الواقع واقع الإمبراطورية الرومانية ـ آنذاك ـ المتهالكة،وبمقياس العقل البشرى ـ الناقص فإن علامات الكذب والبعد عن الواقعية بادية على النبوءة القرآنية.وهى كذلك لوكانت

---

١ ـ أبى الحسن أحمد بن الحسين الزيدى : إثبات نبوة النبى ص١٢٨ .

٢ ـ Western Civilistion.

عن : الإسلام والمستشرقين ص٤١٠ (مقال للأستاذ محمد صدر الدين الحسن الندوى جدة ١٤٠٥ هـ).

نبوءة بشر ـ كما يزعم كثير من المستشرقين ـ يقول الأستاذ محمد صدر الدين الحسن الندوى: ولكن من المعلوم أن هذه النبوءة جاءت من لدن من هو مهيمن على الوسائل والأحوال..ولم يكن جبريل يبشر النبى بهذه البشرى حتى أخذ الانقلاب يظهر على شاشة الامبراطورية الرومانية »[1] .

ولا شك أن هذا كله إخبار يعلم كل عاقل عجز الخلق عن معرفتها والتوصل إلى إدراكها وكما فى قول الله تعالى: ﴿ ..لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إن شاء اللَّه آمنين.. ﴾ [الفتح: ٢٧] . فدخلوه كما وعدهم .

ثانياً : من ذلك أيضاً قصة أبى لهب وقد كان من المؤذين لرسول الله، فبشره الله بأن ذلك لا يضره وأخبره أن أبا لهب « وامرأته يموتان على الكفر به ويصيران إلى النار . نزل ذلك بمكة وهما حيان سليمان فكان ذلك كله على ما قال وعلى ما أخبر وكما نقل وبشر ... وهذه غيوب كثيرة لا يكون فعلها بالاتفاق ولا بالحدس ولا بالزرق[2] .

ولا يتفق لحذاق المنجمين أقل القليل من هذا »[3] .

ثالثا: من الأمور التى وقعت في المستقبل كما أخبر القرآن ويستدل بها على إعجازه قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣]. من حيث أنه « ﷺ » أخبر عن مكة أنه يستولى عليها ويقهر أهلها ويصير أصحابه قاهرين للأعداء، فهذا إخبار عن الغيب وقد وقع مخبره مطابقاً لخبره فيكون هذا إخباراً صدقاً عن الغيب والإخبار عن الغيب معجزة .

رابعاً: ما أخبر به الله عن اليهود وتحداهم به، لما قالوا ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة: ١٨] .أفحمهم بقوله ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ وإذ زعم اليهود أنهم ﴿ أولياء الله من دون الناس ﴾ أعجزهم بقوله تعالى: ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الجمعة: ٦] ثم أمعن فى السخرية منهم قائلاً ﴿ وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٧]. وهذا إخبار من الله تعالى أنهم لا يتمنون الموت أبداً .

وروى عن ابن عباس أنه قال « كان رسول الله « ﷺ » يقول لهم : إن كنتم صادقين فى مقالتكم فقولوا اللهم أمتنا، فوالذى نفسى بيده لا يقولها رجل منهم إلا

---

١ ـ محمد صدر الدين الحسن الندوى · السابق.

٢ ـ الزرق : الخداع وفى اللسان رجل زراق أى خدّاع

٢ ـ عبدالجبار : تثبيت دلائل النبوة حـ١ ص٣٦

غص ريقه فمات مكانه وفى ذلك أعظم دلالة على صدق نبينا محمد وصحة نبوته لأنه أخبر بالشيء قبل كونه فكان كما أخبر ولو لم يكن هذا الإخبار من الله تعالى لما جاز للنبى «ﷺ»أن يخبر به خشية أن يظهر منهم ما يوجب تكذيبه إن هذه الأخبار الصادقة عن المستقبل دليل على ربانية القرآن الكريم وأنه كلام الله إلى خلقه.

أما ما ورد من غيب مضى ، أى أخبار الأنبياء السابقين وما كان من أممهم معهم وما نزل بالذين كفروا وكذبوا وذكر ما شجر بينهم وكان فى أعصارهم مالا يجوز حصول علمه إلا لمن كثر لقاؤه لأهل السير ودرسه لها وعنايته بها ومجالسته لأهلها وكان مما يتلو الكتب ويستخرجها، مع العلم بأن النبى «ﷺ» لم يكن يتلو كتاباً ولا يخطه بيمينه .

وكثيراً ما كان أهل الكتاب يتعمدون إحراجه ويسألونه عن هذه الأمور «فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكراً كخبر موسى والخضر ويوسف وإخوته وأصحاب الكهف وذى القرنين ولقمان وابنه وبدء الخلق »[1] .

ومن أخبار القرآن عن الغيوب السالفة وعجب ذلك إذ ورد ممن لا يعرف كتابة ولا قراءة ولم يجالس أصحاب التواريخ .

من ذلك ماقاله تعالى على أهل السفينة وإجرائها وإهلاك الكفرة واستقرار السفينة واستوائها وأوامر التسخير إلى الأرض والسماء بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ [هود: ٤١]

تناول القرآن صفحات من تواريخ الأمم السابقة للإسلام لم تكن معروفة لأنها موغلة فى القدم، ولم يكن النبى «ﷺ » مؤرخاً ولا ملماً بدراسة اللغات القديمة ولا كان أحد من العرب يعرف هذه الأحداث التاريخية . ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ﴾ [هود: ٤٩].

وصف القرآن ملكة سبأ بأنها ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾[النمل:٢٣]. وقد أثبتت الدراسات التاريخية ازدهار هذه المملكة وأن حضارتها كانت تضارع حضارة قدماء المصريين وأن أهلها برعوا فى إقامة السدود المائية العظيمة والقنوات العديدة .. فكانت الحدائق الغناء عن يمين وشمال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) ﴾ [سبأ: ١٥] .

---

١ ـ القاضى عياض : الشفا جـ١ ص٢٧٠ ـ ٢٧١ .

(كانت) إحدى الجنتين عن يمين الوادى والأخرى عن شماله .أى كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار »[1] . ومحمد «ﷺ» لم يصف هذه الحضارة من عند نفسه وإنما هو من عند الله علام الغيوب .

من ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٤٤] فيه دلالة على نبوة محمد حيث أخبر عن قصة زكريا ومريم ولم يكن يقرأ الكتب. وأخبر عن ذلك وصدقه أهل الكتاب بذلك » .

القرآن إذن معجز بتضمنه الأخبار عن الغيوب ووجه الإعجاز في القصص القرآنى أى فيما يتعلق بالغيب هو أمّية الرسول فمن المعلوم ـ كما قلنا ـ أنه نشأ أمّياً لا يقرأ ولا يكتب .

وقبل أن أنتهى من موضوع الإعجاز أود أن أنبه إلى أن للمحدثين اجتهادات قيمة حول إعجاز القرآن ، من ذلك ...

١ ـ إعجازه بالعلوم الدينية والتشريعية .

٢ ـ إعجازه لما فيه من التنبيه على دلائل العقول فإن ذلك جاء على طريقة انتقضت به العادة .

٣ ـ إعجازه . لخلوه من الاختلاف والتناقض مع ما فيه من الطول .

٤ ـ صنيعه فى القلوب وتأثيره فى النفوس ومن ذلك أيضاً :

أولاً : ذهب المرحوم سيد قطب إلى أن وجه الإعجاز للقرآن كامن فى صميم النسق القرآنى ذاته لا فى الموضوع الذى يتحدث عنه وحده، فيقول : يجب أن نبحث عن « منبع السحر فى القرآن قبل التشريع المحكم، وقبل النبوءة الغيبية وقبل العلوم الكونية وقبل أن يصبح القرآن وحدة مكتملة تشمل هذا كله، فقليل القرآن هو الذى كان فى أيام الدعوة الأولى كان مجرداً من هذه الأشياء التى جاءت فيما بعد وكان مع ذلك محتوياً على النبع الأصيل الذى تذوقه العرب فقالوا : ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ... ﴾ .

لنجد الجمال الفنى الخالص عنصراً مستقلاً بجوهره خالد فى القرآن بذاته يتملاه الفن فى عزلة عن جميع الملابسات والأغراض وأن هذا الجمال ليتملى وحده ، فيغنى وينظر فى تساوقه مع أغراض الدعوى الدينية فيرتفع فى التصوير ، التصوير هو

---

١ ـ القرطبى : الجامع لأحكام القرآن .

الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن ، وهو القاعدة الأولى فيه للبيان وهو الطريقة التى يتناول بها جميع الأغراض ، وهو الحقيقة التى لا يخطئها الباحث فى جميع الأجزاء »[١] .

ثانياً : ذهب الدكتور عبدالحليم محمود إلى أن إعجاز القرآن يكمن فى (المثلية) ذلك أن القرآن كرر لفظ (مثل) فى آيات كثيرة « ... والمثلية لا تختص بجانب دون جانب وإنما تعم جميع النواحى ... والواقع أن النقاش فى القرآن أمعجز بأسلوبه أو بمعانيه أو بقصصه أو بأخباره عن المغيبات أو بغير ذلك من وجوه إنما هو نقاش لا يتمشى مع الفكرة الدينية التى هى فى التماثل من جميع النواحى، قال صاحب البحر المحيط (والمثلية فى حسن النظم وبديع الوصف وغرابة الأسلوب والإخبار بالغيب مما كان ومما يكون وما احتوى عليه من الأمر والنهى والوعد والوعيد والقصص والحكم والمواعظ والأمثال والصدق والأمن من التحريف والتبديل) .

ومنشأ الاختلاف فى تحديد وجوه الإعجاز فى القرآن راجع إلى اختلاف درجة الاستعدادات الفطرية والاتجاهات الفكرية لإدراكها ومعرفتها »[٢] .

ثالثاً : ما ذهب إليه الرافعى من أن القرآن بآثاره النامية معجزة أصيلة فى تاريخ العلوم كله ... فقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع وما يحقق بعض خواص العلوم الطبيعية[٣] .

رابعاً : يقول المستشرق الفرنسى موريس بوكاى : « لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التى يختص بها القرآن ... والتى جاءت مطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة .. وذلك فى نص كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ... كان هدفى الأول هو قراءة القرآن ودراسة نصه جملة بجملة مستعيناً بمختلف التعليقات اللازمة للدراسة النقدية . وانتبهت بشكل خاص إلى الوصف الذى يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية ... أذهلتنى مطابقتها للمفاهيم التى نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات، التى لم يكن ممكنا لأى إنسان فى عصر محمد «ﷺ» أن يكوّن عنها أدنى فكرة ... وعلى حين نجد فى التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف فى القرآن خطأ . وقد دفعنى ذلك إلى تساؤل :

لو كان مؤلف القرآن إنساناً ، كيف استطاع فى القرن السابع من العصر المسيحى

١ ـ سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ص١٨ ، ٢٣ ، ٦١ ، دار المعارف سنة ١٩٦٦ .
٢ ـ د. عبدالحليم محمود : التفكير الفلسفى فى الإسلام ، جـ١ ص٥٧ الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٨ .
٣ ـ مصطفى الرافعى : إعجاز القرآن ص١٠٨ .

أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة ..؟ ليس هناك أى مجال للشك ، فنص القرآن الذى نملك اليوم هو فعلاً نفس النص الأول .. ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية فى هذا العصر ، استطاع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالى عشرة قرون ثقافاتنا العلمية .

« .... فيما يتعلق بالأمور التى يمكن أن تخضع للملاحظة مثل تطور الجنين البشرى يمكن تماماً مقابلة مختلف المراحل الموصوفة فى القرآن مع معطيات علم الأجنة الحديثة لنكشف اتفاق الآيات القرآنية التام مع العلم»[1] .

تعقيب :

رأينا خلال هذا الفصل أن القرآن الكريم معجزة نبينا الخالدة تعرض للطعن والتشكيك مما جعل علماء المسلمين يهبون منافحين عنه ومن ثم تعرضوا لقضية الإعجاز بحثاً علمياً . ودار البحث حول وجوه إعجاز القرآن آثرت اثنين منها بالتفصيل :

« الإعجاز البلاغى ، والإعجاز بالأخبار بالغيوب »

أما وقد عجز العرب عن معارضة القرآن فقد قامت الحجة عليهم ، وإذا كان قد أعجز العرب أصحاب اللسان فهو لغيرهم أعجز .

والحقيقة أن الإعجاز هو هذه النواحى جميعاً فهو فى اللفظ العجيب والتركيب البلاغى البديع وهو فى اخباره عن الغيوب وأنباء الأمم السابقة ... فلا نستطيع أن نقول بحصر الإعجاز فى جانب واحد لأن القرآن معجزة النبى الخاتم إلى الناس كافة فى كل مكان و زمان لذا كان لابد أن يتضمن هذه الوجوه المتعددة أو كما يقول الإمام ابن تيمية : كل ما ذكره الناس من الوجوه فى إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه ولا يناقض ذلك بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له .

وحسبى ما وصفه به الحق تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : ٨٢] أى هو شفاء للمؤمنين يزدادون به إيماناً ويستصلحون به دينهم، فموقعه منهم موقع الشفاء من المرضى .

نعود بعد ذلك إلى بيان كيف أن هذا القرآن المعجز، معجزة لمحمد « ﷺ » .

مر بنا أن من شروط تصديق المدعى ــ عند جمهور العلماء ــ اقتران دعواه بالأمر

١ ــ موريس بوكاى : دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ص١٤٤ ــ ١٤٨ دار المعارف لبنان ١٩٧٧

الخارق للعادة يجريه الله تعالى على يديه وهنا نبين اكتمال هذا الشرط وتحققه فى دعوة نبينا «ﷺ» ونذلل عليه بوجوه :

أحدها : أن محمداً «ﷺ» ظهر القرآن عليه ، و القرآن ـ معجزته الكبرى ـ كما اتضح لنا من قبل ـ كتاب شريف بالغ فى فصاحة اللفظ وفى كثرة العلوم... علوم الأخلاق وعلوم السياسات وعلم تصفية الباطن وعلم أحوال القرون الماضية .

ثانيها : أن محمداً «ﷺ» تحدى العالمين بمعارضة القرآن وقرعهم بالعجز عن الإتيان بمثله فلم يأتوا به لا لوجه سوى عجزهم وقصورهم عن الإتيان بمثله فضلاً عن أن القرآن الذى أوحى إليه موجود محفوظ ينطوى على وجوه من الإعجاز لا تنحصر، أبداً عن جوانب منها .

وإذا كان « سبيل تعريف الله تعالى عباده صدق الرسل بالآيات الخارقة للعادة كسبيل تعريفه إياهم الصفات الإلهية بالآيات الدالة عليها ... (فكما) علم آدم الأسماء كلها ثم عرضها على الملائكة ، وكما علم المصطفى القرآن وقال فأتوا بسورة من مثله فكما عجزت الملائكة عن معارضة آدم بالأسماء عجزت العرب والعجم عن معارضة المصطفى بآيات القرآن . ودلت الآيات على صدق النبى الأول والنبى الآخر ولما ثبت صدق الأول كان مبشراً بمن بعده إلى الآخر ولما ثبت صدق الآخر كان هو مصدقاً لمن قبله إلى الأول[1] .

والذى يدل على صدق محمد أيضاً أن اليهود لا ينازعون « فى أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى ـ عليه السلام ـ وجعل هذا الكتاب إماماً يقتدى به، ثم أن التوراة مشتمل على البشارة ـ كما سنبين ذلك بعد ـ بمقدم محمد «ﷺ» لذلك نقول لهم : « ... فإذا سلمتم كون التوراة إماماً يقتدى به فاقبلوا حكمه فى كون محمداً «ﷺ» حقاً من الله »[2] .

أثبتنا فى غير هذا المكان أن المعجزات براهين من الله تعالى إلى عباده بصدق رسله وأنبيائه ، فإذا « ظهر على مدعى النبوة من فعل الله تعالى ما ينقض العادة عند دعوى المدعى رسالة وكان الذى ظهر مطابقاً لدعواه ... علم بذلك أنه تعالى قصد بذلك تصديقه فى دعواه وصار إظهاره لذلك مطابقاً لدعواه بمنزلة قوله : صدق؛ هو رسولى إليكم فلما ادعى محمد «ﷺ» النبوة وجاء بالقرآن خارقاً عادة العرب فى الفصاحة

---

١ ـ الشهرستانى : الملل والنحل جـ١ ص١٠٩ بهامش الفصل لابن حزم .

٢ ـ الرازى : التفسير الكبير جـ٢٨ ص١٢ .

والبلاغة متحدياً أن يأتوا بسورة من مثله وظهر عجزهم مع التقريع صباح مساء دل ذلك على أن الله تعالى خصه به ليدل به على نبوته كما دل على نبوة موسى لما تحدى به السحرة وعجزوا عن مثله وكما دلّ إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص على نبوة عيسى لما تحدى به الأطباء وجعل الله المعجزات لمحمد « ﷺ » ما يجانس الفصاحة التى هى من طبائعهم وطريقتهم لئلا يلتبس الحال فيه كما أجرى الأمر فى معجزة موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ على هذه الطريقة .

ولما لم يأت العرب بمثل القرآن علمنا أنهم إنما أعرضوا عن الإتيان به للعجز عنه كما أن سحرة فرعون فى زمان موسى عجزوا عن معارضته فبان به كونه محقاً فى دعواه، وكما أن عيسى فى أيامه أعجز الأطباء عن مثل ما أتى به »[١] . يقاس على ذلك ما كان فى عهد رسول الله « ﷺ » فقد بلغت البلاغة إلى الدرجة العليا وكان بها فخارهم حتى علقوا القصائد السبع بباب الكعبة تحدياً بمعارضتها كما تشهد به كتب السيرة فلما أتى النبى « ﷺ » بما عجز عن مثله جميع البلغاء علم أن ذلك من عند الله قطعاً »[٢] .

وقد قيل : إن الذى أورده محمد « ﷺ » على العرب من الكلام الذى أعجزهم عن الإتيان بمثله أعجب فى الآية وأوضح فى الدلالة من أحياء الموتى وإبراء الأكمه لأنه أتى أرباب أهل البلاغة وأرباب الفصاحة ... بكلام مفهوم المعنى عندهم وكان عجزهم عنه أعجب من عجز من شاهد المسيح ـ عليه السلام ـ عند إحياء الموتى ، لأنهم لم يكونوا يطمعون فيه ولا فى إبراء الأكمه والأبرص وقريش كانت تتعاطى الكلام الفصيح والبلاغة والخطابة فدل ذلك على أن العجز عنه إنما كان ليصير علماً على رسالته وصحة نبوته وهذه حجة قاطعة .

ولما ثبت أن « الطريق إلى معرفة نبوة الأنبياء ظهور المعجز عليهم ولما ظهر المعجز على يد محمد «ﷺ» وجب الاعتراف بنبوته والإيمان برسالته فإن تخصيص البعض بالقبول وتخصيص البعض بالرد يوجب المناقضة فى الدليل وأنه ممتنع عقلاً »[٣]

وفى هذا رد برهانى على اليهود : لأنه إذا كان الدليل الذى يدل على نبوة الأنبياء هو المعجزة لزم الجزم بأنه حيث حصل المعجزة حصلت النبوة، فإذا جوزنا فى بعض الحالات حصول المعجزة بدون الصدق فإنه يتعذر الاستدلال به على الصدق وحينئذ

١ ـ الإسفراييني : التبصير فى الدين ص١٠٦ .
٢ ـ رحمة الله الهندى : إظهار الحق جـ٢ ص٣٣
٣ ـ الرازى التفسير الكبير جـ٤ ص٨٢

يلزم تكذيب جميع الأنبياء .

لذلك نقول : إن من لم يقبل نبوة أحدهم يلزمه التكذيب جميعهم ، فكل من نصر بعثة رسول مخصوص بما يؤدى إلى بطلان بعثة كل الرسل فيجب فساد قوله .

نقول إن في ذلك رد برهانى على اليهود لأنهم زعموا أنه لا نبى بعد موسى ـ عليه السلام ـ ومن ثم أنكروا نبوة عيسى ومحمد « ﷺ » محتجين بوجوه :

أحدها : قولهم إن « النسخ محال فى نفسه لأنه يدل على البدء والتغيير وذلك محال على الله »[1] .

الثانى : زعمهم أن موسى قال لهم « عليكم بدينى مادامت السموات والأرض . وأنه قال : إنى خاتم الأنبياء » .

الثالث : إن محمداً لم تظهر على يده معجزة فلذلك هو ليس نبياً .

وهذا ما غرهم به ابن الراوندى الملحد، فهو الذى لقنهم « الاحتجاج على عدم جواز النسخ... بأن قال لهم : قولوا إن موسى ـ عليه السلام ـ أمرنا أن نتمسك بالسبت ما دامت السموات والأرض ولا يجوز أن يؤمر الأنبياء إلا بما هو حق »[2] . وقول ابن الراوندى ولا يجوز أن يؤمر الأنبياء إلا بما هو حق » قولة حق يراد بها باطل.

أما افتراء اليهود على موسى ـ عليه السلام ـ فإنه لو ثبت هذا القول ـ وحاشاه ـ.. لكان مبطلاً لنبوة نفسه ... (فيلزمه) إذا كانت الآيات لا توجب تصديق غيره إذا أتى بها فى شىء دعا إليه .

فهى غير موجبة تصديق موسى فيما أتى به ، إذ لافرق بين معجزاته ومعجزات غيره . إذ بالآيات صحت الشرائع ولم تصح الآيات بالشرائع لأن تصديق الشريعة موجبة للآية . والآيات موجبة تصديق الشريعة »[3] .

فإن أنكروا شيئاً من معجزات عيسى ومحمد « ﷺ » لزمهم فى شرع موسى لزوماً لا يجدون عنه محيصاً وإذا اعترفوا به لزمهم تكذيب من نقل إليهم من موسى ـ عليه السلام ـ قوله إنى خاتم الأنبياء »[4] . فلولم تثبت نبوة نبينا «ﷺ» لم يثبت شىء

١ ـ الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص١٠٤ .
٢ ـ باول كراوس وترجمة د. عبدالرحمن بدوى : من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص٧٨ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٥م .
٣ ـ ابن حزم : الفصل جـ١ ص٨٨ .
٤ ـ الغزالى : السابق ص١٠٤ .

من معجزات موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ لأن مجيء محمد « ﷺ » تصديق لهما من جهتين :

الأولى : « من جهة إخبارهم بمجيئه ومبعثه »[١] وسنأتى على تفصيل هذا فى غير هذا الموضع .

الثانية : « من جهة إخباره بمثل ما أخبروا به ومطابقته ما جاء به لما جاءوا به » .

فإن الرسول الأول إذا أتى بأمر لا يعلم إلا بوحى ثم جاء نبى آخر لم يقارنه فى الزمان ولا فى المكان ولا تلقى عنه ما جاء به وأخبر به سواء . دل ذلك على صدق الرسولين الأول والآخر » .

ولا يشترط فى إخبار النبى المقدم عن النبى المتأخر « أن يخبرنا بالتفصيل التام بأنه يخرج من القبيلة الفلانية فى السنة الفلانية فى البلد الفلانى ... وقد يبقى خفياً لا يعرفون مصداقه إلابعد دعاء النبى اللاحق أن النبى المقدم أخبر عنى وظهور صدق ادعائه بالمعجزات وعلامات النبوة» .[٢]

أما نفيهم النسخ وإنكارهم نبوة محمد « ﷺ » لهذا السبب فلا حجة لهم فيه بعد أن أوضحنا جوازه ، فقد كان « يوشع نبياً فى زمن موسى وبقى بعده وقد نسخ شريعته بشريعة موسى »[٣] .

كذلك فإن قول العيسوية ـ من اليهود ـ أنه « ﷺ » رسول إلى العرب خاصة فظاهر البطلان لأنهم لما صدقوا بالرسالة لزمهم تصديقه فى كل ما يخبر به، فمتى «ثبت أنه نبى، فالنبى لا يكذب وقد قال:(بعثت إلى الناس كافة) وقد كتب إلى قيصر وكسرى وسائر ملوك العجم »[٤] وهذا معلوم متواتر «كما علم وجوده ودعواه ورسالته » ولما ثبت أنه «ﷺ» ادعى « أنه مبعوث إلى الكافة ثم صدقه الله تعالى بالإعلام المعجزة فإنه لابد من أن يكون مبعوثاً إلى الأحمر والأسود »[٥] .

وطبيعى أن من صدق به نبياً إلى العرب يلزمه التصديق به نبياً إلى الناس كافة مادام الأمران ثابتين بالروايات التى يحتج بها ، فضلاً عن أنه «ﷺ» لم يعدم المعجزة الدالة على صدقه فلا حجة إذن لمن أنكر نبوته من العنانية من اليهود أو من حدها بالعرب .

١ ـ ابن القيم : إغاثة اللهفان جـ٢ ص٣٥١ . ٢ـ رحمة الله الهندى . إظهار الحق جـ٢ س١٣٤
٣ ـ ابن القيم : إغاثة اللهفان جـ٢ ص٣٥١ وأيضاً : النبوة فى الإسلام للمؤلف .
٤ـ ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص٧١ ادار الطباعة المنيرة
٥ ـ القاضى عبدالجبار : شرح الأصول الخمسة ٥٨٣ .

○ ثانياً : معجزات الحوادث :ـ

لما كانت لرسل الله تعالى السابقين على محمد مؤيدات لدعوتهم كان لمحمد «ﷺ» تلك المؤيدات بل تزيد .

وهذه نماذج من هذه الواقعات المؤيدات التى لا تفسر إلا بالقدرة الألهية المؤيدة لرسوله « ﷺ » مع ملاحظة ـ كما قلنا ـ أن المعجزة الأساسية لمحمد «ﷺ» والتى بها قامت الحجة على خلق الله فى كل العصور هى القرآن الكريم الذى رأينا بعض ما فيه مما يشهد أنه كتاب الله .

ومع ملاحظة ـ ثانياً أننى لم أرد الاستقصاء وإنما أردت ضرب الأمثلةفقط وإلا فمعجزات الرسول «ﷺ» كثيرة جداً .

ونعنى بمعجزات الحوادث ما نقل عن رسول الله « ﷺ »من خوارق العادات ما بلغ حد التواتر وإن كانت تفاصيلها آحاداً كانشقاق القمر وانطاق العجماء ونبع الماء من خلل الأصابع وتسبيح الحصا وتكثير الطعام القليل .

١ ـ انشقاق القمر :ـ

وله تعالى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② ﴾ [القمر : ١، ٢] .

ولما رواه البخارى عن ابن مسعود أنه قال : « انشق القمر ونحن مع النبى «ﷺ» بمنى، فقال : اشهدوا » ولأبى ذر فقال النبى « اشهدوا أى اضبطوا ذلك بالمشاهدة وذهبت فرقة من القمر نحو الجبل المعروف بحراء وبقيت الأخرى مكانه حتى صار حراء بينهما » .

وما أخرجه الشيخان عن أنس « أن أهل مكة سألوا رسول الله « ﷺ » أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما »[1]

وماروى عن جبير بن مطعم قال : « انشق القمر على عهد رسول الله «ﷺ» فصار فرقتين فقالت قريش : سحر محمد أعيننا ، فقال بعضهم لئن كان سحرنا فما يستطيع أن يسحر الناس كلهم فكانوا يطلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم قد رأوه فيكذبونهم »[2] .

وروى أن النبى «ﷺ» كان يمر «بمكة فى ليلة قمراء فاجتاز بنفر من

١ـ العلامة القسطلانى : إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى، جـ٦ ص١٩٥

٢ـ أخرجه الترمذى .

المشركين فقالوا له : يا محمد إن كنت رسول الله كما تزعم فاسأل ربك أن يشقق هذا القمر فسأل الله ذلك فشقه » فقالوا سحر القمر حتى انشق » وسرى سحره من الأرض إلى السماء فنزل قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾[1] .

وقد صرح القرآن بانشقاق القمر على صيغة الماضى وسماه آية من الآيات التى أعرضوا عنها وقالوا سحر مستمر .

وقيل فى معنى انشقاق القمر « أى وضح الأمر وظهر . قيل : هو انشقاق الظلمة عنه بطلوعه فى أثنائها كما يسمى الصبح فلقاً لانفلاق الظلمة عنه ... وقد يعبر عن انفلاقه بانشقاقه » .

وقيل أيضاً فى معنى الآية : ينشق القمر يوم القيامة.

ولكن هذا القول مدفوع بوجوه خمسة :ـ

الأول : أن قول الله تعالى : ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾وكفى به رداً قراءة حذيفة : قد انشق القمر أى اقتربت الساعة . وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر انشق »[2] . كما تقول : أقبل الأمير وقد جاء البشير بقدومه. وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت وأن القمر قد انشق على عهد نبيكم »[3].

وفى هذا دلالة على أنها آية مرئية وحجة ثابته .

الثانى : أن الله تعالى، قال : « على نسق الكلام ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغني النذر ﴾ . وهذا الإخبار من الله تعالى لايقال فيما لم يقع ولم يكن »[4] لأنه أخبر « باعراضهم عن آياته والإعراض الحقيقى عنها لا يتصور قبل وقوعها »[5]فلولم ينشق القمر على عهد النبى ولم يشاهده كفار مكة لكذبوه وصار تكذيبهم له حادثة هامة تتناقلها الألسنة والأقلام .

الثالث : أن ما يقع يوم القيامة وعند قيام الساعة لا يكون حجة على المكلفين ولايعنفون فى ترك النظر »[6] .

كما أنهم لا يقولون فى الآيات يوم القيامة إنها سحر لأنهم حينئذ يعرفون الأحوال

---

١ القاضى عبدالجبار : تثبيت دلائل النبوة جـ١ ص٥٥ .
٢ـ القرطبى : الجامع لأحكام القرآن « مصدر سابق» . ٣ـ الزمخشرى : الكشاف جـ٢ .
٤ ـ القاضى عبدالجبار : المصدر السابق ص٥٦ .
٥ ـ رحمة الله الهندى : إظهار الحق جـ٢ ص٤٧١ . ٦ ـ القاضى عبدالجبار : المصدر السابق .

ضرورة .

الرابع : أن الانشقاق قد وقع على عهد النبى كعلامة من أشراط الساعة لما ثبت « فى الصحيح عن ابن مسعود أنه قال (خمس مضين : الروم والدخان واللزام والبطشة والقمر)» .ويعقب ابن كثير على قول ابن مسعود بأن هذا «أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع فى زمان النبى وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات»[1] وإليه ذهب الخازن حيث قال : « ... وانشقاق القمر من آيات رسول الله « ﷺ » الظاهرة ومعجزاته الباهرة »[2] .

الخامس : أن الآية « على التقديم والتأخير وتقديره ﴿ انشق القمر واقتربت الساعة ﴾ فالفعلين إذا كانا متقاربين فلك أن تقدم وتؤخر »[3] .

انشقاق القمر إذن من أشراط الساعة وليس يقع يوم الساعة ـ كما فى ـ قوله تعالى : ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها﴾[4] فقوله ﴿فقد جاء أشراطها﴾ يدل على أن أشراطها قد تحققت لأن لفظة ـ قد ـ إذا دخلت على الماضى تكون نصاً على وجود الفعل فى الزمان الماضى القريب من الحال»[5] . ولأن الله تعالى « ذكر بلفظ الماضى ﴿وانشق القمر﴾ وحمل الماضى على المستقبل بعيد»[6] .

وفى التفسير الكبير للرازى : « أشراط العلامات. قال المفسرون هى مثل انشقاق القمر ورسالة محمد « ﷺ »[7] . وكذلك عند البيضاوى وفى الجلالين .

ولولم يكن هذا ظاهراً بينهم لأنكروا ذلك وكذبوا قوله ولقالوا: لم ينشق القمر ولم يكونوا بحاجة إلى القول: إنه سحر مستمر فوضح بذلك أن انشقاق القمر من آيات رسول الله « ﷺ » ومن معجزاته النيرة .

أما اليهود والنصارى فقد أنكروا هذه المعجزة ـ فضلاً عن إنكارهم معجزات نبينا كلها ـ وساقوا لذلك حجتين:

الأول: قولهم أنه «لو كان هذا لم يخف على أهل الأرض إذ هو شىء ظاهر لجميعهم إذ لم ينقل لنا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق»[8] .

---

١ ـ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ٤ .
٢ ـ تفسير الخازن جـ٤ ص٢٢٦
٣ ـ القرطبى : المصدر السابق .
٤ ـ محمد : من الآية ١٨
٥ ـ رحمة الله الهندى : إظهار الحق جـ٢ ص٤٧٨
٦ ـ تفسير الخازن جـ٤ ص٢٢٦ .
٧ ـ الرازى : التفسير الكبير .
٨ ـ القاضى عياض الشفا جـ١ ص٢٨٣

الثانية : أن « الأجرام العلوية لا يأتي فيها الخرق والالتئام »[١] وفى مجال دفع هذه المزاعم ذهب الإمام القرطبى إلى أنه « قد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة وهو ظاهر التنزيل » .

ويستدل على ذلك بوجوه :

الأول : لأنها « كانت ـ معجزة ـ ليلية لايلزم أن يستوى الناس فيها »[٢] وقل من « يترصد السماء ولعله كان فى قدر اللحظة التى هى مدرك البصر»[٣] أى أنها لم تمتد زماناً طويلاً .

الثاني : أنها من آيات التحدى فقد كانت باستدعاء النبى « ﷺ » من الله تعالى عند التحدى . فروى أن حمزة بن عبدالمطلب حين أسلم غضباً من سب أبى جهل الرسول« ﷺ» طلب أن يريه آية يزداد بها يقيناً فأراهم انشقاق القمر » .

الثالث : أن القمر لاختلاف مطالعه « ليس فى واحد لجميع أهل الأرض فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين ... أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال ولهذا نجد الكسوفات فى بعض البلاد دون بعض وفى بعضها جزئية وفى بعضها كلية وفى بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلمها[٤].

الرابع : ما جاء فى الإصحاح العاشر من سفر يوشع على وفق الترجمة العربية سنة ١٨٤٤م .. هكذا : « حينئذ تكلم يوشع أمام الرب فى اليوم الذى وقع الأمورى فى يدى بنى إسرائيل . وقال إمامهم : أيتها الشمس مقابل جبعون لا تتحركى والقمر مقابل قاع ايلون فوقفت الشمس والقمر حتى انتقم الشعب من أعدائه .. فوقفت الشمس فى كبد السماء ولم تكن تعجل إلى الغروب يوماً تاماً »[٥]

وهذه الرواية باطلة لأن «قول يشوع (أيتها الشمس لاتتحركى) وقوله (فوقفت الشمس) يدل على أن الشمس متحركة والأرض ساكنة وإلا كان عليه أن يقول (أيتها الأرض لا تتحركى فوقفت الأرض) وهذا الأمر باطل بحكم علم الهيئة الجديدة الذى يعتمد عليه حكماء أوربا كلهم الآن ويعتقدون ببطلان القديم. لعل يشوع ما كان يعلم هذه الحال. أو هذه القصة كاذبة»[٦] .

---

١ ـ رحمة الله الهندى : إظهار الحق جـ٢ ص١٠٨ .
٢ ـ القرطبى: الجامع لأحكام القرآن جـ١٧ ص١٢٥ . ٣ ـ القسطلانى : إرشاد السارى جـ٦ ص١٩٦ .
٤ ـ القاضى عياض : المصدر السابق جـ١ ص٢٨٣ . ٥ ـ يشوع : الأصحاح ١٠ : ١٢ ـ ١٣ .
٦ ـ رحمة الله الهندى : إظهار الحق .

الخامس : رجوع الشمس معجزة لأشعياء ، فقد جاء فى الآية الثامنة من الإصحاح ٣٨ من يشوع :

« فرجعت الشمس عشر درجات فى المراقى التى كانت انحدرت »[١] وهذه الحادثة « عظيمة ولما كانت فى النهار فلابد أن تظهر لأكثر أهل العالم ، وكانت قبل ميلاد المسيح ـ كما يقولون ـ (ولكنها) ليست مكتوبة فى تواريخ الهند والصين والفرس . وأيضاً يفهم منها حركة الشمس . وهذا أيضاً باطل على حكم علم الهيئة الجديد»[٢] .

ومع ورود هذا فى كتبهم إلا أنهم يتبجحون وينكرون انشقاق القمر لمحمد «ﷺ» بحجة أن الأجرام العلوية لا يتأتى فيها الخرق والإلتئام .

٢ ـ نبع الماء من بين أصابع النبى :

وهذه المعجزة أعظم وأبلغ فى الأعجوبة من تفجر الماء من الحجر كما وقع لموسى « لأن نبوع الماء من بين اللحم والعظم أعجب وأعظم من خروجه من الحجر » لأن ذلك من عادة الحجر أمّا من اللحم فما « روى قط ولا سمع فى ماضى الدهر بماء نبع وانفجر من أحاد بنى آدم حتى صدر عنه « ﷺ »[٣] .

أخرج النجار عن جابر قال : « عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله «ﷺ» بين يديه ركوة فتوضأ منها ثم أقبل الناس نحوه فقال رسول الله ما لكم ؟ قالوا : يا رسول الله ليس عندنا ما نتوضأ به ولا نشرب إلا ما فى ركوتك . فوضع النبى يده فى الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه . أى من اللحم الكائن بين أصابعه[٤] .

وعن أنس بن مالك أنه قال : « رأيت رسول الله وحانت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه فأتى رسول الله « ﷺ » بوضوء فوضع رسول الله « ﷺ » فى ذلك الإناء يده وأمر الناس أن يتوضأوا منه قال : فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه «ﷺ»فتوضأ الناس حتى توضؤا عن عند آخرهم[٥] وأخرج البخارى عن ابن مسعود قال : إنكم تعدون الآيات عذاباً ولكنا نعدها بركة على عهد رسول الله « ﷺ »ونحن نسمع تسبيح الطعام . وأتى النبى بإناء فجعل ينبع الماء من بين أصابعه فقال النبى « ﷺ » : حى على الطهور المبارك و البركة من الله حتى توضأنا كلنا »[٦] .

ولاشك أن نبع الماء من أصابعه « ﷺ » أو تكثير الطعام بدعائه « ﷺ » معجزة

١ ـ يشوع : ٣٨ : ٨ .
٢ ـ إظهار الحق :ص٤٧٣ ـ ٤٧٤
٣ ـ الأصبهانى : دلائل النبوة جـ١ ص١٤٤ .
٤ ـ القسطلانى . إرشاد السادى ... جـ٦ ص٣٤٧
٥ ـ القاضى عياض : الشفا جـ١ ص٢٨٥
٦ـ القسطلانى : ارشا السارى مصادر سابق .

نقلها متواتر والذى « حصل للنبى أولاً الماء القليل أو الطعام القليل ثم كثرة ولم يخترع من بدء الأمر من العدم إلى الوجود الماء الكثير أو الطعام الكثير ... ليعلم أن الموجد هوالله .. وإن كان التكثير أيضاً فى الحقيقة من جانب الله كالإيجاد »(١) .

وهكذا فعل الأنبياء كما يظهر من معجزة اليشع فى تكثير « عشرين رغيفاً من شعير وسويق »(٢) حتى شبع مائة رجل وفضل عنهم ومن معجزة المسيح فى تكثير خمسة أرغفة وسمكتين : « فأكل الجميع وشبعوا ... والآكلون نحو خمسة آلاف(٣) .

٣ ـ تسبيح الحصى:

فعن أنس قال: «أخذ النبى «ﷺ» كفا من حصى فسبحن فى يد رسول الله «ﷺ» حتى سمعنا التسبيح »(٤) .

ومع أن « آحاد هذه المعجزات لا يثبت تواتراً لكن مجموعها يفيد العلم قطعاً لاختصاصه بخوارق العادات كما أن آحاد البذل من حاتم ـ الطائى ـ لا تثبت تواتراً ولكن مجموعها يفيد العلم على الضرورة بسخائه وكذلك القول فى جسارة أمير المؤمنين علىّ وشجاعته »(٥) .

وقوع هذه الأحداث إذن من نبينا « ﷺ »معلوم ضرورة كما يعلم ضرورة وجود حاتم الطائى وكرمه وشجاعة الإمام علىّ لاتفاق الأخبار عن كل واحد منهما على كرم هذا وشجاعة ذلك .

كما أن « فى استسقاء النبى وفى إخباره عن المقتولين فى غزوة مؤتة وفيما كان النبى وأهل مكة من المراجعة فى غلبة الروم على فارس علم ضرورى »(٦).

وإن قال اليهود إن الذى ظهر من عيسى ومحمد من قبيل السحر وعمل الشياطين « وعلى كل تقدير جميع ما يقولونه يلزمهم فى قلب العصا ثعباناً واليد بيضاء وفلق البحر ونتق الجبل وسائر معجزات رسلهم »(٧) .

١ ـ رحمة الله الهندى : المصدر السابق .
٢ ـ سفر الملوك الثانى ٤ : ٤٢ ـ ٤٣ .
٣ ـ متى ١٤ : ١٥ ـ ٢١
٤ ـ القاضى عياض · المصدر السابق جـ١ ص٣٠٦ .
٥ ـ الجوينى الإرشاد ... ص٣٥٣ ـ ٣٥٤ .
٦ ـ القاضى عبدالجبار : تثبيت دلائل النبوة جـ٢ ص٥١١ .
٧ ـ الأجوبة الفاخرة . . ص٩٩ ، ٢٠٨ مصدر سابق .

المبحث الثالث

○ الاستدلال بأحوال النبى قبل النبوة وبعدها :

إنه لابد لكل رسول لله أن يكون متصفاً بصفات أساسية حتى يكون أهلاً للرسالة من هذه الصفات الصدق والأمانة بحيث لو امتحن كل قول له لكان مطابقاً للواقع إذا وعد أو عاهد أو جد أو داعب أو أخبر أو تنبأ وإذا انتقضت هذه الصفة أى نقض فإن دعوى الرسالة تنتقض لأن الناس لا يثقون برسول كاذب .

والمكيون على خصومتهم لرسول الله ما كانوا يشكون فى أنه صادق لأنه لو أخبرهم أن خيلاً وراء الوادى ستغير عليهم لصدقوه لأنهم لم يعهدوا فيه كذباً ، لم يكذب قط فى مهمات الدين ولا فى مهمات الدنيا ، ولو كذب مرة لاجتهد أعداؤه فى تشهيره ولم يقدم على فعل قبيح لا قبل النبوة ولا بعدها .

كما أنه « ﷺ »تحمل المتاعب فى الرسالة لا طمعاً فى جاه بينما المتنبىء دعا من أجل طلب الدنيا .

وقد صبر على هذه المشاق والمتاعب « بلا فتور فى عزيمة ولما استولى على الأعداء وبلغ الرتبة الرفيعة فى نفاذ أمره فى الأموال والأنفس لم يتغير عما كان عليه، ينضم إلى ذلك « أخلاقه العظيمة وأحكامه الحكيمة واحترامه حيث يحجم الناس ولولا ثقته بعصمة الله إياه من الناس ... لا متنع ذلك عادة .

ورسول الله «ﷺ» وإن تلونت به الأحوال إلا أن حاله لم تتلون بل ظل على طريقة واحدة فلو تتبعنا علمنا « أن كل واحد منها وإن كان لايدل على نبوته لأن امتياز شخص بمزيد فضيلة عن سائر الأشخاص لايدل على كونه نبياً لكن مجموعها لا يحصل إلا للأنبياء قطعاً فاجتماع هذه الصفات فى ذاته من أعظم الدلائل على نبوته»[١] فضلاً عن أن أمر النبوة لم يشغله قبل البعثة ،«فلم تزل إمارات النبوة لائحة (فيه) حين تدرج إليها وهو غافل عنها وغير متصنع لها »[٢] .

وهذه شهادة خصم عنيد لرسول الله « ﷺ » وأعنى به أبا سفيان ـ قبل أن يمن الله عليه بالشهادتين .

أخرج الإمام البخارى عن ابن عباس حديث أبى سفيان مع هرقل عظيم الروم ومنه يمكن الوقوف على الكيفية التى استدل بها هرقل ـ النصرانى ـ على صدق محمد « ﷺ » .

---

١ ـ الأيجى : شرح المواقف جـ٢ ص٤٢٧

الماوردى إعلام النبوة ص٣٧ .

لما جاء « قيصر»كتاب رسول الله « ﷺ ». قال حين قرأه : التمسوا لى هاهنا أحداً من قومه لأسألهم ... عن نسبه ونعته وما يدعو إليه .

قال ابن عباس : فأخبرنى أبو سفيان بن حرب أنه كان بالشام فى رجال من قريش قدموا تجاراً فى المدة التى كانت بين رسول الله وبين كفار قريش ـ مدة صلح الحديبية .

قال أبو سفيان : فوجدنا رسول قيصر ببعض الشام . فانطلق بى وبأصحابى حتى قدمنا إيلياء فأدخلنا عليه ـ أى على هرقل ـ فإذا هو جالس فى مجلس ملكه ... فقال لترجمانه : سلهم أيهم أقرب نسباً إلى هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ .

قال أبوسفيان : فقلت . أنا أقربهم إليه نسباً .

فقال : أدنوه . وأمر بأصحابى فجعلوا خلف ظهرى عند كتفى ـ لئلا يستحيوا أن يواجهوه بالكذب إن كذب ـ ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه إنى سائل هذا الرجل ـ أبا سفيان ـ عن الرجل الذى يزعم أنه نبى فإن كذب فكذبوه .

قال أبو سفيان : والله لولا الحياء يومئذ من أمر يأثر أصحابى عنى الكذب لكذبته حين سألنى عنه . ولكنى استحييت أن يأثروا الكذب عنى فصدقته .

قال ـ هرقل ـ : كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو نسب عظيم .

قال : فهل قال هذا القول أحد منكم قبله ؟

قلت : لا . (قال) : فهل كان من أبائه من ملك ؟ . (قلت) : لا فقال : هل كنتم تتهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال ؟

قلت : لا .

قال : فأشراف الناس ـ أى أصحاب النخوة والتكبر منهم ـ يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : فيزيدون أو ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون .

قال : فهل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟

قلت : لا .

قال : فهل قاتلتموه وقاتلكم ؟

قلت: نعم

قال : فكيف كانت حربه وحربكم ؟

قلت : كانت دولاً وسجالاً .

قال : فماذا يأمركم ؟

قلت : يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ـ من عبادة الأصنام ـ ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

فقال لترجمانه: قل له إني سألتك عن نسبه فيكم فزعمت أنه ذو نسب ـ أى عظيم ـ وكذا الرسل تبعث فى أشرف نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول قبله فزعمت أن لا فقلت ـ أى هرقل ـ لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله قلت رجل يأتم ـ أى يقتدى ـ بقول قد قيل قبله وسألتك هل كان من آبائه من ملك فزعمت أن لا . فقلت لو كان من آبائه ملك . قلت يطلب ملك آبائه .

وسألتك : أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم . فزعمت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل .

وسألتك هل يزيدون أم ينقصون . فزعمت أنهم يزيدون وكذلك الإيمان متى يتم.

وسألتك : هل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فزعمت أن لا . فكذلك الإيمان حين تخلط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد .

وسألتك هل يغدر ؟ فزعمت أن لا . وكذلك الرسل لا يغدرون .

وسألتك : هل قاتلتموه وقاتلكم ؟ فزعمت أن قد فعل وأن حربكم وحربه تكون دولاً و يدال عليكم المرة وتدالون عليه الأخرى . وكذلك الرسل تبتلى وتكون لها العاقبة وسألتك : بماذا يأمركم ؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ويأمركم بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ... وهذه صفة النبى .

قد كنت أعلم أنه خارج ـ قال ذلك لما رأى من علامات نبوته المتمثلة فى سيرته ـ ولكن لم أظن أنه منكم . وإن يك ما قلت حقاً فيوشك أن يملك موضع قدمى هاتين ولو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت لقيه » .

وفي مرسل ابن إسحق أن هرقل قال : « ويحك والله إنى لأعلم أنه نبى مرسل ولكنى أخاف الروم على نفسى ولولا ذلك لاتبعته »[١] .

إن النبوة قائمة على الصدق والذين اتبعوه « ﷺ » اتبعوه لأنه صادق ، ولو رأوا وهم الذين يخالطونه ـ ليل نهار ـ ذرة شبهة لأنكروا وبينوا وهم من هم .

لقد كانت صورة الصدق والإخلاص سمة من السمات التى اتصف بها الرسول « ﷺ »قبل البعثة وبعد بعثته... أعلن الرسول «ﷺ »إلى قريش نبوته فقال لهم:(أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم تصدقونى ؟) لقد كانت إجابتهم : تعبر عن الحقيقة التى لمسوها . لقد قالوا : نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط وفى هذا يقول النضربن الحارث لقريش «لقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم ـ إنه ـ ساحر. لا والله ما هو بساحر »[٢] .
هذا ما ركز عليه هرقل فاستدل بمنطقه ورحب تفكيره على نبوة محمد « ﷺ » .

رابعاً : إخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته :

إن ظاهرة عامة كنبوة نبينا محمد «ﷺ»للعالمين جميعاً تحتاج إلى مقدمات ومبشرات توجد استعداداً عاماً عند الناس لها . والدارس للنصوص التاريخية التى تتحدث عن الفترة السابقة على بعثته وأثنائها يلاحظ أن الناس الذين لهم صلة بكتاب سماوى كان واضحاً فى أذهانهم أنه سيبعث نبى وكانوا يترقبون ظهوره وأن بعض علمائهم قد أعلن إسلامه بمجرد لقائه بهذا النبى الأمى كعبد الله بن سلام حبر اليهود وعالمهم .

من ذلك أيضاً قصة سلمان الفارسى كما تذكرها الروايات وتنقله من عالم إلى عالم فى النصرانية ... حتى دله آخرهم على الترقب لنبى كاد أن يبعث من أرض العرب . وذلك بسبب مجيئه إلى أرض العرب[٣] .

---

١ ـ القسطلانى : إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى جـ٥ ص١١٣ .
والعسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ١ ص٢٦ ـ ٢٧ .
٢ ـ البيهقى : دلائل النبوة ج١ ص٤٤٨ المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .
٣ ـ ابن كثير : السيرة جـ١ ص٢٩٦ ـ ٣٠٣ مطبعة الحلبى .

ومن ذلك القصة التى يرويها الإمام البخارى ـ والتى سقت جانباً منها ـ عن أبى سفيان عندما استدعاه هرقل فى بلاد الشام إذ يقول هرقل فى آخرها « وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أعلم أنه منكم »(١) .

ومن ذلك أيضاً قصة إسلام عبدالله بن سلام . قال ابن هشام فى سيرته : «قال ابن اسحق وكان من حديث عبدالله بن سلام كما حدثنى بعض أهله عنه عن إسلامه وكان حبراً عالماً قال : « لما سمعت برسول الله «ﷺ »عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوقف له فكنت مسراً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله إلى المدينة فلما نزل بقباء .... أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها وعمتى ... تحتى جالسة فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله «ﷺ» كبرت. فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيبك الله لو سمعت موسى بن عمران قادماً مازدت . قال : فقلت لها : أى عمة والله أخو موسى ابن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به . قال فقالت : أى ابن أخى أهوالنبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟ قال فقلت لها نعم . قال: فقالت : فذاك إذن ، قال : ثم خرجت إلى رسول الله «ﷺ» فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا »(٢) ومن ذلك أيضاً قصة النجاشى وموقفه من أصحاب الرسول « ﷺ »فى هجرتهم إليه وقوله بعد نقاش وعرض عندما أوفدت قريش وفداً لإخراجهم .

« ... أشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً »(٣) .

على كل حال الأخبار متواترة عمن أسلم ومن اقتنع ولم يسلم « وهذا يوجب القطع بأنه « ﷺ » مذكور فيها ـ فى التوراة ـ مما يدل على صدقه فى دعوى النبوة وليس فيها ما يخبر بكذبه والتحذير منه »(٤) على ما سنرى .

المبحث الرابع

○ بشارات العهدين : القديم والجديد :

قبل أن نتناول هذه البشارات يجب أن ننبه:

أن رسالة محمد « ﷺ »ليست فى حاجة إلى دليل يقام عليها من خارجها . بحيث إذا لم يوجد هذا الدليل ـ الخارجى ـ بطلت تلك الرسالة فهى رسالة دليلها

---

٢ ـ القسطلانى المصدر السابق

٣ ـ ابن هشام سيرة النبى تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد جـ٢ ص٣٦٠ ـ ٣٦١ مطبعة المدنى

٣ـ البيهقى : دلائل النبوة ج٢ ص٧٩ الطبعة الأولى المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

٤ ـ ابن تيمية :ـ الجواب الصحيح .. جـ٣ ص٢٩٧ .

فيها ووجود بشارات بها فى كتب متقدمة ـ زمناً عليها لا يضيف إليها جديداً ، وعدم تلك البشارات لا ينال منها شيئاً قط. فهى حقيقة قائمة بذاتها لها سلطانها الغنى عما سواه .

فلا يظنن أهل الكتابين ولا غيرهم أننا حين نتحدث عن بشارات الكتب السابقة برسول الإسلام إنما نتلمس أدلة نحن فى حاجة إليها لإثبات صدق محمد «ﷺ»فى دعواه الرسالة[1] .

إن الإخبارات الواقعة فى حق نبينا « وأماراته فى التوراة والإنجيل أكثر من أن تحصى . ولقد كان لموسى بيت صور ـ يعنى صور الأنبياء ـ يدخله فيطالع الصور كل سبت . فلو لم يظهر النبى معجزة قط كان ما مضى من الدلائل كافياً فلهذا اقتصرت معجزاته على إظهار الأمر للأميين من العرب دون أهل الكتاب ... فإنهم كانوا محجوجين بما ثبت عندهم من الأخبار عن الصادقين»[2] .

* * *

١ ـ د عبدالعظيم المطعنى : الإسلام فى مواجهة الاستشراق العالمى ص٥٩٠ دار الوفاء بمصر ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م

٢ ـ الشهرستانى نهاية الأقدام فى علم الكلام ص٤٤٣ .

بشارات العهد القديم :

أولاً ... فى التوراة التى بين أيديهم « جاء الله من سينا وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فران »[١] .

وسيناء هى الجبل الذى كلم الله فيه موسى أى هو « موضع مبعث موسى ـ عليه السلام ـ بلا شك ، وساعير هو موضع مبعث عيسى وفاران بلا شك هى مكة موضع مبعث محمد »[٢] .

وليس من شك أن فاران هى مكة ، فقد جاء فى التوراة : « أن إبراهيم أسكن هاجر واسماعيل فاران ـ يعنى مكة ـ »[٣] .

وهذا نصها :

« وكان الله مع الغلام ـ يعنى إسماعيل ـ فكبر وسكن فى البرية وكان ينمو رامى قوس وسكن فى برية فاران .. »[٤] .

«وجاء فى كتاب « تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب » لمؤلفه أبى محمد عبدالله الترجمان الميروفى (ت٨٣٢هـ) وكان مسيحياً وأسلم. وكان اسمه :«أنلم توميدا » : «وجبال فاران هى مكة وأرض الحجاز، فإن فاران اسم رجل من ملوك العمالقة الذين اقتسموا الأرض فكان الحجاز وتخومه لفاران فسمّى القطر كله باسمه»[٥] .

ثبت بالتوراة ـ إذن ـ أن جبل فاران مسكن لآل إسماعيل .

ومن المعلوم ضرورة أنه « لم يبعث أحد من الأنبياء ابتعاثاً ظاهراً ، فشا أمره فى مشارق الأرض ومغاربها كما أقتضى قوله : (استعلن) لأن (استعلن) بمعنى (علن) إذا ظهر وانكشف ولم يستعلن غير محمد فلم يبق ريب فى أنه هو المراد بهذه اللفظة »[٦] .

والله تعالى ذكر هذا على الترتيب الزمانى « فذكر إنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن ... وقال فى الأول: جاء أو ظهر وفى الثانى أشرق وفى الثالث استعلن وكان

---

١ ـ سفر التثنية ٣٣ : ١ـ٣ (فى بعض الطبعات . وتلألأ من جبل فاران)
٢ ـ ابن حزم : الفصل ـ جـ١ ص٩٠ .   ٣ ـ أبى الحسن الزيدى : إثبات نبوة النبى ص١٥٨ مصدر سابق
٤ ـ سفر التكوين ٢١ : ٢٠ ـ ٢١ .
٥ ـ تحفة الأريب ... ص٢٦٥ تحقيق الأستاذ عمرو وفيق الداعوق دار البشائر الإسلامية بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م . وانظر الأجوبة الفاخرة للقرافى ص٢٣٨ عام ١٤٠٧هـ
٦ ـ أبى الحسن أحمد الزيدى . المصدر السابق

مجيء التوراة مثل طلوع الفجر ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس إزداد به النور والهدى .

وأما نزول القرآن فهو بمنزلة ظهور الشمس فى السماء . ولهذا قال: استعلن كما يظهر نور الشمس إذا استعلنت فى مشارق الأرض ومغاربها[١] وإذا كانت التوراة « قد أشارت فى الآية التى تقدم ذكرها إلى نبوة تنزل على جبل فاران، لزم أن تكون النبوة على آل إسماعيل لأنهم سكان فاران »[٢] . ومع أن ابن كمونة ـ اليهودى ـ ينكر أن تكون فاران هى مكة إلا أنه ذكر أن بعض الناس ـ يصدق بعض الناس ولا يصدق التوراة ـ وجدوا هذا الاسم بالخط الكوفى فى كتاب منازل مكة[٣] .

فضلاً عن أن اعتراف اليهود بأن الوحى هو المراد فى طور سيناء . فلابد أن يكون الأمر كذلك فى ساعير وفاران . ويكون فى ذلك إشارة لأماكن الرسالات الثلاث وإلا فأين الموضع الذى استعلن الله منه ، واسمه فاران ؟

وأين النبى الذى أنزل عليه كتاب بعد المسيح ؟

وأى نبوة خرجت فاستعلت استعلاء ضياء الشمس، وتلألأت وظهرت فوق ظهور النبوتين السابقتين؟ وأى دين ظهر وانتشر فى مشارق الأرض ومغاربها غير الإسلام؟[٤] . وقد جاء فى سفر التكوين أيضاً « وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً اثنى عشر رئيساً يلد واجعله أمة كبيرة »[٥] ومحمد «ﷺ» من « أبناء إسماعيل الموعود بالبركة والإثمار فى أبنائه »[٦] .

ثانياً : جاء فى التوراة إنذار بين « برسول الله من قوله تعالى فيها (سأقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك واجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به)[٧] . وفى هذا الكلام أدلة على نبوة نبينا «ﷺ» منها :ـ

الأول ـ قوله نبياً من اخوتهم يدل «على أن الموعود به لا يكون من بنى إسرائيل » لأن موسى وقومه من بنى إسحق « واخوتهم بنو إسماعيل كما تدل عليه الآية ١٨ من الإصحاح ٢٥ تكوين (وسكنوا أى أبناء إسماعيل ـ من حويله إلى آشور التى أمام مصر حينما تجرد نحو آشور أمام جميع إخوته نزل وحويله هى بلاد خولان على

---

١ ـ ابن تيمية السابق ص٣٠١ ، ٣٠٢

٢ ـ الحكيم المستموءل بذل المجهود فى افحام اليهود ص٦٩ تحقيق الأستاذ عبدالوهاب الطويلة الدار الشامية بيروت

٣ ـ ابن كمونة تنقيح الأبحاث ص٩٤

٤ ـ ابن تيمية الجواب الصحيح ج٣ ص٣٠١

٥ـ تكوين ١٦ ٢٠

٦ ـ عبدالوهاب النجار قصص الأنبياء ص٣٥٠ ـ ٣٥١

٧ ـ تثنية ١٨ ١٨

تخوم اليمن مما يلى الحجاز ولا مقابل لأبناء إسماعيل فى جهة آشور سوى بنى إسرائيل »[١] .

ولو كان هذا النبى المبشر به من بنى إسحق لكان من أنفسهم لا من إخوتهم.

جاء فى سفر التكوين فى بشارة هاجر بإسماعيل .

« وأمام جميع إخوته يسكن [٢] وأيضاً أمام جميع إخوته نزل »[٣] أى فى وسطهم .

وإخوة إسماعيل هم أولاد إبراهيم ـ عليهما السلام ـ وإخوة بنى إسرائيل هم بنو إسماعيل ـ أى العرب ـ وبنو العيسى ـ أى الروم .

فأما بنو العيسى فلم يقم فيهم نبى سوى أيوب، وكانت بعثته قبل أن يخلق موسى، فلا يجوز أن يكون هو الذى بشرت التوراة به . فلم يبق إلا العرب بنو إسماعيل فتعين أن يكون المبشر به منهم. فلم يخرج من ولد إسماعيل نبى سوى محمد «ﷺ» فيكون هو المبشر به وهو المنتظر[٤] .

الثانى : قوله نبياً مثلك وقد جاء فى التوراة : « ولم يقم بعد ذلك فى بنى إسرائيل مثل موسى عرفه الرب وجهاً لوجه »[٥] فبنى إسرائيل لم «يبعث فيهم نبى مثل موسى له شريعة ظاهرة قبل المسيح . ولا يصح أن يقال: أن المراد به هو المسيح لأن القائل به إما أن يكون يهودياً منكراً لنبوته أو نصرانياً » والنصارى يدعون أنه إله وإنسان فلا يكون مثل موسى فلم يبق «إلا أن يكون المراد به نبينا محمد «ﷺ» على أن عيسى ـ عليه السلام ـ لم يكن مثل موسى لأن شريعته مبنية على شريعة موسى وشريعة نبينا مثل شريعة موسى »[٦] بل إنه أجل لعموم دعوته «ﷺ»ولا يمكن أن يقال إن المعنى بهذه البشارة يوشع بن نون «لأن يوشع كان حاضراً معهم عند موسى مقيماً بخدمته . ففى الإصحاح الأول من التثنية (فليكن يوشع بن نون خادمك)[٧] .

فضلاً عن أن يوشع من بنى إسرائيل لا من إخوتهم كما أنه لم يأت بشريعة مثل موسى بل هو متبع لموسى .

الثالث : قوله (واجعل كلامى فى فمه) ظاهر أن المعني به محمد «ﷺ»لأن معناه

---

١ ـ عبدالوهاب النجار : قصص الأنبياء ص٣٥١ .
٢ ـ تكوين ١٦ ١٢
٣ ـ تكوين ٢٥ : ١٨ .
٤ ـ الحكيم السموءل : السابق من تعليقات المحقق ص٨١ .
٥ ـ تثنية : ـ . ٣٤ : ١٠ .
٦ ـ أبى الحسن الزيدى : إثبات نبوة النبى ص١٦٣ .
٧ ـ رحمة الله الهندى : إظهار الحق جـ٢ ص٩٠ ، ٩١ .

أنه « يكون أمياً لا يقرأ ولا يكتب »فيوحى الله إليه بكلامه فينطق به على النحو الذى يسمعه «ولم يدع أحد من أبناء (إسماعيل) ذلك سوى محمد ولم يقم نبى أمى سواه منذ خلق الله الدنيا إلى اليوم »[1] فلم « تكن هذه الصفة لغير محمد »[2]

هذه الأوصاف إذن لا تنطبق إلا على النبى محمد الذى هو من نسل إسماعيل أخو إسحق وبذا كان بحق نبياً من وسط إخوة بنى إسرائيل وهو ما لا ينطبق على المسيح .

فإذا أصر مسيحيو اليوم على إسناد كل نبوءات العهد القديم إلى المسيح وأنه هو المعنى بهذه النبوءة وافقناهم بشرط الإقرار بأن عيسى مثل موسى ، وموسى عبدالله ورسوله وعليه يكون المسيح عبدالله ورسول له وليس إلهاً أو ابن إله . فإن آمنوا بذلك فقد اهتدوا وكانت علة هدايتهم هى نبوة محمد « ﷺ ».

٢ ـ بشارات العهد الجديد :ـ

رأينا كيف أن الله تعالى وعد بنى إسرائيل على لسان موسى أن يرسل من بين إخوتهم نبياً مثل موسى يجعل كلامه فى فمه ويخبرهم بكل ما يوحى إليه .

كذلك من المعلوم أن اليهود كانوا ينتظرون ظهور ثلاثة أنبياء لذلك لما ظهر يوحنا ذهب إليه أحبارهم يسألونه: «من أنت؟فاعترف ولم ينكر وأقر : إنى لست أنا المسيح .

فسألوه : إذاً ماذا ؟ إيليا أنت ؟

فقال : لست أنا .

النبى أنت ؟ فأجاب : لا .

فقالوا له : من أنت لنعطى جواباً للذين أرسلونا .

ماذا تقول عن نفسك ؟

قال : أنا صوت صارخ فى البرية . قوموا طريق الرب كما قال أشعياء النبى» .

فسألوه وقالوا له: فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبى؟

أجابهم يوحنا قائلاً : أنا أعمد بماء ولكن فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه . الذى لست بمستحق أن أحل سيور حذائه »[3] ومن هذا النص نستطيع أن نستنتج أمرين :ـ

الأول :أن الذين كان ينتظرهم اليهود هم : إيلياء والمسيح والنبى .

١ ـ النجار . المصدر السابق ص٢٥١ .

٢ ـ ابن حزم : المصدر السابق .

٣ـ يوحنا ١ : ١٩ ـ ٢٧ .

الثاني:أن آخر الثلاثة ظهوراً هو النبى فهو آخر من سأل عنه اليهود وندلل أيضاً على أنهم كانوا ينتظرون ظهور النبى أنهم عندما ظهر« ﷺ» خلطوا بينه وبين النبى المنتظر ففي «اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً: إن عطش أحد فليقبل إلي ويشرب...فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا : هذا بالحقيقة هو النبى وآخرون قالوا: هذا هو المسيح..فحدث انشقاق فى الجمع لسببه »[١] .

وحتى بعد ميلاد المسيح كان اليهود ينتظرون ظهور إيليا أو من يتقدم بروحه. ومن المعلوم أنه لم يظهر نبى بعد المسيح إلا النبى محمد . فمتى ـ إذن ـ ظهر إيليا ؟ .

لقد ظهر إيليا قبل المسيح . فما إيليا إلا يوحنا المعمدان . فلقد بشر الملاك زكريا بيحى (يوحنا) وأنه يتقدم بروح إيليا .«وخمراً ومسكراً لا يشرب ومن بطن أمه يمتلئ بالروح القدس ويرد كثيرين من بنى إسرائيل للرب إلاههم ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته»[٢] .

ثم «ابتدأ يسوع يقول للجموع عن يوحنا ماذا أخرجكم لتنظروا ؟ أنبياً ؟ نعم أقول لكم وأفضل من نبى.. الحق أقول لكم : لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان.. إن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتى »[٣] ثم هو فى موضع آخر من إنجيل متى يقول « ... ولكنى أقول لكم أن إيليا قد جاء ـ قبله طبعاً ـ ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا... حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان... »[٤] .

هذا تقرير من المسيح وشهادة منه بأن إيليا قد جاء فى شخص يوحنا المعمدان.

إيليا إذن قد جاء والمسيح ها هو بين ظهرانيهم يخبرهم هذه الإخبارات فلم يبق ـ بعد إيليا والمسيح ـ إلا أن يأتى النبى المبشر به والذى كان اليهود ينتظرونه.

يقول يوحنا فى إنجيله عن المسيح أنه قال لتلاميذه : « إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى . وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم معزياً[٥] ـ فارقليط ـ آخر ليمكث معكم إلى الأبد روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه »[٦] .

« ومتى جاء المعزى الذى سأرسله إليكم من الأب روح الحق الذى من عند الآب فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معى من الابتداء »[٧] .

١ ـ يوحنا ٧ : ٣٧ ـ ٤٣ . ٢ـ لوقا ١ : ١٥ ٣ ـ متى ١١ : ٧ ـ ١٤
٤ـ متى ١٧ ـ ١٠ ـ ١٣ .
٥ ـ فى التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ طبعة لندن وردت لفظة (فارقليط) بدلاً من لفظة (معزياً) .
٦ ـ يوحنا ١٤ : ١٥ ـ ١٧ . ٧ ـ يوحنا ١٥ : ٢٦ ـ ٢٧ .

« عندما سيأتى روح الحقيقة فسيجعلكم ترقون إلى الحقيقة بكاملها لأنه لن يتكلم بإرادته وإنما سيقول ما يسمع وسيعرفكم بكل ما سيأتى وسيجرى ... »(١) .

وأوجه الاستدلال بهذا النص على أن المراد (بفارقليط) النبى المبشر به وهو محمد «ﷺ» لا الروح النازل على تلاميذ عيسى عليه السلام يوم الدار فيما يزعم نصارى اليوم . وجوه عدة منها :

الأول : أن عيسى عليه السلام قال أولاً (إن كنتم تحبونى فاحفظوا وصاياى) ثم أخبر عن فارقليط فمقصوده عليه السلام أن يعتقد السامعون بأن ما يلقى عليهم كلام ضرورى واجب الرعاية . فلو كان فارقليط عبارة عن الروح النازل يوم الدار لما كانت الحاجة إلى هذه الفقرة » .

الثانى : أن هذا الروح متحد بالآب مطلقاً و بالإبن نظراً إلى لاهوته اتحاداً حقيقياً فلا يصدق فى حقه (فارقليط آخر) بخلاف النبى المبشر به فإنه يصدق هذا القول فى حقه بلا تكلف(٢) .

الثالث : أن معنى (الفارقليط) إن كان هو المعزى أو الحامد أو الحماد أو الحمد أو المعزى فهذا الوصف ظاهر فى محمد «ﷺ»(٣) .

« مسيحيات يعتقد العلماء الباحثون أن حديث يسوع المسيح عن المعزى بلسانه الآرامية يقابل فى الترجمة اليونانية Peroklytos التى تعنى المعجب Admirable أو الممجد Lorified وكلمة الفارقليط تطابق كلمة محمد أو محمود فى اللغة العربية »(٤) .

الحق أن عبارة (الروح) أو روح الحق لا تعنى أن النبى الآتى سيكون غير إنسان ، ففى كتاب العهد الجديد اليونانى أن عبارة (الروح) استخدمت عن الإنسان الموحى إليه بالوحى (الإنسان المتصل بالسماء) أو (الإنسان المحتوى بالوحى) .

وبالتالى فالإنسان الذى يوحى إليه بالوحى السماوى هو الإنسان الذى ينطبق عليه عبارة (الروح)(٥) .

والمثال على ذلك ما جاء فى رسالة يوحنا الأول ٤ : ١-٣ « أيها الأحباء لا

١ - يوحنا ١٦ : ١٣ ، رحمة الله الهندى : إظهار الحق جـ٢ ص٥٤١ - ٥٤٢

٢ - ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ٤ ص١٦ .

٣ - James Hasting op., Cit., p.14-507

٤ - عن إبراهيم خليل أحمد : محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن ص٥١ - دار المنار القاهرة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

٥ - إبراهيم خليل أحمد : السابق ص٥٣ .

تصدقوا كل روح ، بل امتحنوا الأرواح هل هى من الله ، لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم بهذا تعرفون روح الله . كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فهو من الله وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فليس من الله ، وهذا هو روح ضد المسيح »[١] .

وفضلاً عن المعنى المقصود أن الروح مقصود بها الإنسان فإن هذا النص يشير إشارة واضحة إلى روح الحق الموعود به والمنتظر يعزف بالمسيح أن الله أوجده بكلمة منه فى جسد مريم البتول بدون أب ثم أرسله رسولاً منه .

ولا شك أنها لا تنطبق إلا على محمد «ﷺ» ويدلى المستشرق الفرنسى بوكاى بدلوه ويزيد الأمر وضوحاً بأدلة منطقية تلمسها العقول النيرة والفطر السليمة فيقول : « إن ما يسود الرواية ـ رواية يوحنا السابقة ـ هو مستقبل البشرية الذى يتحدث عنه المسيح ... معطياً إرشاداته وأوامره ومحدداً بشكل نهائى المرشد الذى على الإنسانية أن تتبعه بعد اختفائه » ولما ذهب بعض شراح إنجيل يوحنا أن الفارقليط هو الروح القدس. مع أن النص يقول : أنه سمع ويتكلم .

يقول بوكاى. أن المعروض هنا من الدلالة المحددة لفعلى (يسمع) و(يتحدث) يسرى على كل محفوظات إنجيل يوحنا...وفعل يسمع يعنى استقبال أصوات . أما فعل يتحدث معناه العام إصدار أصوات ، وخاصة صوت الكلام .

يبدو إذن أن الاتصال بالناس المقصود هنا لا يمكن مطلقاً فى إلهام من عمل الروح القدس . إنما هو اتصال ذو طابع مادى واضح وذلك بسبب مفهوم إصدار الصوت وهو المفهوم المرتبط بالكلمة اليونانية التى تعرفه(Parakletas) الفعلان اليونانيان Akouo و Laleo يعنيان فعليين ماديين لا يمكن أن يخصا إلا كائناً يتمتع بجهاز للسمع وآخر للكلام وبالتالى فتطبيق هذين الفعلين على الروح القدس أمر غير ممكن وذهب بعض الشراح إلى أن المقصود بكلمة (بارقليط) هو المسيح نفسه. غير أن نص يوحنا الأول (١٤ : ١٥ـ١٦) « إذا كنتم تحبوننى ... سيعطيكم بارقليط آخر » يكذب ذلك إذ أنه يعنى أنه سيرسل وسيطاً آخر ، كما كان هو وسيطاً بين الله والبشر أثناء حياته .

يقول بوكاى : « يقودنا ذلك بمنتهى المنطق إلى أن نرى فى الـparaclet عند يوحنا كائناً بشرياً مثل المسيح يتمتع بحاستى السمع والكلام وهما الحاستان اللتان

٢ ـ أنظر إبراهيم خليل أحمد · السابق ص٥٣ .

يتضمنهما نص يوحنا بشكل قاطع .

« إذن فالمسيح يصرح بأن الله سيرسل فيما بعد كائناً بشرياً على هذه الأرض ليؤدى الذى عرفه يوحنا ، ولنقل باختصار أنه دور نبى يسمع صوت الله ويكرر على مسامع البشر رسالته،ذلك هو التفسير المنطقى لنص يوحنا إذا أعطينا الكلمات معناها الفعلى .

ويكشف بوكاى عن أن وجود كلمتى (الروح القدس) فى النص الذى نملك اليوم قد يكون نابعاً من إضافة لاحقة إرادية تماماً تهدف إلى تعديل المعنى الأول لفقرة تتناقض بإعلانها بمجىء نبى بعد المسيح، مع تعاليم الكنائس المسيحية الوليدة التىأرادت أن يكون المسيح خاتم الأنبياء»[١] .

إن هذا النبى الآتى لن يكون من شيعة النصارى دليل ذلك قول المسيح لتلاميذه : « فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به »[١] .

بل زاد إيضاحاً فأنبأ بأن هذا النبى المنتظر سيرشد إلى حقائق لم يبلغها المسيح عيسى بن مريم ذاته فقال : « ويخبركم بأمور آتية » .

والقرآن الكريم هو الآية الخالدة إلى أن تقوم الساعة إنه الإعجاز البيانى والإعجاز العلمى ...

الثالث : أن عيسى قال : « (هو يشهد لأجلى)وهذا الروح ماشهد لأجله بين أحد من تلاميذه الذين نزل عليهم ما كانوا محتاجين إلى الشهادة لأنهم كانوا يعرفون المسيح حق المعرفة قبل نزوله أيضاً فلا فائدة للشهادة بين أيديهم . والمنكرون الذين كانوا محتاجين للشهادة فهذا الروح ما شهد بين أيديهم »[٣].

بخلاف محمد «ﷺ»فإنه شهد للمسيح شهادة سمعها عامة الناس.. وأظهر أمر المسيح وشهد له بالحق حتى سمع شهادته له عامة أهل الأرض وعلموا أنه صدق المسيح ونزهه عما افترته عليه اليهود وعما غلت فيه النصارى. ولهذا لما سمع النجاشى من الصحابة ما شهد به محمد للمسيح قال لهم (ما زاد عيسى على ما قلتم)[٤] .

---

١ ـ بوكاى : دراسة الكتب المقدسة .. ص١٢٨ ،١٢٩ . (مصدر سابق) .
٢ ـ يوحنا ١٦ :١٣ وانظر أيضاً : إبراهيم خليل أحمد : السابق ص٥١ ـ ٦٠ .
٣ـ رحمة الله الهندى : المصدر السابق . ٤ ـ ابن تيمية : المصدر السابق ص١٧ .

الرابع : أن عيسى قال..(وأنتم أيضاً تستهدون لأنكم معى من الابتداء) فهذا القول يدل دلالة ظاهرة على أن شهادة الحواريين غير شهادة (فارقليط) فلو كان المراد الروح النازل يوم الدار فلا توجد مغايرة للشهادتين لأن الروح المذكور لم يشهد شهادة مستقلة غير شهادة الحواريين بل شهادة الحواريين هى شهادته بعينها. فلا يصح هذا القول بخلاف ما إذا كان المراد به النبى المبشر فإن شهادته غير شهادة الحواريين »[1].

خلاصة هذا أن الله تعالى سيبعث نبياً آخر (فارقليط) يقوم مقام المسيح فى تبليغ رسالة ربه وسياسة الخلق وهذا النبى لم يعاصر المسيح وإنما جاء بعده وهذا معنى قول المسيح « الحق أنه من الخير لكم أن انطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ولكن إذا ذهبت أرسله لكم »أى أنهما لايجتمعان فى زمن واحد لأن المسيح علق مجيئه بذهابه...والمعزى هو روح الحق الذى لا يتكلم من نفسه وإنما بوحى من الله«وأمامتى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل بكل ما يسمع ويخبركم بأمور آتيه»[2].

بعد ذلك نشير إلى أن محمداً «ﷺ» لو تقول على الله شيئاً من عنده لجاءه القتل عقاباً سريعاً لا راد له من الله : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحاقة : ٤٤ - ٤٧].

ونجد التوراة تذكر أن الموت العاجل لابد وأن يفاجئ كل من يدعى كذباً أنه نبى لله يوحى إليه ويتكلم باسمه زوراً «وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاماً لم أوصه أن يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى »[3] .

بل جاء فى السامرية : « فليقتل ذلك النبى » فالموت هنا لا يعنى به الموت الطبيعى الذى تذوقه كل نفس وإنما يقصد به القتل أو الموت غير الطبيعى الذى ينهى حياة مدّعى الرسالة كذباً . ووسائل هذا الموت العاجل كثيرة مثل : القتل أو الغرق ونحوه لأنها وسائل تفضى إلى الموت العاجل .

وأمثلة ذلك ما جاء فى التوراة : « نهاية كل بشر قد أتت أمامى لأن الأرض قد امتلأت ظلماً منهم . فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء كل ما فى الأرض يموت ... » وكان الطوفان على الأرض

١ـ رحمة الله الهندى المصدر السابق .

٢ـ يوحنا ١٦ : ٧ ، ١٣ .

٣ ـ تثنية : ١٨ : ٢٠ .

أربعين يوماً ... فمات كل ذى جسد كان يدب على الأرض ... كل ما فى أنفه نسمة روح حياة من كل ما فى اليابسة مات»[1] .

ومن الواضح أن الموت هنا تم عن طريق الغرق الذى لا يعتبر موتاً طبيعياً .

وهذا المعنى جاء فى حكم من يحاول قتل صاحبه « إذ بغى إنسان على صاحبه ليقتله بغدر فمن عند مذبحى تأخذه للموت »[2] .

يتبين لنا من هذا أن إحدى العلامات التى يعرف بها مدعى النبوة كذباً هو أن يقتلع من الأرض قبل أن يتم دعوته ويكون ذلك بالموت قتلاً أو غيره .

ولكن محمداً «ﷺ» حفظه الله ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة : ٦٧]وأتم دينه واكتملت دعوته وبلغ الأمر غايته .

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة : ٣]

ذكر صاحب كتاب (الإنجيل والصليب) أنه جاء فى (إنجيل لوقا)٢ :١٤«الحمد لله فى الأعالى وعلى الأرض إسلام وللناس أحمد » ولكن المترجمين ترجموها فى الإنجيل هكذا :

« الحمد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالنّاس المسرة » ومؤلف الكتاب يرى أن الترجمة الصحيحة ماذكره هو . يقول المؤلف أن ثمة كلمتين وردتا فى اللغة الأصلية لم يدرك أحد ما تحتويان عليه من المعانى تماماً فلم تترجم هاتان الكلمتان كما يجب فى الترجمة القديمة من السريانية :

هاتان الكلمتان هما :

أيرينى ــ التى يترجمونها : السلامة .

و أيودكيا ــ التى يترجمونها : حسن الرضا .

فالأولى من الكلمتين اللتين هما موضوع بحثنا الآن هى (أيرينى) فقد ترجمت بكلمات « سلامة » « مسالمة » « سلام » والمؤلف يرى أن ترجمتها الصحيحة « إسلام » فيقول فى ص٤٠ « ومن المعلوم أن لفظ « إسلام » يفيد معانى واسعة جداً ويشتمل على ما تشتمل عليه ألفاظ (السلم ، السلام) (الصلح ، المسالمة) (الأمن ، الراحة)... وتتضمن معنى زائداً وتأويلاً آخر أكثر وأعم وأشمل وأقوى مادة ومعنى ،

---

١ ــ تكوين ٦ : ١٣ ، ١٧ ، ٧: ١٧ ، ٢١ ، ١٠،٢٢ ٢ ــ خروج ٢١: ١٤ .

ولكن قول الملائكة « على الأرض سلام » لا يصح أن يكون بمعنى الصلح العام والمسالمة لأن جميع الكائنات وعلى الأخص الحية منها ولا سيما النوع البشرى الموجود على كرة الأرض دارنا الصغيرة هى بمقتضى السنن الطبيعية والنواميس الاجتماعية خاضعة للوقائع والفجائع الوخيمة كالاختلافات والمحاربات والمنازعات...، فمن المحال أن يعيش الناس على وجه الأرض بالصلح والمسالمة » .

ثم يستشهد بقول المسيح « ما جئت لألقى سلاماً على الأرض ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً »(متى١٠ :٣٤) .

ويستشهد بقول آخر للمسيح :«جئت لألقى نادراً على الأرض فماذا أريد لو اضطرمت؟ أتظنون أنى جئت لأعطى سلاماً على الأرض كلا أقول لكم بل انقساماً» (لوقا ١٢ : ٤٩ _ ٥٣)

وعلى هذا فالترجمة لا تنطبق ورسالة المسيح وأقواله والصواب «وعلى الأرض إسلام » . (أنظر البحث من ص٣٨_٤٤) كما يرى أن (أيادوكيا) بمعنى (أحمد) لا (المسرة أو حسن الرضا) كما يترجمها القسس وذلك لأنه لا يقال فى اليونانية لحسن الرضا (أيودوكيا) بل يقال (ثليما) ويقول أن كلمة «دو كوته» هى بمعنى (الحمد _ الاشتهاء _ الشوق _ الرغبة _ بيان الفكر) . وها هى ذى الصفات المشتقة من هذا الفعل (دوكسا) وهى (حمد ، محمود ممدوح ، نفيس ، مشتهى ، مرغوب ، مجيد) .

واستشهد بأمثلة كثيرة من اليونانية لذلك . قال : إنهم يترجمون (محمديتو) فى (أشعيا ٦٤ :١١) بـ(اندوكساهيمون) ويترجمون الصفات منها (محمد أحمد ، أمجد ، ممدوح محتشم ، ذوالشوكة) بـ (ايندكسوس) .

واستدل بهذا التحقيق النفيس أن الترجمة الحقيقية الصحيحة لما ذكره لوقا هى (أحمد ، محمد) لا (المسرة) فتكون الترجمة الصحيحة لعبارة الإنجيل :

« الحمد لله فى الأعالى وعلى الأرض إسلام وللناس أحمد » [1].

نخلص مما سبق إلى أن :

صفات رسول الله «ﷺ»ونعوته ، بل اسمه مذكور بالاسم قبل التحريف والتعديل، وهم يعرفون ذلك حق المعرفة ، ومع اعترافهم إلا أنهم يقولون إن المقصود بها غيره وقد رددنا على هذه المزاعم .

---

١ _ أنظر كتاب « الإنجيل والصليب » للأب عبدالأحد داود ص٣٤ ٥٣ [أسلم وحسن إسلامه] وأنظر أيضاً : نبوة محمد من الشك إلى اليقين ص٣٠٠ مكتبة المنار عمان ١٤٠٣هـ مصدر سابق .

ومن المعلوم أن رسول الله كان يطالعهم صباح مساء أنه مكتوب عندهم والوحى يبين صفاته ونعوته عندهم بكشف زيوفهم ولو لم يعلم محمد أنه مكتوب عندهم بل علم انتفاء ذلك لامتنع أن يخبر بذلك مرة بعد مرة ويستشهد به ويظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه وأوليائه وأعدائه فإن هذا لا يفعله إلا من هو أقل الناس عقلاً لأن فيه إظهار كذبه عند من آمن به منهم وعندمن يخبرونه»[١].

لا يستطيع الكاذب أن يخاطب اليهود والنصارى ـ والتوراة والإنجيل بين أيديهم ـ بقوله على لسان القرآن ﴿يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل﴾ ثم يوبخهم ويقرعهم بأنهم يجدونه فيها وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وليس من المتصور أن يجترئ على ذلك وهو يعلم كذب نفسه ، والكاذب ضعيف حتى عند نفسه .

كما أن اليهود ـ و من خلفهم من المستشرقين ـ لا يعارضون فى أن « حقيقة المعجزة لا تختلف وهى فعل خارق يقترن به التحدى ، وهذا قد وجد ـ كما أوضحنا فيما سبق ـ فى حق محمد بن عبدالله « ﷺ » كما وجد فى حق موسى ـ عليه السلام ـ فإن كانت المعجزة لا تفيد النبوة يلزمهم أن لا يعتقدوا بنبوة موسى وإن أفادت يلزمهم اعتقاد نبوة محمد «ﷺ» فقد جاء بالمعجزات ، جاء بالقرآن فى زمن الفصحاء والبلغاء وسأل جميعهم أن يأتوا بمثله فأعجزهم ، فسألهم سورة منه ... فعجزوا فنادى بينهم على رؤوس الأشهاد ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]

وأخيراً ـ وكما سبق أن بيّنا ـ فإن تبشير الأنبياء به فى الكتب المنزلة عليهم يقوم مقام المعجزات .

***

١ ـ ابن تيمية الجواب الصحيح جـ٣ ص٢٩٢ .

الفصل الخامس

شبهات المستشرقين حول

الوحي إلي محمد « ﷺ » . وتفنيدها

○ تقديم :

○ **المبحث الأول** : أمية الرسول .

○ **المبحث الثاني** : الأخذ عن ورقة بن نوفل .

○ **المبحث الثالث** : الوحى النفسى

○ **المبحث الرابع** : رد القرآن إلى أصول : يهودية ونصرانية .

* * *



كشفنا ـ فيما سبق ـ أن نبوة محمد «ﷺ» ، ثابتة ـ على وجه القطع واليقين ـ بوجوه عديدة منها : دلالة المعجزات على النبوات ، وقد ثبت أن الله جل وعلا قد جمع له جميع أنواع المعجزات والخوارق : المادى والحسى منها ، والعقلى . وأجلها المعجزة القرآنية .

كما ثبت أن نبوته «ﷺ» مقررة فى التوراة والإنجيل ، فلم يأت نبى من بعد إبراهيم إلا من ذريته : إسماعيل وإسحق .

ولم يكن فى ولد إسماعيل من ظهر فيما بشرت به النبوات غير محمد «ﷺ» ، وقد دعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث فيهم رسولاً منهم .

كما اتضحت أوجه التشابه ، بل التطابق بين الوحى الإلهى إلى موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام .

وكما ثبت أن رسالتى موسى وعيسى وحى الله تعالى ثبت أيضاً ـ فى التوراة والإنجيل ـ أن رسالة النبى الآتى، محمد «ﷺ» وحى من الله تعالى، كما أنها تصديقاً وتثبيتاً للرسالات السابقة ومهيمنة عليها .

فإن الله القادر على كل شىء أبان شخصيته قائلاً: «وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به»[1] فضلاً عن وجوب اتفاق هذه الكلمات مع كلمات الوحى للرسالات السماوية السابقة لأنها ولا ريب من مصدر واحد هو الله الواحد الأحد، مع ملاحظة الفارق الكبير بين الاتفاق والنقل[2].

والمحصلة النهائية لما سبق أن الدين واحد ، لأنه صادر من مشكاة واحدة ، صفات الوحى إلى محمد «ﷺ»هى نفسها إلى موسى وعيسى عليهما السلام فماذا يريد المستشرقون بعد هذا البيان المدعم بالأدلة العقلية والنقلية ؟

( ) التشكيك فى الوحى إلى محمد «ﷺ» .

تجاهل كثير من المستشرقين، تلك الحقائق عن الوحى وذهبوا مشككين فى مجىء الوحى الإلهى إلى نبينا «ﷺ»، وتباينت آراؤهم : فمن قائل : إنه حالة نفسية ، أو ما يطلقون عليه الوحى النفسى، ومن قائل: إنها حالة مرضية ، كالصرع[3] الهستيرى ، ومن قائل : إن محمداً كان من أعلى حالات الصحة النفسية والجسمية

١ ـ تثنية ١٨ ١٨

٢ ـ إبراهيم خليل أحمد محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن ص٥٤ ـ ٥٦ ، مصدر سابق .

٣ ـ وقد فندنا هذا الزعم فى ردنا على كولدتسين (أنظر بحثنا موقف جولدتسين من القرآن الكريم . منشور بالكتاب الدورى بقسم الاستشراق كلية الدعوة ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)

والعقلية ـ تناقض مع القول السابق ـ وأن ما جاء به جمعه من البيئة المكية التي كانت تعج بالرهبان والآباء والقسس (١)، ثم زعم هذا الفريق أن محمداً كان تلميذاً نابهاً لورقة بن نوفل ـ رئيس الأكاديمية العلمية المكية .

أما أن محمداً كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب فهذا محض افتراء وكذب ـ عندهم بدليل أنه نقل قصصه القرآني من التوراة والإنجيل .

ونحن نقول : إن الادعاء سهل ولا سيما مع الضغن ، ولكن العقلاء ، المنهجيين الذين لا يبغون إلا الحقيقة والحقيقة وحدها ، فإنهم يعولون على الوقائع والبراهين ، وفي الصفحات التالية سنتناول بإذن الله افتراءات المستشرقين وجهالتهم ومزاعمهم بالعرض والتفنيد .

* * *

المبحث الأول

شبهتهم حول أمية الرسول « ﷺ ».

أمية محمد «ﷺ» ثابتة تاريخياً ، وقد نقل إلينا بالتواتر ، أنه كان لا يعرف الكتابة ولا القراءة ، قال الله جل وعلا : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

فلم يقرأ فى صحيفة ، ولم يكتب شيئاً بيده منذ ولد إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى .

ذهب بعض المستشرقين إلى تكذيب الحقائق التاريخية ، وإنكار التواتر كمصدر موثوق فيه من مصادر المعرفة ، فادعى مستشرق يدعى (ستوبرت) أن محمداً لم يكن أمياً ، فيقول: « ... ويغلب على ظنى أن محمداً لم يكن أمياً، لأن هناك بعض الآثار الإسلامية تدل بأنه كتب صلح الحديبية بيده »[١] .

أما « مونتجمرى واط » فلأنه موضوعى ومنهجي، ومحايد وقطع على نفسه عهداً ألا يقول شيئاً يجرح به مشاعر المسلمين، فإنه حاور وناور حول أمية الرسول « ﷺ » ليصل إلى الهدف الذى أشار إليه مباشرة « سنوبرت » ألا وهو إنكار أو التشكيك فى أمية الرسول .

ذهب «واط» يفسر لنا المقصود بـ ﴿ ما أنا بقارئ ﴾ إجابة على طلب جبريل : «اقرأ» . يقول: «يجب تفسير قول محمد«ﷺ» (ما أقرأ) فى رده على قول الملك (إقرأ) بـ(لا أستطيع القراءة) أو (التلاوة) . يتضح لنا ذلك من وجود رواية تقول: ﴿ ما أنا بقارئ ﴾ وفى التمييز عند ابن هشام: (ما أقرأ)؟و (ماذا أقرأ)؟حيث التعبير الثانى لا يمكن أن يعنى إلا (ماذا أتلو) وهذا هو المعنى الطبيعى لقوله (ما أقرأ)؟.

«ثم يضيف (واط) قوله : « ويبدو من المؤكد، تقريباً، أن المفسرين التقليديين اللاحقين تجنبوا المعنى الطبيعى ـ الذى اكتشفه هو ـ لهذه الكلمات ليجدوا أساساً للعقيدة التى تريد أن محمداً لم يكن يعرف الكتابة، وهذا عنصر رئيسى للتدليل على طبيعة القرآن المعجزة »[٢] .

واضح من كلام «ستوبرت » و« واط » وحدة الهدف

وهو نفى أوجه إعجاز القرآن، من ناحية أخرى إقامة الدليل على أن محمداً «ﷺ»

---

١ - Non Christian Religion : Islam and its Founder PP.53-55.

٢ ـ واط · محمد فى مكة : ص٨٥ تعريب شعبان بركات المطبعة العصرية . بيروت

قد قرأ التوراة والإنجيل وعنهما نقل قرآنه .

غير أننا نلاحظ أن المستشرق الأول ساق كلامه دون دليل تاريخي لا يقبل النقض، فزعم أن محمداً هو الذى كتب بيده صلح الحديبية .

وقصة صلح الحديبية معروفة ومشهورة فى الكتب الصحاح . التى تؤكد أن على بن أبى طالب هو الذى كان يكتب . والجدل الذى دار بين رسول الله وبين رسول الكفار أشهر من أن ينكر .

آخرج الإمام مسلم من حديث البراء بن عازب : « كتب على بن أبى طالب الصلح بين النبى «ﷺ» وبين المشركين يوم الحديبية، فكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، فقالوا: لا تكتب رسول الله، فلو نعلم أنك رسول لم نقاتلك، قال النبى «ﷺ» لعلىّ: امحه. فقال: ما أنا بالذى أمحاه، فمحاه النبى بيده »[١] .

وعند مسلم رواية أخرى : «.. فأمر ـ أى الرسول «ﷺ» علياً أن يمحاه ، فقال على لا والله لا أمحاه ، فقال رسول الله «ﷺ» : أرنى مكانها ، فأراه مكانها ، فمحاه وكتب ـ أى على ـ ابن عبدالله »[٢] .

ويستفاد من رواية الإمام مسلم أن الرسول «ﷺ» لم يستدل على العبارة المطلوب محوها إلا بإرشاد علىّ . وفى قول الرسول لعلىّ أى للكاتب: أرنى مكانها ، دلالة على أنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة فلجأ إلى الكاتب .

هذا عن الواقعة التى أراد (ستوبرت) الاستشهاد بها، ويبدو أنه لم يكلف نفسه مئونة الرجوع إلى المصادر الإسلامية، واكتفى بالتخمين، أو يكون قد اطلع على كتب السنة الصحيحة إلا أنه آثر التشويش .

أما القرآن فإنه يؤكد حقيقة أمية رسول الله «ﷺ»: ﴿ وما كُنت تَتْلُو من قَبْله من كتَاب ولا تَخُطُّه بيمينك إذًا لأَرْتاب الْمُبْطلُونَ ﴾ وفي قوله تعالي: ﴿ الَّذين يتَّبعُون الرَّسُولَ النَّبيَّ الأُمّيَّ الَّذي يجدُونَه مكْتُوبًا عندهُمْ في التَّوْراة والإنجيل ﴾ [الأعراف:١٥٧] وقوله تعالي: ﴿ هُو الَّذي بعث في الأُمّيّين رسُولاً منْهُمْ يتْلُو عليْهمْ آياته ويُزكّيهمْ ويُعلّمُهُمُ الْكتاب والْحكْمة وإن كانُوا من قبْلُ لفي ضلال مُبين ﴾ [الجمعة : ٢] فهل بعد ذلك يقال : إن محمداً كان يعرف القراءة والكتابة ؟

لقد أجاب القرآن بالنفى، وبرهن بأمية الرسول الكريم على ربانية تعاليمه، إنه لا يقرر فحسب أنه أمى من شعب أمى، أى غير متعلم وإنما يؤكد، بصريح العبارة، أنه

---

١ ـ أخرجه مسلم فى كتاب الجهاد والسير . باب صلح الحديبية جـ١٢ ص١٣٥ بشرح النووى

٢ ـ إخراج مسلم : السابق .

لم يسبق له أن قرأ كتاباً قبل القرآن أو كتب بيده. ولا شك أن معارضية كانوا يعرفون أنه أمي لم يقرأ ولم يكتب من قبل، لذلك ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾[الفرقان: ٥]لم يجرؤوا أن يقولوا « كتبها »وإنما قالوا «إكتتبها» أى كتبها له غيره ، وهما عبارتان مختلفتان تمام الاختلاف[١] .

وعند آية العنكبوت ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لأرتاب المبطلون ﴾ . يقول الإمام ابن تيمية: « بين سبحانه من حاله ما يعلمه العامة والخاصة وهو معلوم لجميع قومه الذين شاهدوه متواتر عند من غاب عنه وبلغته أخباره من جميع الناس أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يخط كتاباً من الكتب المنزلة ولا غيرها ولا يقرأ شيئاً مكتوباً لا كتاباً منزلاً ولا غيره ولا يكتب بيمينه ولا ينسخ شيئاً من كتب الناس لا المنزلة ولا غيره »[٢] .

أما «واط» فإن كتب السيرة التى عرضت لحياة رسول الله «ﷺ» أى الواقع التاريخى له ينكر ما ذهب إليه، ففضلاً عما أجبنا به، جاء فى « فتح البارى للإمام ابن حجر» حول «ما أنا بقارىء»: «ما نافية، إذ لو كانت استفهامية لم يصح دخول الباء، وإن حكى عن الأخفش جوازه فهو شاذ، والباء زائدة لتأكيد النفى ، أى ما أحسن القراءة »[٣] يقول الطيبى: «إن ما أنا بقارىء يفيد التقوية والتأكيد . والتقدير: لست بقارىء البتة .

إن محمداً لم يكن يعيش فى كوكب غير كوكب الأرض ، ولو كان يعرف شيئاً من الكتابة والقراءة لارتاب فى أمره المبطلون من المشركين ، فقالوا : لعله تعلمه من غيره، وكتبه بيده ، لقد شهد قومه المعادون له أنه : لم يكن يقرأ شيئاً من الكتب لا نسخاً ولا حفظاً لأنه أمى[٤] .

فضلاً عن أن «واط» تعامل مع رواية «ابن هشام » تعامل«لا تقربوا الصلاة» و«فويل للمصلين» فبالرجوع إلى ابن هشام وجدنا الرواية تقول: «قال رسول الله «ﷺ» : فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ. قال:قلت ما اقرأ...» .

يقول الدكتور «جعفر شيخ إدريس»: واضح من الرواية إذن أن المقصود قراءة شيء مكتوب فيكون معنى «ما اقرأ »: «لا أعرف القراءة» .

١ ـ د. محمد عبدالله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ص١٤٠ دار القلم الكويت ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م
٢ـ ابن تيمية : الجواب الصحيح جـ٤ ص٣١ .
٣ ـ ابن حجر: فتح البارى لشرح صحيح البخارى جـ١ ص٢٤، السيرة النبوية لابن كثير جـ١ ص٣٩٣
٤ـ ابن تيمية : الجواب الصحيح جـ١ ص١٤١ ، جـ٤ ص٣٤ .

وتقول الرواية بعد ذلك «قال: فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ . قال: قلت ماذا اقرأ ؟ قال: فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ . قال: فقلت: ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي فقال: ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ [1] ، [2] .

وواضح أن الرواية أن رسول الله «ﷺ» قال لجبريل: لا أعرف القراءة ، فلما غته أراد الرسول تفادى هذه الغته مرة أخرى فقال له: ماذا تريدنى أن أقرأ؟ .

من ناحية أخرى فإن «واط» يغمز رواة الحديث بأنهم وضاعون فتصرفوا في رواية ابن هشام ـ وغيرها ـ بحيث تؤدى إلى تقرير أمية محمد،أى أن حقيقه أمية محمد من اختراع الرواة المتأخرين، و«واط» هنا يتجاهل تقرير القرآن لهذه الحقيقة إذ يقول: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾[العنكبوت:٤٨] .

إن مقتضيات البحث العلمى تلزم الباحث الجاد ألا يقتصر على رواية واحدة ، بل عليه فحص الروايات الأخرى المتعلقة بنفس الموضوع .

ثم يعود «واط » إلى رمى الإسلام بما ليس فيه فيقول: «إن الإسلام التقليدى يقول بأن محمداً لم يكن يقرأ ولا يكتب . ولكن هذا الزعم مما يرتاب فيه الباحث الغربى ، لأنه يقال لتأكيد الاعتقاد بأن إخراجه للقرآن كان معجزاً . وبالعكس لقد كان كثير من المكيين يقرؤون ويكتبون، ولذلك يفترض أن تاجراً ناجحاً كمحمد لابد أن يكون قد عرف شيئاً من هذه الفنون »[3] .

وإن تعجب فعجب قوله: الإسلام التقليدى . الإسلام التقليدى هو الذى يقرر أمية محمد «ﷺ» أما الإسلام المتحرر ، الإسلام الاستشراقى فإنه يرتاب في تقريرات الإسلام التقليدى .

ماذا يقصد «واط» بالإسلام التقليدى ؟ لا إجابة ، ونحن نهديها إليه .

الإسلام هو القرآن الكريم ، لأنه هو الذى قدر حقيقة واقعة هى أمية رسولنا الكريم، وذلك قبل أن يتكلم أو يسجل رواة الأحاديث مع أنهم عدول ثقات جاء هذا التقرير فى آيات عديدة ذكرنا جانباً منها: فى سورة العنكبوت آية ٤٨ وسورة الأعراف آية ١٥٧ ، وسورة الجمعة آية ٢ .

١ ـ ابن هشام : السيرة النبوية تحقيق مصطفى السقا وآخرين جـ١ ص٢٥٢ ـ ٢٥٣ ، دار إحياء التراث العربى .

٢ ـ د. جعفر شيخ إدريس : منهج « واط » فى دراسة نبوة محمد ص٢٢٣ (مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية والإسلامية جـ١) .

٣ ـ واط : محمد نبياً ورجل دولة ص٣٩ـ٤٠ ، د. جعفر شيخ إدريس : المصدر السابق ص٢٢٥ .

هذا هو إسلامنا التقليدى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى يرتاب فيه الباحث الغربى الحديث .

ويبدو أن « واط » لم يستطع أن يفرق بين الارتياب والرفض والإنكار، فللباحث أن يرتاب فيما يدعيه خصمه إلى أن يثبت لنفسه أو لخصمه فإن كان لخصمه قبله حتى لو كان فيه تأييداً لما كان ينكره من قبل، وإن كان له عده تأييداً لدعواه .

غير أن حاصل كلام «واط» الرفض والإنكار دون إبداء الأسباب أو الأدلة، فقد سارع ـ دون مناقشة ـ إلى إصدار حكمه،كشفاً عن خبيئة نفسه ، فيقول: «وبالعكس لقد كان كثير من المكيين يقرؤون ويكتبون ، ولذلك يفترض أن تاجراً ناجحاً كمحمد لابد أن يكون قد عرف شيئاً من هذه الفنون » . لم يف « واط » بما قاله فى مقدمة كتابه « محمد فى مكة » من أنه لن يقول شيئاً يمس دين المسلمين ولا يجرح مشاعرهم، لقد أساء المستشرق إلى ديننا، وإلى مشاعرنا. لقد أراد هدم القرآن، فى سبيل تأييد موقف اتخذه مسبقاً. وفيه، وفى أمثاله يصدق قول الدكتور (سنوك هير غونجة) : «إن سيرة محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضى عليها بالعقم إذا سخرت لأية نظرية أو رأى سابق » [١] .

وإذا كان قد كان قد افترض أن تاجراً ناجحاً كمحمد «ﷺ»قد تعلم شيئاً من الفنون والعلوم التى كانت تدرس فى مكة وما حولها! فلماذا لم يدلل على صحة فرضه هذا ؟

من جهة أخرى : هل البحث العلمى الأصيل، أو الفرض العلمى الجاد يحتمل مثل هذا التأكيد الذى أطلقه (واط)،(لابد) ؟ أم أنها كما قلنا نتيجة معدة سلفاً؟ وإذا كان القسيس « واط » أكد أن محمداً «ﷺ»كان قارئاً كاتباً ، فإن مستشرقاً آخر يرى غير ذلك ويدفع فرية «واط» ، يقول «ول ديورانت» «إن أحداً لم يعن بتعليم محمد «ﷺ» القراءة والكتابة.. ولم يعرف عنه أنه كتب بنفسه... ولكن هذا لم يحل بينه وبين قدرته على تعرف شئون الناس تعرفاً قلّما يصل إليه أرقى الناس تعلماً » [٢].

وقد عقد « توماس كارليل » فصلاً رائعاً عن النبى ﷺ، تكلم فيه ـ فيما تكلم ـ عن أميته ، فقال:« إن محمداً لم يتلق دروساً على أستاذ أبدا ... ويظهر لى أن الحقيقة هى أن محمداً «ﷺ» لم يكن يعرف الخط والقراءة »[٣] .

١ـ د. عماد الدين خليل : المستشرقون والسيرةص٢٣ دار الثقافة . الدوحة ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م .

٢ـ ديورانت: قصة الحضارة جـ١٣ص ٢٢،٢١ ترجمة محمد بدران وآخرين لجنة التأليف والترجمة القاهرة ط٢ .

٣ـ توماس كارليل: الأبطال ترجمة محمد السباعى ص٥ الدار القومية . القاهرة (ب.ت) .

هذان مستشرقان غربيان وليسا بإسلاميين، وفقا هنا حين أنصفا الحقيقة التى لا يمارى فيها إلا مكابر .

وأخيراً وقع المستشرق « واط » فى مأزق ـ وهو الباحث الحازق ـ حين أوقف إعجاز القرآن على أمية محمد « ﷺ » فقط. فهل نلتمس له العذر باعتباره لم يستطع الوقوف على أوجه إعجاز القرآن لاعتبارات عديدة هو مفتقر إليها منها ـ فيما يقول صاحب الكشاف ـ « ... لا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن وهما: علم المعانى وعلم البيان، وتمهل فى ارتيادهما آونة وتعب فى التنقير عنهما ، وبعثته على تتبع فطانهما همة فى معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ... فارساً فى علم الإعراب.. ذا دراية بأساليب النظم والنثر... قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ... وكيف ينظم ويرصف »[1] .

لقد خاض المستشرق فى بحر لجى لا يحسن السباحة فيه .

و« واط » متخبط ، فهو فى « محمد فى مكة » يعتبر أمية الرسول هى العنصر الرئيسى للتدليل على إعجاز القرآن، بحيث إذا سقطت الأمية انتفى الإعجاز القرآنى وهذا ما فندناه منذ قليل . ثم يعود فى كتابه « محمد نبياً ورجل دولة » ليقر بأن أمية الرسول من الأدلة المؤيدة لإعجاز القرآن . وقد أصاب هنا « وذلك لأن القرآن يقول: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت : ٤٨].

فالقرآن لا يقول: «إذن لثبت أن القرآن ليس وحياً » وإنما قال: ﴿ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أى لوجد الجاهلون فى ذلك شبهة يتمسكون بها ، فالأمية دليل مؤيد وليس دليلاً ضرورياً »[2] .

وثمة مأخذ آخر على « واط » إذ يقول « ويبدو من المؤكد ، تقريباً »[3] . فكيف يجتمع التأكيد الذى هو اليقين، والتقريب الذى هو الاحتمال والإمكان؟

ننتقل بعد ذلك إلى تناول الوحى من زاوية أخرى ولكنها متصلة بأمية الرسول « ﷺ » .

* * *

١ ـ الزمخشرى : الكشاف جـ١ ص٣ ط. أولى المطبعة الشرقية .

٢ ـ د. جعفر شيخ إدريس : المصدر السابق ص ٢٢٥ . ٣ ـ محمد فى مكة ص٨٥ .

المبحث الثاني

الأخذ عن ورقة بن نوفل

○ منابع الوحى إلى محمد « ﷺ » فى الرؤية الإستشراقية :

دأب أهل الكتاب قديماً ، وخلفهم المستشرقون حديثاً على الطعن فى الوحى إلى نبينا «ﷺ»، باتهامه : أنه تعلم من غيره ، ثم من هذا الذى جمعه من هنا وهناك لفق الدين الذى جاء به، فزعمت النصارى أنه تعلم من ورقة بن نوفل، والراهب بحيرى، وزعمت اليهود أنه تتلمذ لعبد الله بن سلام ، وأنه قرأ التوراة والإنجيل ونقل عنهما، وردد كثير من المستشرقين ـ محدثين ومعاصرين ـ هذه الافتراءات. وسوف نرى فى الصفات التالية نماذج من هذه المزاعم ثم نأتى عليها مفندين، لنظهر ما فيها من تهافت وما تنطوى عليه من بطلان .

○ الأخذ عن ورقة بن نوفل :

ذهب المستشرق « إميل درمنغام »إلى أن محمداً التقى « بورقة بن نوفل »وأخذ عنه أصول دينه، وحاذاه المستشرق المعاصر «مونتجمرى واط» حذو النعل بالنعل، وإن حاول أن يجعل كلامه محبوكاً بقدر الإمكان .

كلام « واط » عن الأثر العلمى لورقة مبنى على شكه فى أمية الرسول «ﷺ» وقد كان يكفينا ذلك فى إبطال شكوكه، لأنه بانهيار فروضه وشكوكه حول أمية محمد، ينهار زعمه الأخذ عن ورقة، غير أننا آثرنا تناول هذه الفرية كما عرضها، لأن تناوله لها كان فجاً، قبيحاً فى افتراءاته، ففى تناوله لموضوع الأمية حاول التدثر بالمنهجية تارة وبالدقة أخرى، غير أنه هنا لم يراع لا دين ولا مشاعر للمسلمين .

يتحدث «واط » عن المنابع الرئيسية للوحى إلى نبينا «ﷺ» فيؤكد على ارتباط محمد ، من خلال زوجه خديجة بورقة ، ثم ذهب يستنتج ، وليت استنتاجه خضع لأبسط القواعد المنهجية .

يقول صاحب « محمد فى مكة » : كانت خديجة « ابنة عم رجل يدعى ورقة بن نوفل بن أسد ، وهو رجل متدين اعتنق أخيراً المسيحية . ولا شك أن خديجة قد وقعت تحت تأثيره، ويمكن أن يكون محمد قد أخذ شيئاً من حماسه وآرائه »[١] .

أما عن تنصر ورقة فأمر ثابت فى كتبنا الصحاح، جاء فى أسد الغابة: «خرج زيد

---

١ ـ واط محمد فى مكة ص٧٤ ـ ٧٥ .

بن عمرو بن نفيل فى الجاهلية يطلب الدين وورقة بن نوفل، فلقيا اليهود، فعرضت عليهما يهود دينهم فتهود ورقة، ثم لقيا النصارى فعرضوا عليهم دينهم، فترك ورقة اليهودية وتنصر، وأبى زيد بن عمرو بن نوفل أن يأتى شيئاً من ذلك . وقال: ما هو إلا كدين قومنا ، تشركون ويشركون ، ولكنكم عندكم من الله ذكر، ولا ذكر عندهم ، فقال له راهب: إنك لتطلب دينا ما هو على الأرض اليوم، فقال : و ما هو ؟ قال : دين إبراهيم كان يعبد الله ولا يشرك به شيئاً[1] .

ما سقنا هذا النص إلا لدلالته على فساد ما كان عليه اليهود والنصارى اللهم إلا بقية من الفطرة السليمة، فضلاً عن بشارة الراهب بنبوة محمد «ﷺ».

ولنقف قليلاً عند قوله «ولا شك أن خديجة قد وقعت تحت تأثيره ـ أى تأثير ورقة المسيحى ـ ويمكن أن يكون محمد قد أخذ شيئاً من حماسه وآرائه».

فى هذا الكلام نشم رائحة التآمر بين خديجة ـ أم المؤمنين ـ وابن عمها ورقة ـ وحاشاهما ـ ليوقعا بمحمد تحت سيطرة ورقة وهدف المستشرق أبعد من هذه التلميحات . إنه يريد أن يقول : إن محمداً نهل من العلوم النصرانية التى كانت عند ورقة. لذلك نجده يصرح بهذا ـ بعد ذلك ـ فيقول«ويبدو أن ورقة من بين الذين اتصل بهم محمد لسبب معرفته بكتب المسيحية المقدسة،ولا شك أن المقطع القرآنى حين ردده محمد قد ذكره بما هو مدين به لورقة... ولهذا فمن الأفضل الافتراض بأن محمداً كان قد عقد صلات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر، وتعلم أشياء كثيرة وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيراً بأفكار ورقة. وهذا ما يعود بنا إلى طرح مشكلة العلاقة بين الوحى الذى نزل على محمد والوحى السابق له »[2] .

يريد «واط» أن يقول: إن النبى محمد «ﷺ» مدين بفكرة الوحى لورقة بن نوفل .

ما هى إذن حكاية ورقة وعلاقته بنبينا «ﷺ»، كما جاءت فى الكتب الصحاح؟

يروى إمام المحدثين البخارى عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ قصة بدء الوحى . إذ تقول: «أول ما بدئ به رسول الله «ﷺ» من وحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع[3] إلى

---

١ ـ تاريخ العرب فى الجاهلية ص٤٨٨ ، ٤٨٩ ٢ ـ محمد فى مكة ص٩٣ .

٣ ـ ينزع : يرجع .

أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق ـ الوحى وسمى حقاً لأنه من الله الحق ـ وهو فى غار حراء .

فجاء الملك ، فقال : اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ . قال: « فأخذنى فغطنى[1] حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطنى الثالثة ثم أرسلني فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق:١ – ٥]. فرجع بها رسول الله «ﷺ» يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : « زملونى، زملونى[2] » فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع[3] فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « لقد خشيت على نفسى » فقالت :كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم[4] ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » .

ما إن جاء «ﷺ» خديجة وقص عليها حتى انطلقت إلى ورقة بن نوفل ابن عمها، وكان قد تنصر وقرأ الكتب ـ كما أسلفنا ـ فقالت خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك .

فقال له ورقة . يا ابن أخى ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الأكبر الذى أنزل على موسى، يا ليتنى فيها جذَع ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله «ﷺ» : «أو مخرجى هم؟». قال ورقة : نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى»[5]، وذكر صاحب « الطبقات الكبرى » رواية أخرى ، على النحو التالى: « ثم أتت ـ أى خديجة ـ ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك . فقال: إن يك صادقاً فهذا ناموس مثل ناموس موسى ، فإن يبعث وأنا حى فسأعزره وأنصره وأؤمن به »[6].

لماذا ذهبت خديجة إلى ورقة ؟ الإجابة التى اجتمعت عليها المصادر التاريخية

---

١ ـ غطنى : ضمنى إليه وعصرنى .
٢ ـ زملونى : أى أدخلونى فى ثياب وغطونى بها . ٤ ـ تعطى مالا يعطيه غيرك من المال وغيره
٣ ـ وهو الفزع والخوف
٤ـ أخرجه البخارى فى صحيحه . وانظر : تاريخ الطبرى جـ٢ ص٢٩٨ـ٢٩٩ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط٤ دار المعارف بمصر.
٥ ـ محمد فى مكة ص٩٣ ٦ ـ ابن سعد : الطبقات الكبرى حـ١ ص١٩٥ طبعة بيروت

المعتبرة لدى المسلمين وكتب السيرة أنها ذهبت لتخبر ورقة بأمر الملك الذى جاء رسولنا « ﷺ » ومنه يتضح :

١ ـ أن لقاء الرسول والسيدة خديجة مع ورقة كان بعد الوحى لا قبله .

٢ ـ أنه لم يسبق للرسول أن التقى مع ورقة من قبل .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن رواية ابن سعد ذكرت أن لقاء خديجة بورقة كان دون محمد « ﷺ » ، وعليه يكون محمد لم يلتق بورقة إطلاقاً .

غير أن المستشرق « واط » مصرّ على أن محمداً التقى مرات ومرات بورقة بل وبغيره من علماء مكة (!) . فيقول: « ويبدو ورقة من بين الذين اتصل بهم محمد لسبب معرفته بكتب المسيحية المقدسة »[1] .

افتراضات وظنون قائمة على التعصب البغيض أدت بالمستشرق ـ المنهجي المحايد(!) ـ إلى دائرة التصور الجاهلي للنبوة والوحي ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ١٠٣] .

أما حديث إمام المحدثين ، البخارى ـ والذى مر بنا ـ عن بدء الوحى إلى نبينا « ﷺ » . والذى ينتهى بـ« ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى » ، فيعقب المستشرق بقوله : « وأما بقية القصة ، من ناحية ثانية ، فهى تشعرنا بمحاولة لتفسير السبب الذى من أجله لم يصبح ورقة مسلماً ، ولسبب آخر مشابه ، فإن النص الذى يجمع بين محمد وورقة أفضل من الذى يجعلهما لا يلتقيان »[2] .

هذا التشكيك ليس من كلام « واط » وإنما هو لـ« كايتانى » استشهد به « واط » لتأييد شكه فى واقعة غار حراء التى ينبنى عليها الوحى إلى نبينا « ﷺ » .

والنص يتهم المحدثين والرواة بالوضع ، فمن ناحية يرون أن من مصلحة محمد أن يلتقى بورقة لما فيه من تأكيد واقعة غار حراء ، ولكنهم وقعوا فى مأزق هو: إذا كان ورقة أكد لمحمد أن هذا الذى جاءه هو الناموس الذى جاء موسى ، أى أن ما جاء محمد هو الحق ، فلماذا لم يؤمن به ورقة ؟ لذلك لجئوا إلى وضع أو زيادة هذه العبارة : : « ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى » .

روى الإمام الترمذى عن النبى « ﷺ » أنه رأى ورقة فى المنام وعليه ثياب بيض . ورد أيضاً قوله « ﷺ » : « رأيت القسّ فى الجنة وعليه ثياب الحرير ، لأنه أول من آمن بى »[3]

---

١ ـ محمد فى مكة ص٩٣ . ٢ محمد مكه ص ٩٢ .

٣ ـ الشيخ أبوبكر الجزائرى : هذا الحبيب محمد « ﷺ » ص٨٦ مكتبة لينه بمصر ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

واضح أن شك «واط» يقوم على دليل، غير أنه ليس إسلامياً، فمراجعنا المعتبرة، والموثوق فيها، مشكوك فيها عنده، دليله هنا نصرانى من بنى جلدته، خصم لنا، «كاتيانى» فى حولياته، لذلك فهو موثق عنده، ولكننا نسأل المستشرق، العالم، المحايد ـ فيما زعم ـ هل يجوز للعالم الباحث، المحايد أن يعتمد على مصادر الخصم للوصول إلى نتيجة سلبية، خاصة وأن الخصم غير حيادى ؟ لقد أسقط الإسلام شهادة الخصم على خصمه .

إن المقدمة الكبرى لدى الاستشراق هى بطلان نبوة محمد «ﷺ»، وكل أبحاثهم إنما هى للتوفيق بين الدلائل التاريخية الناصعة على صدقه وبين مقدمتهم تلك، من أجل ذلك انتهجوا التشكيك فى حقائق التاريخ التى لا تتلاءم مع مقدمتهم .

والحقيقة أن المستشرق «واط» يقول ما لا يفعل فهو يزعم الحيدة والموضوعية والبعد عن الإساءة إلى مشاعر المسلمين، فضلاً عن تناقضه هو وليس علماء الإسلام، فهو فى الوقت الذى يوجه فيه اللوم الشديد لـ«كايتانى» بسبب نزعته الشكية المبالغ فيها، فيقول : «وليس من الصعب تصحيح مبالغاته فى الشك»[1] فى نفس الوقت يعول عليه كمصدر موثوق فيه .

ليس هذا فقط ولكنه هو الآخر ـ وكما رأينا ـ مارس « نوعاً من المبالغة فى شكوكه، ونفيه الكيفى ... ونفيه للعديد من معطيات السيرة عبر عصرها المكى»[2] .

ويبدو أن «واط» أدرك تهافت شكوكه الأخيرة أمام الحقائق التاريخية، فلجأ إلى فرض الفروض، وهو منهج علمى بشرط أن يقوم الدليل عليه سلباً أو إيجاباً فهل فعل ذلك «واط» ؟ لنر .

يقول : « لا شك أن المقطع القرآنى، حين ردده محمد، قد ذكره بما هو مدين به لورقة »[3] .

أى مقطع قرآنى هذا الذى ذكر محمد «ﷺ» أنه مدين به لورقة ؟ يجيب الكاتب بأنه : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[سورة : العلق] .

لو قرأ أى باحث محايد هذا الكلام فى أصح الكتب لنسب قائله إلى التحامل المغالى فيه وإلى الوهم أثبتنا ـ وأثبت علماؤنا ـ أن لقاء ورقة بمحمد «ﷺ» كان اللقاء الأول والأخير، الأول أفادته النصوص ـ التى أوردناها ـ القاطعة، والأخير لأن

١ـ محمد فى مكة ص٩

٢ ـ د عماد الدين خليل · المستشرقون والسيرة النبوية ص٦٤ ٣ـ محمد فى مكة ص٩٣

حياة ورقة لم تدم طويلاً بعد ذلك .

ولكن المستشرق ينطلق من المقدمة التي أشرنا إليها من قبل وهي إنكار نبوة محمد، وينتهي إلى نتيجة يراها مؤكدة، استدلالات « واط » هكذا :

«محمد عقد صلات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة»[1].

«تأثرت التعاليم الإسلامية ـ التي جاء بها محمد ـ اللاحقة كثيراً بأفكار ورقة»[1].

ساق «واط» مقدمته على أنها مسلمة ـ في حين أنها كاذبة وباطلة ، وبنى عليها نتيجة يظن أنها صادقة، ونسي أنه إذا كانت إحدى المقدمات كاذبة كانت النتيجة كاذبة بالضرورة .

* * *

١ ، ١ ـ محمد في مكة ص٩٣ .

المبحث الثالث

الوحي النفسي

كما انتهى بعض المستشرقين، وزعيمهم في الوقت المعاصر « واط » إلى التشكيك في أمية نبينا محمد ﷺ إذ لابد له كتاجر ناجح أن يكون قد تعلم شيئا من الفنون و العلوم التي كانت منتشرة في مكة وما حولها . نقول : انتهوا كذلك إلى أنه لا شك قد تتلمذ على العالم الذي تنصر أخيراً ورقة بن نوفل وعقد معه لقاءات كثيرة ومتعددة . وقد كشفنا عن زيف هذه الادعاءات بالوثائق المعتبرة . فضلاً عن الواقع التاريخي الذي يكذب ما افتروه وروجوا له .

وكما قلنا : لا نطالب هؤلاء أن يكونوا مسلمين أو كالباحث المسلم ، وإنما نطالبهم بالتعامل مع النصوص الشاهدة بحيدة وموضوعية، أما أن يدع المستشرق معتقده ـ يهودية أو نصرانية أو علمانية مادية ملحدة ـ ولغته والرواسب السياسية الحاقدة ، تتحكم في بحثه وتوجهه ، فهذا كفيل باخراجه من دائرة الأبحاث العلمية المعتبرة و المستشرقون أو معظمهم يثيرون الشبهة ، ولعدم ثقتهم أنها تزعزع إيمان المسلم يبحثون في مخيلاتهم عن شبهة أخرى وهكذا ... والشبهة التي نعرض لها الآن ما يسمونه : بالوحي النفسي:

ويعنون به : أن القرآن فيض من خاطر محمد ﷺ أو انطباع لإلهامه ، أي أنه ناتج عن تأملاته الشخصية ، وخواطره الفكرية ، وسبحاته الروحية.

ولغ « درمنغام » في هذه الشبهة ، فذهب يصور الحالة النفسية لنبينا محمد ﷺ أثناء تحنثه في غار حراء ، و الانطباعات النفسية التي تركتها مشاهداته وتأملاته وسبحاته.

يقول : وهذه النجوم في ليالي صيف الصحراء كثيرة شديدة البريق حتى ليحسب الإنسان أنه يسمع بصيص ضوئها . وكأنه نفح نار موقدة :

«حقا إن في السماء لشارات للمدركين ، وفي العالم غيب ـ بل العالم غيب كله ـ لكن ألا يكفي أن يفتح الانسان عينيه ليرى ، وأن يرهف أذنه ليسمع ؟ ليرى الحق، وليسمع الكلم الخالد؟ لكن للناس عيوناً لا ترى، وآذاناً لا تسمع، أما هو ـ أي محمد ـ فيحسب أنه يسمع ويرى . وهل تحتاج لكي تسمع ما وراء السماء من أصوات إلا إلى قلب خالص ، ونفس مخلصة . وفؤاد مليء إيمانا »[1] .

١ ـ الشيخ رشيد رضا · الوحي المحمدي ص٨٠ القاهرة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م

المستشرق هنا يخلط خلطا مفضوحاً بين الوحى وحديث النفس و لا أظنه غير فاهم ، ولكنه يتعمد ، فقد أثبتنا ـ فيما مر ـ أن دلالات النبوة واحدة . وقد انطبقت على محمد ﷺ قدر انطباقها على موسى وعيسى عليهما السلام ـ بل أزيد ـ فما الذى يجعل مثل هذا المستشرق يقف ليصف لنا شاعراً أو فناناً عبقرياً والنبوة ليست من هذا القبيل ؟

يستطرد درمنغام قائلاً : « ... وهناك ـ فى غار حراء ـ كان يقلب فى صحف ذهنه كل ماوعى (١) ... وهو لم يكن يطمع فى أن يجد فى قصص الأحبار وفى كتب الرهبان الحق الذى ينشده، بل فى هذا الكون المحيط ... فلما كانت سنة ٦١٠م كانت الحالة النفسية التى يعانيها محمد « ﷺ » على أشدها ... ووجد فى غار حراء مسرة تزاد كل يوم عمقاً ... وروحه تزداد بالصوم والسهر والإدمان على تقليب فكرته صفاء وحدّة. ونسى الليل والنهار، والحلم واليقظة ... وكأنه يسمع الأصوات تخرج من خلال أحجار الصحراء تناديه مؤمنة برسالته ... وفيما هو يوماً نائم ـ «لاحظ» ـ بالغار جاءه ملك فقال له : اقرأ. قال : ما أنا بقارئ، وكان هذا أول الوحى وأول النبوة »[١]

بعض المستشرقين يقول بأن محمداً تأثر بالعناصر الأجنبية التى كانت سائدة فى مكة وما حولها ـ وسوف نفند هذا الزعم بعد ـ ودرمنغام ـ هنا ـ أيد هذا الزعم إلا أنه أضاف: أن محمداً لم يجد فى هذه الكتب ـ التى كانت متداولة بين مدارس وجامعات مكة ـ ما ترنو إليه نفسه وترومه، فعكف على التأمل، والتأمل العميق فيما حوله، حتى نسى كل شىء، لم يفرق بين ليل ونهار ولا سماء ولا أرض(!) حتى خيل إليه أنه يسمع أصواتاً وليس هناك أصوات، ويرى أشباحاً ـ وليس هناك أشباح، فنام، فجاءه جبريل وقال له اقرأ ... وهذا أول الوحى وأول النبوة .

ماذا يريد المسلمون أكثر من هذا المستشرق يعترف بأن النبى جاءه جبريل وقال له: اقرأ . كما جاء فى مصادرنا المعتبرة ، ولكن هذا كله حدث والنبى « ﷺ » شارد أو مغيب عن الوعى أو نائم .

يريد درمنغام أن يقول: القرآن فيض وجدان محمد « ﷺ » وصورة من انطباع نفسه بما كان يدور حوله وأمام عينيه، والوحى فى رأى هذا المستشرق ليس إلا وحيا من داخل نفس الرسول لا من مصدر خارجى، أى من العقل الباطن لا من رب العالمين.

« درمنغام » يردد كلاماً جاء على لسان فيلسوف لا يؤمن بإله ولا بنبوة، فأنزل

٢ ـ المصدر السابق .

النبوة منزلة الهلوسة وحديث النفس، ذلك هو «أرسطو» الذى ذهب إلى أن الجسد سجن النفس، وأن الإنسان أى إنسان، إذا أجاع الجسد وأمرضه، انطلقت نفسه وعندها تتصل بالعالم العلوى فتسمع أصواتاً وترى أشباحاً ... هذه نظرية النبوة عند الإغريق . والمستشرق، تبنى هذه الأفكار وأسقطها على محمد «ﷺ» ومع هذا كله، ـ والكفيل بإسقاط هذا الكلام ـ نسأل من أين أتى درمنغام بهذه السيرة المدعاة لنبينا؟ هل بين يديه مصادر غير التى بين أيدينا؟

حديث بدء الوحي عرضنا له في الصفات السابقة ليس فيه شيء من هذا التجنى المفضوح ، أما ردنا على درمنغام فيتلخص فى الآتى :

١ ـ النبوة اصطفاء ، واجتباء ، ليست عملاً كسبياً ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٥] .

٢ ـ لو كانت النبوة أمراً كان يرجوه محمد ويتوقعه وكان قد تم استعداده بالاختلاء والتعبد فى الغار وكان فكره مضطرباً وقلبه ملتهباً ... ثم تم له رجاؤه ومبتغاه، لوكان الأمر كذلك لظهر عقب ذلك ما كانت تنطوى عليه نفسه الوثابة وفكرته الوقادة[١] .

ولو كان اختلاؤه وتحنثه استعداداً للنبوة لاعتقد حين رأى جبريل حصول مأمولة وتحقق رجائه، ولم يخف منه على نفسه .

يقول الشيخ محمد عبده: « من السنن المعروفة أن يتيما فقيراً أمياً مثله ـ أى مثل محمد ـ تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه، لاسيما إذا كان من ذوى قرابته، وأهل عصبته، ولا كتاب يرشده، ولا أستاذ ينبهه، ولا عضد إذا عزم يؤيده، لو جرى الأمر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم، وأخذ بمذاهبهم إلى أن بلغ مبلغ الرجال، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع إلى مخالفتهم، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم كما فعل القليل ممن كانوا على عهده[٢] .

ولكن الأمر لم يجر على سنته، بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره ـ ليصنعه الله تعالى على عينه[٣] ـ فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسن الخليقة »[٤]،

---

١ ـ الوحي المحمدى ص٩٤ .
٢ ـ كعمرو بن نفيل وورقة وقد أشرنا إليهما من قبل وأمية ابن أبى الصلت .
٣ ـ أنظر : عصمة الأنبياء بين اليهودية والمسيحية والإسلام . للمؤلف .
٤ ـ رسالة التوحيد ، ص١١٩ ، ١٢٠ دار إحياء العلوم بيروت ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .

فتجلى له الوحى الإلهى بأكمل معانيه .

٣ ـ أين كان استعداد محمد للوحى الذاتى المزعوم حين فتر الوحى ولزم محمد الصمت؟ إن هذا السكون فى فترة الوحى دليل قاطع على بطلان ما أفك درمنغام وغيره من المستشرقين .

٤ ـ من أين خبر أو علم درمنغام أن محمداً « ﷺ » نسى الليل والنهار، والحلم واليقظة ، إن المستشرق يتجاهل روايات السيرة ليفترى عليها وليستنبط من افتراءاته أن النبى فقد عقله فهو غائب عن حسه ، غارق فى بحر لجى من خياله ، أثمر له انبثاق ذلك الوحى من نفسه وتخيله (!) .

٥ ـ وهل العتاب الشديد ـ أحياناً ـ للرسول « ﷺ » فى القرآن ، كان أيضاً من عند نفسه ؟ أما كان يخشى أن ينفض عنه الأصحاب والأصدقاء ؟ .

٦ ـ أما سأل «واط» ـ ومن يلف لفه ـ نفسه،كيف أمكن أن يتوهم محمد «ﷺ» نزول الملك عليه آلاف المرات فى نحو ثلاث وعشرين سنة من غير أن يتبين خطأ نفسه، أو يتبين أتباعه خطأه؟ أم كيف أمكن أن يتفق توهمه مع الحقائق الخارجية فى تلك السنين الكثيرة ؟ وما بعدها كغلبة الروم مثلاً .

و المستشرق «واط » يجمع بين النقيضين حين يجمع بين الصدق و الكذب فى آن واحد . فهو يقول بصدق محمد وكذب رسالته . ولقد كشفنا ـ فيما سبق ـ عن بعض أوجه إعجاز القرآن وهو لا يخفى عن المستشرقين عجز العرب ـ وهم أهل اللسان و البيان ـ قاطبة عن تحديه ، وعن الإتيان بأقصر سورة فيه .

إن محمداً ﷺ لم يكن ـ فى حياته ـ معتزلاً العالم فى صومعة أو جب ولكنه كان فى معترك الحياة ، يحاج ويدعو الناس إلى دين الله .

وفى نفس الوقت لن نعدم أن نجد من المستشرقين من يدفع هذه الضغائن ، وهذا الحقد ، يقول المستشرق (ليتن)[1] lightner « .. مرة أوحى الله تعالى إلى النبى ﷺ وحياً شديد المؤاخذة لأنه أدار وجهه عن رجل فقير [2] ليخاطب رجلاً غنياً من ذوى النفوذ ، وقد نشر ذاك الوحى ، فلو كان ﷺ كما يقول أغبياء النصارى بحقه لما كان لذلك الوحى من وجود »[3]

---

١ ـ باحث انجليزى حصل على اكثر من شهادة دكتوراه فى الشريعة و الفلسفة و اللاهوت . زار الاستانة عام ١٨٥٤ م .

٢ ـ اشارة إلى قوه تعالى : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » .

٣ ـ لا يتنر: دين الاسلام. ترجمة عبد الوهاب سليم ص١٣٢، ١٣٣ .المكتبة السلفية. دمشق ط ١٣٤٢هـ

أما أن النبى ﷺ كان متهيأ مستعدا للنبوة متطلعاً إليها ، فان « كارليل » يفند هذا الزعم بقوله : « ومما يبطل دعوى القائلين أن محمداً ﷺ لم يكن صادقاً فى رسالته... أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه فى تلك العيشة الهادئة المطمئنة... لم يحاول أثناءها إحداث ضجة و لا دوى ، مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطان... ولم يك إلا بعد أن ذهب الشباب و أقبل المشيب... »(١) .

قد يقول قائل ممن يحسنون الظن بالمستشرقين المعاصرين ، لقد أطلت الوقفة عند كلام قديم و أخطاء اعتذر عنها وصححها ، كثير من المستشرقين المعاصرين .

نقول : قد يكون صحيحاً القول بأن ألوان التحامل القديم على الإسلام قد خفت حدتها إلى درجة كبيرة منذ مطلع هذا القرن، ولكنها للأسف الشديد لا تزال تعيش قوية، ولا تزال هناك فئة من المستشرقين تحرص حتى اليوم على نشر ألوان التحامل القديم فى العالم الغربى على نطاق واسع وبأساليب مختلفة(٢) .

إن كتابات أمثال جولد تسيهر وكيتانى ودرمنغام أصبحت حجة عند من جاء بعدهم .

المستشرق « مونتجمرى واط » والذى يوصف كثيراً بأنه متعاطف مع المسلمين، ويقول عن نفسه أنه محايد و أنه موضوعى، وأنه يبحث بحثا تاريخياً دون ما أدنى إساءة إلى المسلمين .

رأيناه ـ فيما مر ـ يشكك فى أمية الرسول، ويقف طويلاً أمام اللقاء الأول والأخير لنبينا محمد «ﷺ» مع ورقة ، وقد فندنا كل ما أثاره بشأن الأمية وقصة ورقة .

يقول «واط» : «ولابد أن محمداً قد عرف منذ شبابه بعض المشاكل الاجتماعية والدينية فى مكة، ولا شك أن وضعه كيتيم قد أطلعه على القلق السائد فى المجتمع، وربما كانت أفكاره من وجهة النظر الدينية ترجع إلى التوحيد الغامض الذى نلاحظه عند المكيين المثقفين، ولكن يضاف إلى ذلك أنه ولا شك(!) فكر ببعض الإصلاح فى مكة، وكان كل ما يحيط به يساعد على أن يوحى إليه بأن هذا الإصلاح يجب أن يكون أولاً إصلاحاً دينياً . ولهذا نرى محمداً يصبو إلى الخلوة للتفكير فى الأمور الإلهية ويقوم ببعض العبادات، وربما كان ذلك للتكفير عن الخطايا »(٣) .

---

١ ـ كارليل : الأبطال ص ٥١ ، د . عماد الدين خليل : السابق ص ١٢٤ .
٢ ـ د . محمود حمدى زقزوق : الاستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ٩٦ دار المنار مصر ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م
٣ ـ محمد فى مكة ص ٨٢

هذا الكلام ترديد لكلام « درمنغام »، فضلاً عن أفكار « أرنست رينان » فى الموسوعة البريطانية، حيث صور المجتمع العربى فى مكة بأنه كان مجتمعاً موحداً يعبد الله الواحد، وكان يصدر عن عقيدة التوحيد .

ثم إن « واط » كشف عن حقيقة منهجه فى تناوله للإسلام، حين قال : « ... ذكر الحوادث التاريخية ليس بعيداً عن الاهتمام العقدى ، فإن مؤيدى علم الاجتماع المعرفى يرون أن الأفكار العقدية والفلسفية ذات مرجع سياسى أو اجتماعى »(١) .

هكذا (!) الأفكار العقدية مصدرها ـ أحداث سياسية أو اجتماعية ، على كل حال « واط » يزيد موقفه وضوحاً وتحديداً ، فيذكر أن عالم الاجتماع العلمانى يقبل آراء المتدينين كحقائق اجتماعية ، وليس كحقائق إيمانية غيبية .

أما كونها حقيقة (خاصة ما يثبت عن طريق الوحى الإلهى) أوغير حقيقية، فهذا لا يدخل فى دائرة اهتمام العالم الاجتماعى. وإنما يهتم بذلك الرجل المتدين ... والأول يتعامل مع هذه العقائد من خلال الواقع المشاهد.

و«واط» يفضل منهج عالم الاجتماع على نظرات المتدين ، باعتبار أن العالم الاجتماعى يعتمد على النظرة الموضوعية ـ حسب زعمه ـ الخالية من ذاتية المتدين لذلك نجده يصور لنا محمداً مصلحاً اجتماعياً اشتراكياً أهمه مشاكل قومه الاجتماعية والسياسية والدينية، ومحمد كاشتراكى أخذ يفكر فى طريقة للإصلاح، فكانت العزلة فى غار حراء، بعيداً عن ضجيج مكة، وحتى تأتى أيديولوجية محمد متوافقة مع حالة المجتمع .

دوافع العزلة كما تصورها هذا المستشرق أمران :

الأول : الإصلاح الاجتماعى الذى وجده محمد فرصة لتحقيق ما كان يتطلع إليه وانطوت عليه نفسه طويلاً وهو رغبته فى النبوة (!) .

الثانى : ليكفر عن خطاياه، وهذا يفترض أن محمداً كان ـ وحاشاه ـ فحاشاً، لعاناً ، طعاناً ، فأراد العزلة لذلك (!) .

هل هذه استنتاجات علمية؟ وهل هذه تقنع حتى العقل الأوربى ؟ أما العقل المسلم فإنه موقن، مصدق بما قاله ربنا جل وعلا فى شأنه « ﷺ » : ﴿ وما كُنت ترْجو أن يُلْقىٰ إليْك الْكتابُ إلاَّ رحْمةً مّن رَّبّك فلا تكُوننَّ ظهيرًا لّلْكافرين (٨٦) ﴾ [القصص: ٨٦] أى لم يكن يرجو أن يكون نبياً أو يتلو قرآناً، ولا يعرف ذلك .

١ ـ W . M . Watt , Islamic Philo Small and Theology , Britian:

وفي مجال تفنيد هذه المزاعم والافتراءات نختار اثنين من المستشرقين بسبب آرائهما حول الموضوع وليس بسبب آرائهما في أى موضوع آخر .

يقول «مارسيل بوازار» : «.. لقد كان محمد «ﷺ» نبياً لا مصلحاً اجتماعياً، وأحدثت رسالته فى المجتمع العربى القائم آنذاك تغييرات أساسية ماتزال آثارها ماثلة فى المجتمع الإسلامى المعاصر»[١] .

ثم يستطرد مارسيل قائلاً : « مما لا ريب فيه أن محمداً « ﷺ » قد اعتبر، بل كان فى الواقع، ثائراً فى النطاق الذى كان فيه كل نبى ثائراً بوصفه نبياً، أى بمحاولته تغيير المحيط الذى يعيش فية »[٢] .

أما زعم «واط » أن محمداً «ﷺ» مااعتزل الناس فى غار حراء إلا تكفيراً عن بعض خطاياه، أو هروباً من حر مكة، كما صرح فى موضع آخر، فإن هذا مدفوع بما قدمناه من حقائق، وأيضاً بما يقوله المستشرق «هنرى دى فاسترى» الذى علل عزلة الرسول بالهروب (من عبادة الأوثان ومذهب تعدد الآلهة الذى ابتدعه المسيحيون، وكان بغضهما متمكناً من قلبه وكان وجود هذين المذهبين أشبه بإبرة فى جسمه « ﷺ »)[٣] .

مونتجمرى واط يكشف عن هدفه، فيقول عن كيفية من كيفيات الوحى فى الفترة المكية: «ولا شك أننا أمام تعبير داخلى من النوع الفكرى أكثر منه من النوع الخيالى، ولربما لم يصحب ذلك أية رؤية حتى ولو كانت فكرية»[٤].

ثم يتكلم «واط» عن كيفية أخرى ـ أكثر تطوراً من سابقتها ـ فيقول: إن «الوحى كان عندئذ كما يبدو من نوع التعبير الخيالى ولكنه مصحوب بدون شك برؤية عقلية أو خيالية لجبريل، ويوحى قول الحديث « على صورة إنسان » ... بأنها كانت رؤية خيالية »[٥] .

يريد المستشرق أن يقول : إن الوحى القرآنى ليس شيئاً خارجاً عن الذات المحمدية ، وإنما منها نبع ، لقد وصل المكر بهذا المستشرق الاعتماد على القرآن ليلقى بهذه الفرية، ولكن هيهات [٦] فاللقاء بيِّن والتلقى كان يتم بين ذاتين: ذات النبى المتلقى،

١ ـ مارسيل بوازار : إنسانية الإسلام ص٩٩ ترجمة د، عفيفى دمشقية . دار الأدب . بيروت ١٩٨٠م
٢ ـ المصدر السابق .
٣ ـ هنرى دى فاسترى : الإسلام : خواطر وسوانح ص١٦ ، ١٧ .ترجمة أحمد فتحى زغلول باشا . مطبعة الشعب . القاهرة ١٩١١م وانظر : د. عماد الدين خليل : السابق ص٩٩، ١٠٨.
٤ ـ محمد فى مكة ص٩٨ ـ٩٩ .　　　　٥ ـ محمد فى مكة ص١٠٠ .
٦ ـ أنظر . منهج مونتجمرى واط فى دراسة نبوة محمد للدكتور، جعفر شيخ إدريس ص ٢٣١ (مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية جـ١).

وذات جبريل الملقى بأمر الله تعالى ، فهما ذاتان منفصلتان تمام الانفصال، وآيات القرآن ووقائع السيرة النبوية تؤكدان على هذه الحقيقة، فالموحى به من خارج ذات محمد « ﷺ » ، فضلاً عن أنه لم ينسب ما جاء به لنفسه وإنما أعلن أنه من خارج ذاته .

يقول صاحب « الإسلام خواطر وسوانح » : « ... لو رجعنا إلى ما وضحه الحكماء عن النبوة ولم يقبله المتكلمون من المسيحيين لأمكننا الوقوف على حالة مشيد دعائم الإسلام وجزمنا بأنه لم يكن من المبتدعين ... ومن الصعب أن نقف على حقيقة سماعه لصوت جبريل ـ عليه السلام ـ إلا أن معرفة هذه الحقيقة لا تغير موضوع المسألة لأن الصدق حاصل فى كل حال »[١] .

و «واط» أساء فهم الحديث حين استدل بمجيء الوحي إلى الرسول على«صورة رجل» على أنها صورة تخيلها محمد «ﷺ». أم أنه يستبعد أن يتشكل الوحي بالصورة البشرية. إن كان كذلك فليقل هذا صراحة ولا يسيء فهم الحديث .

ونقول له : هل تنكر تشكل الوحي بالصورة أو الهيئة البشرية عندما يكون الأمر يتعلق بالإسلام ونبي الإسلام، ولا تستنكر ما فعله اليهود حين شبهوا الخالق بالمخلوق، وزعموا أن الله جل وعلا تجسد فى صورة إنسان لكل من إبراهيم ويعقوب، وأنه تعالى طعم مع الملكين اللذين حضرا معه لزيارة إبراهيم، واستراح فى ظل شجرة ؟[٢].

أما القرآن الكريم ـ الذى يعتبره كثير من المستشرقين أوهام وتخيلات تتنزل من مخيلة محمد «ﷺ» فإنه يخبرنا أن الذين أتوا إبراهيم هم الملائكة وبشروه بإسحاق ويعقوب .

وما العجب أو ماوجه الاستنكار ـ والتجنى على الوحي الإلهي إلى رسول الله ـ أن ملائكة الله يمكن أن يظهروا للأنبياء والرسل فى صور بشر[٣]، كما فى حديث رسول الله الذى ترويه أم المؤمنين عائشة «أن الحارث بن هشام، سأل رسول الله «ﷺ» فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ـ وهو أشده عليَّ ـ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى، فأعى ما يقول، قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً» .

---

١ ـ هنرى دى فاسترى : السابق ص٦ . ٢ ـ سفر التكوين : الإصلاح ١٨ : ١ ـ ١٥ .
٣ ـ أنظر : نبوة محمد « ﷺ » للمؤلف ، وأيضاً : ابن خلدون · المقدمة .

ينكر «واط» أن يكون جبريل جاء الرسول على هيئة رجل ، وواضح أن الإنكار ليس لذات الواقعة وإنما ليصل أو ليوحي للقارئ الأوربي ، أنه لم يكن هناك وحي، ولا جبريل، وإنما هي تصورات وتخيلات نابعة من مخيلة محمد .

وفضلاً عما سبق نسأله :ما رأيك في قيامة المسيح ؟ـ بصرف النظر عن كونها حدثت أم أنها افتراء،وعن الاضطراب في إيرادها عند متى وعند مرقس ـ ذكر مرقس أن ملاك الرب كان جالساً داخل القبر وأنه ظهر أولاً لمريم المجدلية ثم ظهر بهيئة أخرى لاثنين من تلاميذه ، ثم ظهر للأحد عشر ووبخهم لعدم إيمانهم بظهوره ثم ارتفع إلى السماء وجلس على يمين الله[1] .

ملاك الرب عند مرقس يتفاعل وينكمش حتى يتمكن من الجلوس في حفرة (٢×٢) ثم يتشكل، ويظهر بهيئة أخرى، ثم في هيئة ثالثة ـ لا عليك من جلوسه على يمين الله ـ هذا حلال للمستشرقين والمنصرين، حرام وخرافة وتخيلات عندنا .

طـرفة :

طرفة لأن المستشرق الإنجليزي « واط » أراد ـ عن غير قصد ـ أن يسري عنا ، ويضحكنا بعد هذا الهراء المغلف بالمنهجية والموضوعية والحيادية .

يصر «واط» على أن القرآن كتاب بشري ، وأن الوحي داخلي ، لذلك كان محمد مسيطراً عليه ، بإمكانه استدعائه وصرفه في أي وقت يشاء . فمخيلة محمد «ﷺ» كجهاز «الكمبيوتر» تخزن فيه المعلومات ثم تستدعي حسبما يريد الإنسان .

يقول في كتابه « محمد في مكة » : « ومن المهم أن نعرف إذا كان محمد يستخدم طريقة ما لإثارة الوحي ، ولا نستطيع التأكيد بأنه كان يرتدي دثاراً من أجل هذا الغرض ، وكل شيء يحملنا على الاعتقاد أن الوحي كان ينزل عليه في بداية الأمر بصورة غير منتظرة، ولكنه من الممكن أن يكون فيما بعد وسيلة فنية تقنية للسمع وربما كان ذلك بترتيل القرآن أثناء الليل .

وإذا كان يحدث لمحمد أن يثير تجارب الوحي بواسطة الاستماع فإن (التنويم المغناطيسي الذاتي) أو أي شيء آخر ليس من اختصاص حكم الفقيه »[2] .

اعترف « واط » بنزول الوحي على محمد «ﷺ» بطريقة غير منتظرة ، وهذا جيد منه ، غير أنه لم يقم على هذا الاعتراف ،فبعد أسطر قليلة زعم أن محمداً كان

---

١ ـ مرقس :١٦ :١ـ١٥ يوحنا : ٢٠ :١ـ١٨ ، بوكاي : دراسة الكتب المقدسة ..ص٨٤ عام١٩٧٧م .
٢ ـ محمد في مكة ص١٠٢ .

بإمكانه تحضير الوحي بالتنويم الذاتي تارة وثانية باستعمال الدثار «يا أيها المدثر»، وثالثة بترتيل القرآن بشرط أن يكون ليلاً وبتمهل(!)

تجاهل « واط » ـ وكثير غيره من المستشرقين ـ أحداث السيرة النبوية ـ وهو رجل التاريخ، الموضوعي، المحايد ـ والتي نقلت ـ فيما نقلت ـ أحداث ووقائع نزول الوحي، وكيف أنه كان يأتي النبي فجأة ، وهو في المسجد ، وهو جالس مع صاحبته، وهو على راحلته ...

وقد يتمثل الملك رجلاً يراه من يكون في حضرة النبي ، على نحو ما جاء عن أمير المؤمنين عمر، قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله « ﷺ » ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثوب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي « ﷺ » فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله...إلخ . قال صدقت .

قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه ...» الحديث .

ظهر جبريل ـ إذن ـ ورآه بعض الصحابة في صورة رجل ، ولو كان السائل من المسلمين لعرفوه ولتكررت رؤيتهم له بعد ذلك .

نقول إنه تجاهل المصادر المعتبرة عندنا ورجع إلى خصوم ديننا كما هو ثابت في ص١٠٢ من كتابه محمد في مكة ـ رجع إلى «اهرنس» و«أرثر» و«نيوهفن» ويعد «كايتاني» من مراجعه الأصلية .

والمستشرق متأثر بالمدرسة الروحية الحديثة التي ظهرت في أمريكا في بداية هذا القرن والتي تدعي استحضار أرواح الموتى ، وأن وحي الأنبياء من هذا القبيل .

وفي كتاب آخر له زعم أن مصدر الوحي هو :

اللاوعي الجماعي Collective un Conseiousness أي أن موضوعات الوحي كانت موجودة في اللاوعي عند محمد « ﷺ » ، وهي مستقاه من المحيط الجماعي الذي عاش فيه قبل البعثة ... وما كان الملك (جبريل) إلاَّ خيالاً أدى إلى حضور تلك الموضوعات إلى وعيه ، في الحالة التي يسميها وحي[1] .

يزعم «واط» أنه مؤمن غير مادي ولا ملحد، ولنا أن نقابل زعمه: أن مصدر الوحي

---

١ ـ Watt : The Islamic Revoltion in The Modern warld.1969 . PP190 -191.

د. عبدالحميد غراب : رؤية إسلامية للاستشراق ص١٠٨ سنة ١٤٠٨هـ .

هو: «اللا وعي» للنبي، بما قاله المؤرخ الغربي الملحد « تونبي» : «إن المشاهدة القابلة للفهم على السطح الشعري من اللا شعور تسمى النبوة»(١) .

وفضلاً عن كونها نظرة مادية إلى الدين فإن الوحي بمقتضاها لا وجود له .

ولو أن « واط » فكر في هذه النتيجة فإنه سيصل إلى تكذيب الوحي إلى موسى وعيسى أيضاً .

وبمفهوم المخالفة فإن نظريتهم في اللاوعي أو اللا شعور تؤدي إلى إثبات الوحي إلى محمد « ﷺ » . كيف؟ .

اللاوعي أو اللاشعور ـ حسب مفهومهم ـ هو انطباع النفس بما تراه وتشاهده في المجتمع ... وفي مرحلة متأخرة تظهر هذه الانطباعات ، أو تنفلت، أو تطفو على السطح أي إلى الوعي أو الشعور، أي أنها مختزنة ولا يشعر بها الإنسان إلا بعد انفلاتها، وظهورها ومع هذا لا يعرف مصدرها .

فهل جرت حياة محمد « ﷺ » على هذا النمط ؟ لقد « بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعالجته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة »(٢)

وقد كان يكفينا هذا وما اقتبسناه ـ فيما سبق ـ من رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده(٣) . ولكن نطرح هذا السؤال فالإجابة لها فوائد عظيمة .

هل القرآن الكريم، وهو وحي الله تعالى إلى محمد ـ انبثاق خلاق من اللا وعي المحمدي عند كثير من المستشرقين ـ يتوافق مع عقائد المجتمع المكي الذي نشأ فيه محمد حتى أوحي إليه ؟

أولاً : جاء القرآن بالتوحيد وهم مجتمع وثني فنعى عليهم ذلك ، وعنفهم ، وندد بهم : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النحل: ١٧] .﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[النمل: ٦٠] ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٦١] ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل: ٦٤]ولكنهم تعجبوا أن جاءهم بغير ما هم عليه، جاءهم بالتوحيد: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] .

جاءهم محمد « ﷺ » بالأخلاق السامية الرفيعة ، أما أخلاقهم فيبينها القرآن

١ ـ Historian's Approach to Religion ,p.123.

وحيد الدين خان : الدين في مواجهة العلم ص٩٢ ترجمة : ظفر الإسلام خان . كتاب المختار بالقاهرة ط٤

٢ ـ محمد عبده : رسالة التوحيد ص ١٢٠ .

٣ ـ أنظر ص١٢٢ من هذا الكتاب .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : ٥٨ ، ٥٩]. ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ [الإسراء : ٣١ ، ٣٢]. ﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ [الفرقان : ٧٢]. ﴿ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) ﴾ [الإسراء : ٢٦].

جاء القرآن يستنكر عليهم الرق ويأمر بتحرير الرقيق ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) ﴾ [البلد : ١٢ ، ١٣]. ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء : ٩٢].

وسؤال آخر هل يستطيع محمد « ﷺ » بانطوائه على نفسه ، أن يكتشف حادثاً ما ، وقع فى تاريخ ما من الزمان الغابر ؟ إن التاريخ الإنسانى لا يخضع لمنطقنا لأنه قد يشتمل على أحداث تتعارض مع ما يقبله العقل .

حسبنا هذا فليس من غرضنا الإحصاء ، وإنما إثبات زيف زعم هذا المستشرق ، فما إدعاؤه إلا خيال مريض .

نخلص مما سبق أن الوحى الخاص إلى محمد « ﷺ » ، فى الرؤية الإستشراقية هو من نوع الصور الجميلة التى تكون فى مخيلة الفنان أو الشعر الرائع الذى يكون فى وجدان الشاعر . أو هو ليس سوى صوت اللا شعور أواللاوعى المحمدى (١) .

○ ما أخذه محمد ﷺ من القصص التوراتى و الإنجيلى :

من الكلمات التى يطلقها المستشرقون ويعتقدون مرورها فى غفلة من المسلمين، مثل قول المستشرق «جرينباوم» «إن الإسلام يمزج دائما بين المقدرة على تمثيل العناصر الأجنبية مع درجة معينة من العزوف عن الإقرار بالأصول التى استمدت منها»[١]

ماذا يريد جرينباوم أن يقول ؟ يشير « فيليب حتى » إلى بعض ما يريد قوله: «وتكاد كل القصص التاريخية فى القرآن يكون لها نظير فى التوراة باستثناء بعض قصص قلائل عربية خالصة تشير إلى عاد وثمود ولقمان وأصحاب الفيل... »[٢]

أما المستشرق اليهودى «جويتى » فقد نسج على منوال سابقيه، فيقول: «.. ولقد أتى محمد ﷺ بقصص تكاد تطابق ما جاء فى التوراة ، مع بعض التشويه لبعض الحقائق عن الأنبياء ، وربما نتج عن شعوره بأنه خير هؤلاء جميعاً وخاتمهم ، ولقد

١ ـ G.E. Von Grume baum , Islam : Essays im the nature and Grawth of culturel Tradition (london.:1961,228 د . طباوى ص ١٨٨

٢ ـ حتى ، تاريخ العرب ص ١٥١ ط٣ ١٩٥٣ دار العالم العربى . القاهرة .

شملت قصصه بعض أنبياء بنى إسرائيل : كنوح وسفينته ، وإبراهيم وزوجته ، وموسى ومعجزاته الحسية ، وداود وسليمان ، وتوليهما الملك، وتزويدهما بالحكمة ، وغيرهم، ولكن أغفل ذكر كثير من الأنبياء و الملوك ذوى الشأن فى الديانة اليهودية (١).

ولمجرد الطعن فى القرآن أقدم بعض المستشرقين على إنكار عاد وثمود : «وأنكر الكوارث التى أصابتهم بغير حجة ، إلا أنه يحسب أن المنكر لا يطالب بحجة ، ولا يعاب على النفى الجزافى . فما لبثوا طويلاً حتى تبين لهم أن عاداً Oadita وثمود Thamudida مذكورتان فى تاريخ بطليموس وأن اسم عاد مقرون باسم (إرم) فى كتب اليونان فهم يكتبونها (إدراميت) Adramitae ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد وإرم ذات العماد ... وعثر المنقب موزيل التشيكى Musil صاحب كتاب الحجاز الشمالى على آثار هيكل عند مدين منقوش عليه بالنبطية و اليونانية وفيه اشارة إلى قبائل ثمود(٢).

الجميع يريد نزع ثوب قداسة الوحى القرآنى برده إلى اليهودية تارة وإلى النصرانية أخرى ، وجعل القرآن بشرى المولد!

يقول كايتانى : « واستطاع ابن عباس زمن الفتوحات الكبرى أن يتفهم بوضوح تفوق الحضارة المسيحية ، وأن يتعرف على العديد من العيوب و الثغرات المخجلة للعقيدة الجديدة التى حاول محمد خلق أساس لها فى تاريخ اليهود القديم، ولكنه لم يوفق بشكل تام فى ذلك فتأهب ابن عباس لسد هذه الثغرة ودرء هذه العيوب » (٣).

قد تكون المسيحية من جانبها المادى الذى يعرف بالمدنية اكثر تفوقاً ، ولكنها أكثر انحطاطا فى جوانب الثقافة ، ودليل ذلك انهيارها بسرعة أمام الفتح الإسلامى (٤)

ما هى هذه العيوب و الثغرات فى العقيدة ؟ لا إجابة . أين مواضعها فى الكتاب ــ وحاشاه ــ و السنة، لا إجابة. وسوف نرى بعد قليل أن كايتانى يطعن الإسلام والتهم اللاصقة بعهديه: القديم و الجديد، أى رمتنى بدائها و انسلت !

لقد أشبعنا المستشرق رداً على افتراءاتهم، كما أشبع القول حول مزاعمهم عدد من علمائنا، غير أنى أدع المستشرق الفرنسى «بوكاى » يقول قولاً لبنى جلدته: «إن

١ـ Goitein : Jews and Arabes..PP.28-30

٢ ـ الاستاذ العقاد : مطلع النور ص ٧٤ سلسلة كتاب الشهر . مصر ديسمبر ١٩٦٨ م .

٣ ـ كايتانى : مقدمة كتاب حوليات الإسلام ترجمة محمد احمد شلوف ص ٣٨٢ ضمن كتاب : (من قضايا الفكر الإسلامى كما يراها بعض المستشرقين) منشورات كلية الدعوة الإسلامية طرابلس . ليبيا ١٩٨٨ م .

٤ ـ د . الصديق بشير نصر : تعليقات على المصدر السابق ص ٤٢٤

اليهود و المسيحيين و الملحدين فى البلاد الغربية يجمعون على الزعم ، وذلك دون أدنى دليل بأن محمداً ﷺ كتب أو استكتب القرآن محاكياً التوراة ، ويزعم البعض أن هناك أقوالاً قرآنية فى التاريخ الدينى تفيد أقوال التوراة و الإنجيل ، مثل هذا الموقف لا يقل استخفافاً عن ذلك الذى يقود إلى القول بأن المسيح أيضا قد خدع معاصريه باستلهامه للعهد القديم فى أثناء تبشيره . فكل إنجيل متى ، كما رأينا ، يعتمد على تلك الاستمرارية مع العهد القديم . أى مفسر هذا الذى تعن له فكرة أن ينزع صفته كرسول لله لذلك السبب ؟

« ومع ذلك فهكذا فى الغرب يحكم على محمد(ﷺ)فى غالب الأحيان : يزعمون أنه لم يفعل أكثر من أن نقل التوراة و الإنجيل.وذلك حكم بلا محاكمة لا يضع مطلقاً فى اعتباره أن القرآن و التوراة و الإنجيل قد تعطى عن نفس الحدث روايات مختلفة،ولكنهم يفضلون السكوت على اختلاف الروايات،ثم يعلنون أنها متماثلة وبالتالى يتماشون عن تدخل المعارف العلمية»(١)

وأقف وقفة قصيرة عند قول «جويتين» ـ الذى أسلفناه ـ أن . محمداً أخذ قصصه القرآنى من التوراة غير أنه جاء مشوهاً للحقائق عن الأنبياء ، وعلل ذلك بحقد محمد على إخوانه الأنبياء السابقين فغمط حقهم ، وحقرهم وقلل من شأنهم حتى يظهر هو بمظهر البطولة و أنه خاتم الأنبياء .

وهذا الكلام لا يقوله إلا إنسان لم يطلع ـ مجرد اطلاع ـ لا على القرآن ولا على التوراة .

الأنبياء فى القرآن هم الصفوة الممتازة الذين اصطفاهم الله من بين البشر واختصهم بصفات الكمال الخلقية و الخلقية و جعلهم السفراء الأمناء فى حمل الدين وتبليغه إلى الناس .

و المتتبع لآيات الله فى القرآن الكريم التى تتحدث عن الأنبياء و المرسلين يجدها تصفهم بأسمى الصفات و المواهب العقلية و الخلقية و العلمية ، كل ذلك يدل على أنهم صفوة الخلق ، و المثل الكامل للإنسانية و لعظم مهامهم ، اقتضت حكمة الله تعالى أن يحفظهم بعنايته ويكلأهم برعايته ، ويربيهم على عينه ، قال تعالى للكليم موسى﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طـه : ٣٩] وقال للنبى الخاتم محمد بن عبد الله ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨].

---

١ ـ موريس بوكاى : دراسات الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ص ١٤٩ . دار المعارف لبنان ١٩٧٧ م .

من هنا أجمع المسلمون على عصمتهم من الخطأ و الزلل ، ونفوا عنهم الكذب و الخيانة واتباع الباطل فى الأقوال و الأفعال ، وكل ما يشين .

و الجمهور على أنهم معصومون قبل النبوة وبعدها واحتجوا بما نقل عن الرسول ﷺ « ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا مرتين من الدهر كلتاهما يعصمنى الله منها » [(١)] . وبقول تعالى: ﴿ولتصنع علي عيني﴾ ففى ذلك دليل على أن الله رعاهم منذ الصغر ، وجعلهم سبحانه من المصطفين الأخيار . كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧] فلابد إذن أن يكونوا معصومين ومحفوظين قبل النبوة وبعدها [(٢)] .

○ الأنبياء و المرسلون فى التوراة و الإنجيل :

لم يكتف اليهود بنسبة المعصية إلى الأنبياء وعدم الإعتقاد بعصمتهم ، بل إنهم جعلوا منهم قادة ورواداً للفجور و الدعارة و ارتكاب أعظم الآثام و الشرك و الكفر بالله .

وكتب أهل الكتاب ـ المقدسة ـ ترمى بعض كبار الأنبياء بكبائر الفواحش المنافية لحسن الأسوة بل المجرئة على الشرور و الفساد.

١ ـ نسبت التوراة إلى « لوط » ـ عليه السلام ـ شرب الخمر حتى سكر ، ثم ضاجع ابنتيه فزنى بهما واحدة بعد أخرى [(٣)]

٢ ـ أما داود ـ عليه السلام ـ فإنه تآمر على قائد جيشه فقتله ودخل بزوجته، جاء فى سفر صموائيل :

كان داود يتمشى : « على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم . وكانت المرأة جميلة جداً فأرسل داود وسأل عن المرأة .. فقال واحد : امرأة أوريا . فأرسل داود رسلا و أخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهى مطهرة من طمسها ثم رجعت إلى بيتها . وحبلت المرأة من داود . فكتب داود مكتوبا يقول فيه : اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة و ارجعوا من ورائه فيضرب ويموت » [(٤)]

هذا بعض ما نسبه اليهود إلى نبى الله داود الذى قال فيه الله تعالي في قرآنه الكريم :﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤]وقال عنه : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْن

ـــــــــــــــــ
١ـ ابن كثير : السيرة النبوية ط جـ ١ ص ٢٥٢
٢ـ انظر : عصمة الأنبياء بين : اليهودية و المسيحية و الإسلام للمؤلف .
٣ـ سفر التكوين ١٩ : ٣٠ ٤ ـ سفر صموائيل الثانى ١١ : ١٠٠

مآبٍ ﴿٤٠﴾ [ص: ٤٠]

غير أن ما نسبوه إلى داود يناقض ما جاء في نفس السفر على لسان داود «يكافئني الرب حسب بري . حسب طهارة يدي يرد علي . لأني حفظت طرق الرب ولم أعص إلهي ، لأن جميع أحكامه أمامي وفرائضه لا أحيد عنها . وأكون كاملاً لديه وأتحفظ من إثمي . فيرد الرب على كبري وكطهارتي أمام عينيه »(١)

سفر واحد يجمع بين الشيء ونقيضه : « وهذا السفر يقرون أنه كتب بإلهام وهو واجب التسليم وكل ما فيه صدق عندهم . ومحال أن يكون الزنا من البر واتباع وصايا الله و المحافظة على شريعته »(٢)

٣ـ زعمت التوراة أن نبي الله سليمان ـ عليه السلام ـ ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام ، فهو عندهم « لم يكن قلبه كاملاً مع الرب كقلب داود أبيه... فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين وأوصاه أن لا يتبع آلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصاه به الرب »(٣)

وجاء أيضا:« وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ».(٤)

٤ـ أما موسى وهارون فلم يكونا مؤمنين بالله،والذي لا يكون مؤمنا يكون كافراً:فقال الرب لموسى وهارون:إنكما لم تؤمنا بي،ولم تقدساني على عيون بني إسرائيل لذلك لا تدخلان أنتما هؤلاء الجماعة الأرض التي أعطيتها لهم ..(٥)

أما سفر الخروج فينسب إلى موسى ـ عليه السلام ـ أنه أوصى بني إسرائيل ليلة خروجهم من مصر أن يسرقوا من المصريين حليهم و أمتعتهم ففعلوا .(٦)

٥ـ زعمت التوراة أن الله حرض هوشع على الزنا : « أول من كلم الرب هوشع. قال الرب لهوشع : اذهب لنفسك امرأة زنا لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب . فذهب وأخذ جومر بنت حبلايم فحبلت وولدت له أبناء ..

وفي إصحاح آخر يقول « وقال الرب لي اذهب ... احبب امرأة حبيبة صاحب وزانية .(٧)

---

١ ـ صموايل الثاني ٢٢ : ٢١ ـ ٢٥

٢ ـ الشيخ عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٣١٣ ١٣٢٧ هـ ـ ١٩٥٣ م .

٣ ـ سفر الملوك الأول ١١ : ٥

٤ـ سفر الملوك الثاني ١١ :١ـ١٠

٥ ـ سفر العدد ٢٠ : ١٢

٦ ـ الخروج ١٢ : ٣٥

٧ ـ هوشع ١ : ٢ ـ ٤

لقد أبى العلماء المتقنون المحققون ، من المسلمين وغير المسلمين قبول هذه الافتراءات ، وقالوا : هذا من أباطيل اليهود ، غير أن كثيرا من المستشرقين يتعامون عن هذا الهراء فلا يثير عندهم أية شبهة !!

وقبل أن نلقى نظرة سريعة على ما فى الأناجيل من قصص قد يكون محمد سطى ـ فى زعمهم ـ عليها ، نسأل جويتين وغيره من المستشرقين .

هل القصص الواردة فى القرآن ـ وكما عرضنا ـ تشويه للحقائق عن الأنبياء . أم تنزيه ؟

مَن من الأنبياء أغفل أو أسقط محمد ذكرهم ؟ إن زعم المستشرق أن محمداً ﷺ أغفل ذكر بعض أنبياء بنى إسرائيل، يريد أن يقول: إن محمدا وهو عاكف ـ فى مكتبته فى الأكاديمية العلمية المكية، وفى مكتبه (المكيف) الملحق بغار حراء ـ على تأليف القرآن غفل عن ذكر بعض أنبيائهم ، هذا هو الهدف .

وإذا كان محمد قد أسقط ذكر هؤلاء الأنبياء فمن أسقط هذه الأسفار من توراتهم المقدسة ؟

١ ـ جاء فى سفر العدد العبارة التالية : « لذلك يقال فى كتاب حروب الرب ـ فلا يوجد هذا السفر ضمن أسفار التوراة » [1]

٢ ـ أشار سفر الملوك الثانى إلى فقد ثلاثة أسفار هى :

أ ـ أخبار ناتان النبى .

ب ـ نبوة أخيا الشيلونتى .

ج ـ جهزوى يعدو الرائى على بريعام بن نباط . [2]

فإذا كان محمد قد أخذ من التوراة ، و الإسلام يدور على محور واحد هو التوحيد المطلق ، و التوراة كما رأينا تعج بالتشبيه و التجسيم وهذا شرك صراح فكيف يكون التوحيد مأخوذاً عن الشرك ؟

وإذا كان محمد قد أخذ من التوراة ، فأى توراة تلك التى أخذ عنها ؟

التوراة التى جاء فيها: « فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض موآب حسب قول الرب .ودفنه فى الجواء فى أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم. وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهبت

---

١ ـ سفر العدد ٢١ : ٢١

٢ ـ سفر الملوك الثانى : الاصحاح ٩ .

نضارته.فبكى بنو إسرائيل موسى فى عربات موآب ثلاثين يوما » (١)

هل هذا السفر أنزل على موسى ؟ وإذا انبروا وقالوا : نعم . فكيف يقول : «فمات هناك موسى» ؟ أم يرون أنه نزل عليه بعد موته ؟

إن من عنده مسكة من العقل يدرك أنها عبارات أضافتها يد بشر .

ألا يثير ذلك الشك فى حجية التوراة التى ينسبونها إلى موسى ؟

من البديهى أن العقائد تقوم على اليقين، لا على الظن أو الاحتمال أو الشك، لذلك لم تكن للتوراة أو الأناجيل أى حجية عقلية لأنه لا حجة مع الشك و التحريف .

أما موقع الأنبياء فى الإنجيل ، فليس بأفضل منه فى التوراة ، بل إن بعض النصوص تسيء إلى السيد المسيح ـ عليه السلام ـ وتلاميذه .

١ ـ ورد بإنجيل متى : أن عيسى من نسل سليمان بن داوود و أن جدهم فارص الذى هو من نسل الزنى من يهوذا بن يعقوب . (٢)

٢ ـ أن يسوع ناقض نفسه حين قال لليهود مرة:إن كنت أشهد لنفسى فشهادتى ليست حقا . (٣)

ثم قال لهم مرة أخرى : إن كنت أشهد لنفسى فشهادتى حق (٤) .

٣ ـ وجاء فى يوحنا أيضا ، أن يسوع شهد بأن جميع الأنبياء الذين قاموا فى بنى إسرائيل هم سراق و لصوص. (٥)

٤ ـ وجاء أن رئيس الكهنة المسمى فيافا الذى ثبتت نبوته فى نفس الإصحاح ، أفتى بتكذيب المسيح وحكم بقتله مع أنه إلهه ـ فى زعمهم . (٦)

٥ ـ وفى نفس الإنجيل أن يسوع أهان أمه فى وسط جمع من الناس . (٧)

هذه النقول التى تثبت تناقضات العهد الجديد وتنسب نقائص تمس السيد المسيح و تلاميذه إنما هى على سبيل المثال لا الحصر .

○ بين القصص القرآنى و القصص التوراتى :

رأينا ـ فيما سبق ـ جانباً من نصوص توراتية وإنجيليه ، وكل ما جاء فى القرآن

---

١ ـ سفر التثنية ٣٤ : ٥ ـ ٨ ٢ ـ متى : ١ : ١٠ ٣ ـ يوحنا : ٥ : ٣١

٤ ـ يوحنا : ٨ : ١٤ ٥ ـ يوحنا : ١٠ : ٨ ٤

٦ ـ يوحنا: ١١ : ٤٩ وأيضاً أنظر : محمد عزت الطهطاوى: محمد نبى الاسلام ... ص ١٤٧ مطبعة التقدم . مصر

٧ـ يوحنا : ٢ : ٤ .

بشأنها تكذيب وإنكار ، مما يقطع بإلهية النص القرآني ، فلو أن محمدا ﷺ أخذ منهم لما خطأهم في بعض ما ذكر في كتبهم، حتى لا يفتح عليه باب معارضتهم ، إذ لا يليق بالعاقل أن يقدم على فعل يمنعه من مطلوبه، ويبطل مقصوده من غير فائدة (١)

كما أن في القرآن ما لا وجود له في كتابهم المقدس مثل : قصة هود ، وصالح ، وشعيب .

و القصص المتشابه مثل قصة : إبراهيم و موسى ، وإيمان امرأة فرعون ، وسليمان وعيسى ، فيه من التفصيل ما ليس في التوراة أو الإنجيل .

و القرآن صحح كثيراً مما وقع في كتبهم من أخطاء كنفيه قتل المسيح وصلبه. ونفيه أن يكون هارون هو الذي صنع العجل، وإنما هو السامري (٢)

وإذا كان الوحي القرآني إلى نبينا محمد ﷺ نفى أن يكون لله ولد ، كما نفى أن يكون المسيح عليه السلام صلب أو قتل ، وعليهما تقوم المسيحية بعد القرن الرابع للميلاد. فكيف يأخذ عنها وهو كما ترى ينكر عليها ويكذبها ؟

يباين القصص القرآني القصص التوراتي: يقول المستشرق الفرنسي موريس بوكاي: « يدعى كثير من المؤلفين الأوربين أن رواية القرآن عن الخلق قريبة إلى حد كبير من رواية التوراة ، وينشرحون لتقديم الروايتين بالتوازي . إني أعتقد أن هذا مفهوم خاطيء فهناك إختلافات جلية ، ففيما يتعلق بمسائل ليست ثانوية مطلقاً من وجهة النظر العلمية نكتشف في القرآن دعاوى لا يجدى البحث من معادل لها في التوراة ، كما أن التوراة من ناحية أخرى ، تحتوى على معالجات تفصيلية لا معادل لها في القرآن » (٣)

ثم يبرز بوكاي هذا التباين في موضوعات عدة منها : طوفان نوح ـ عليه السلام ـ فيبين أولاً أنه في ضوء المعارف الحديثة فإن رواية الطوفان في العهد القديم غير مقبولة . ثانياً : « على حين تتحدث التوراة عن طوفان عالمي لعقاب كل البشرية الكافرة ، يشير القرآن على العكس ، إلى عقوبات عديدة نزلت على جماعات محددة جيداً » (٤) . ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) ﴾ [الفرقان : ٣٧] .

ثم يضيف بوكاي : « ... فالقرآن يقدم كارثة الطوفان باعتبارها عقاباً نزل بشكل

١ ـ ابن تيمية : الجواب الصحيح جـ ٤ ص ٥٧   ٢ ـ ابن تيمية السابق .
٣ ـ بوكاي : دراسات الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص ١٥٧ (المصدر سابق)
٤ ـ بوكاي . السابق ص ٢٤٤ ، ٢٤٦ .

خاص على شعب نوح ، وهذا يشكل الفرق الأساسى الأول ، أما الفرق الجوهرى الثانى : فهو أن القرآن على عكس التوراة لا يحدد زمن الطوفان ولا يعطى أية إشارة عن مدة الكارثة نفسها ... والقرآن يحدد بشكل صريح محتوى سفينة نوح، فقد أعطى الله أمراً لنوح بأن يضع فى السفينة كل ما سيعيش بعد الطوفان ـ وقد أنجز نوح هذا الأمر بعناية ـ .... بالاضافة إلى الأسرة التى قطع منها هذا الابن الملعون... « و لا تشير التوراة إلى هؤلاء من بين ركاب السفينة . إن التوراة فى الواقع تقدم ثلاث روايات عن محتوى السفينة »[١]

وزعم بعض المستشرقين أن محمداً أخذ هذه القصة من أناجيلهم ـ والتى نقلوها من التوراة ـ يكذبهم العلم الحديث ـ كما قال بوكاى ـ والاكتشافات الحديثة فقد « دلت الكشوف الحديثة أنها موجودة فى الديانات الصينية قبل أن ينزح السومريون إلى أرض الرافدين، وجاءت القصة فى القرآن مختلفة اختلافاً كثيراً عما هو فى التوراة »[٢]

أما عن التباين بين روايتى التوراة و القرآن حول خروج موسى ـ عليه السلام ـ من مصر وغرق فرعون فى البحر ، فيمثل فى أن : « التوراة لا تحتوى على أية إشارة خاصة بالعثور على جثة فرعون بعد موته ... بينما النص القرآنى يقول ببساطة وبشكل واضح تماماً أن جسد فرعون قد أنقذ وتلك معطية رئيسية «وفى العصر الذى وصل فيه القرآن للناس عن طريق محمد ﷺ كانت جثث كل الفراعنة الذين شك الناس فى العصر الحديث صواباً أو خطأً أن لهم علاقة بالخروج، كانت مدفونة بمقابر وادى الملوك بطيبة (بمصر)... فى عصر محمد ﷺ كان كل شيء مجهولاً عن هذا الأمر ولم تكتشف هذه الجثث إلا فى نهاية القرن التاسع عشر. وكما يقول القرآن: فقد أنقذ بدن هذا الفرعون... وهو الآن فى قاعة المومياءات فى المتحف المصرى بالقاهرة ويستطيع الزوار أن يروه »[٣]

ومع أن هذا النص لبيان الفرق بين الرواية التوراتية حول حدث واحد و الرواية القرآنية . إلا أنه يعد علماً من أعلام نبوة محمد ﷺ .

ويختم بوكاى مقارناته بين القصص القرآنى و القصص فى العهدين : القديم والجديد بقوله : « إن القرآن وقد استأنف التنزيلين اللذين سبقاه . لا يخلو فقط من

١ـ بوكاى : السابق ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
٢ ـ د . عبد الجليل شلبى : الاسلام و المستشرقون ص ٤٤ مطابع دار الشعب بالقاهرة .
٣ ـ بوكاى : السابق ص ٢٥٤ ، ٢٦٩ .

متناقضات الرواية ، وهى السمة البارزة فى مختلف صياغات الأناجيل ، بل هو يظهر أيضا ـ لكل من يشرع فى دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلوم ـ طابعه الخاص وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة . بل أكثر من ذلك ـ وكما أثبتنا ـ يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمى من المستحيل تصور أن إنساناً فى عصر محمد ﷺ قد استطاع أن يؤلفها.

إن مقارنة عديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات فى القرآن تبرز الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علمياً وبين مقولات القرآن التى تتوافق تماماً مع المعطيات الحديثة... فبينهما فروق شديدة الأهمية تدحض كل ما قيل ادعاء ـ ودون أدنى دليل ـ عن نقل محمد ﷺ للتوراة حتى بعد نص القرآن .

«ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر وهذا بسبب حالة المعارف فى عصر محمد ﷺ لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحى من الله ... إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه . وحيث أن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة فى عصرنا تبدو كأنها تتحدى أى تفسير وضعى... »(١)

نخلص مما سبق إلى أن أقوال المستشرقين تضاربت حول القرآن الكريم ومحاولة رده إلى أصول يهودية ونصرانية ، فتهافتت أقوال البعض فلم تحظ بعناية الرد ، أما المزاعم المنمقة و المتدثرة بالعلمية و المنهجية و الحيدة ـ كأقوال واط ـ فجاءها الرد من كتبهم ـ المقدسة ـ وقد لجئوا إلى بتر النصوص ومقارنتها بنصوص أخرى عندهم فكان أحرى بنا ـ دون إسفاف ـ الكشف عن زيف ما فى أيديهم ، بمثل هذه المقارنات .

القرآن الكريم كلام الله تعالى أوحاه إلى عبده ونبيه محمد ﷺ بشهادة نفسه: التحدى القائم و المستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها

وما كشف عنه المستشرق الفرنسى موريس بوكاى » وأخيرا ، فلقد تعرت نوايا المستشرقين مما جعلنى أجزم أو أكاد أجزم : لو أن القرآن الكريم جاء خلواً من قصص الأمم البائدة أو قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم . لو جاء القرآن خلواً منها لقالوا . إن هذا الكتاب من تأليفك يا محمد لأنه لم يشر إلى النبيين السابقين وما كان من أممهم معهم وأنّى لك يا محمد بهذا الغيب الماضى الموغل فى القدم ؟

---

١ ـ بوكاى . السابق ص ٢٨٥ ، ٢٨٦

أما وقد أشار القرآن إلى هذا الغيب الماضى فقد تعلمه محمد من اليهود والنصارى!

لو لم يشر القرآن إلى إيمان كثير من أهل الكتاب . وخشوعهم وبكائهم من خشية الله وسجودهم حين كان يتلى عليهم ، إيمانا وتصديقاً .

لو لم يكن كذلك لقالوا : هذا من عندك وتأليفك بدليل أن واحداً من أهل الكتاب لم يؤمن بك وهم أعلم وأخبر ...

موقف معظم المستشرقين من الوحى إلى محمد ﷺ خاصة ومن الإسلام عامة يثبت بجلاء أن كل حكم نفى يقومون به يقوم على نفي لما لا يوجد فى أذهانهم وكل إيجاب يقوم على إثبات لما يقوم فى أذهانهم [1] وتلك هى منهجيتهم وموضوعيتهم .

* * *

١ ـ د . حسن حنفى : التراث و التجديد ص ١٠٣ مكتبة الجديد بمصر .

المبحث الرابع

رد القرآن إلى أصول يهودية ونصرانية

تحدثنا فيما سبق عن زعم المستشرقين أن محمداً «ﷺ» كان قارئاً كاتباً ، وكشفنا زيف هذا الزعم، ودللنا على أن محمداً لم يقرأ كتاباً ولم يخطه بيمينه.

كما كشفنا عن ضلال الادعاء بلقاءات عديدة لمحمد مع ورقة بن نوفل قبل بدء الوحى وبعده، واتضح بجلاء أنه لقاء واحد بعد بدء الوحى، وكان بمبادرة من أم المؤمنين خديجة، وكشفنا عن بعض الروايات التى تقول إن خديجة وحدها هى التى ذهبت إلى ابن عمها ورقة تستطلع رايه فيما رأى وسمع رسول الله «ﷺ» فى غار حراء .

والآن نتناول زعماً آخر، وجهلاً صراحاً، يكشف عن إصرار كثير من المستشرقين على أن محمداً كان قارئاً كاتباً ؛ بدلالة كثرة مواطن التشابه بين القرآن وكتب العهدين: القديم والجديد .

فما هى إذن أوجه الشبه، أو ما هى مواطن الشبه بين القرآن والتوراة والإنجيل؟ وهل فى التشابه دلالة على أخذ القرآن منهما ؟ هل بالضرورة ما وجد التشابه أن يكون اللاحق أخذ من السابق ؟ .

وإذا وجد التشابه ألا يمكن رده إلى علة أخرى غير الاطلاع والنقل كوحدة المصدر مثلاً ؟

وإذا كان التشابه يقتضى أخذ اللاحق عن السابق كقاعدة مضطردة عند المستشرقين من اليهود والنصارى، فما تعليلهم للتشابه لدرجة التطابق بين الإنجيل وكتب البراهمة والبوذية وغيرها من الديانات الوضعية ؟

يجمع الكثير منهم على أن الإنجيل كتاب إلهى ، فهل يصح - بمقتضى قاعدتهم - أن يأخذ الإلهى المعصوم عن البشرى الناقص؟

وإذا كان محمد «ﷺ» قد قرأ توراتهم وإنجيلهم وأخذ منها القصص والتشريعات والأخلاقيات..و .. فكيف يعللون وجود قصص فى القرآن ليس فى عهديهما؟ وهذا القصص أحداث وقعت قديماً بل موغلة فى القدم.كيف عرف محمد هذه الأخبار التى وقعت فى الأزمان السحيقة، وهى غير موجودة عندهم ؟

قد يقول قائل منهم : مخيلة محمد المبدعة وخياله الشعرى الرائع . وعندئذ لا يكون لنا كلام مع السفهاء .

دأب كثير من المستشرقين على القول بأن محمداً أخذ عناصر دينية من الأحبار والرهبان ، وهذا القرار المسبق يحول بينهم وبين التعامل العلمى الصحيح مع القرآن ونبوة محمد « ﷺ » .

رد « جول تسيهر» الوحى إلى محمد « ﷺ » إلى مصدرين: خارجى،وداخلى فيقول: «فتبشير النبى العربى ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التى تأثر بها تأثراً عميقاً والتى رآها جديرة بأن توقظ فى بنى وطنه عاطفة دينية صادقة ، وهذه التعاليم التى أخذها عن تلك العناصر الأجنبية كانت فى وجدانه ضرورية لإقرار لون من الحياة فى اتجاه يريده الله»(١) .

ولم يكن اليهود والنصارى وحدهم هم الذين أخذ عنهم محمد بل امتدت همته العلمية والمعرفية إلى المجوس والوثنيين. يقول: فمحمد« انتخب تعاليم الإسلام من الديانات السائدة فى عصره: اليهودية والنصرانية والمجوسية والوثنية بعد تهذيب وصقل.

« لقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه، وأدركها بإيحاء قوة التأثيرات الخارجية ، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه وحياً إلهياً »(٢) .

أما «واط» فإنه على منوال «جولدتسيهر» نسج، غير أنه لم يقطع بما قطع به «جولد تسيهر» وإنما اتبع أسلوب الاحتمالات حتى يكون ما يحدثه من تشكيك وبلبلة أشد وأوقع .

ألقى «واط» بفريته وهو يتحدث عن تحنث نبينا « ﷺ » فى غار حراء، ثم علل ذهاب النبى إلى الغار بقوله: «يمكن أن يكون ذلك للفرار من أتون المدينة (مكة) خلال فصل الصيف للذين لا يستطيعون التوجه إلى الطائف. ويمكن أن يكون للتأثير اليهودى المسيحى ولاسيما مثل الرهبان. أو تجربة شخصية لمحمد»(٣) .

ثم يقول فى كتاب آخر له: «إن على الإسلام أن يقر بحقيقة أصله ، ذلك التأثير التاريخى للتراث الدينى اليهودى المسيحى»(٤) .

١، ٢ ـ جولد تسيهر : العقيدة والشريعة فى الإسلام .(ترجمة د. محمد يوسف موسى وآخرون) ص١٢، ٢٤، ٢٥ ، دار الكتب الحديثة بمصر ط٢ ، وأنظر : موقف جولدتسيهر من القرآن الكريم ، « للمؤلف » مقال منشور بالكتاب الدورى لمركز الدراسات الاستشراقية والحضارية بكلية الدعوة بالمدينة المنورة / جامعة الأمير / محمد بن مسعود الإسلامية.

٣ ـ محمد فى مكة ص٨١ .

٤ ـ W.M Watt, Islam and Integration of Society London 1961 p293.

أما أن ذهاب الرسول إلى الغار كان للتصييف، فقد تولى الرد عليه علماء أفاضل[١]، أما رده تحنث الرسول إلى أثر يهودى مسيحى، وإلى تقليد الرهبان، فإنه يلقى بها وهو يريد مايعدها، يريد أن يقول: من الناحية الاجتماعية، فإن محمداً كان مخالطاً لليهود والنصارى، خاصة رهبانهم لدرجة تأثره بالرهبنة، والعزلة، والانقطاع للعبادة ، ففعل مثلما فعلوا . وإذا كان بدء الوحى كان أثناء عزلة محمد، ولم يكن خاوى الوفاض، وإنما كان يحمل الفكر اليهودى المسيحى، فجاء الوحى ـ أى القرآن ـ ممزوجاً بهذا الفكر .

أضف إلى هذه الافتراءات افتراء آخر لمستشرق يهودى يدعى «جويتين» . وضع هذا المستشرق كتابين للنيل من الإسلام ونبى الإسلام ، الأول تحت عنوان «دراسات فى تاريخ الإسلام ونظمه..» الثانى تحت عنوان :

Jews and Arabs Throuht ages

يقول:« نستطيع أن نتصور أن منشأ ادعاء نظرية الوحى عند محمد ، هو خواطره عن دوره الخاص فى الإطار العام لهداية البشرية بطريق رسل الله،وبينما كان يستمع إلى مواعظ المبشرين وقصص الأجانب خلد ببال محمد شعور قوى بأنه مطالب بتبليغ رسالة الله إلى عشيرته الأقربين،كما بعثت رسل آخرون إلى أقوام عربية أخرى من قبله.وبدأ محمد إمعان النظر فى الصحائف المكتوبة التى كان يحملها الأحبار والرهبان المتجولون فى جزيرة العرب والتى تحتوى على أجزاء من الكتب السماوية...وكانت تلك الصحائف مكتوبة بلغة أجنبية... وفى أثناء تأمله فى هذا الشأن استقر فيه الاعتقاد « بأن رسالة الله لابد أن تنزل عليه دون غيره يوماً من الأيام، فى نسخة عربية . وبطريقة الاستماع إلى المبشرين من مختلف الملل والطوائف أدرك أن أصول الأديان كلها واحدة لأنها منزلة من رب واحد،وبالتالى أكد محمد مراراً أن الرسالة التى تبلغ بطريقة إنما هى نفس الرسالات التى أنزلت من قبل »[٢] .

واستدل جويتين على مزاعمه ببعض آيات من القرآن، ظن أنها تسعفه وقد ساق كلامه دون دليل ، أى دليل ، من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي

١ ـ أنظر الدكتور جعفر شيخ إدريس فى بحثه القيم المنشور فى (مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ط.١٤٠٥م) .

٢ ـ س.د جويتين : دراسات فى تاريخ الإسلام ونظمه . نقلاً عن : د. محيى الدين الألوائى : النبوة المحمدية ومفتريات المستشرقين ص٤٥، ٤٦ . ط أولى ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

إسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) ﴾ [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٩] .

رأى هذا المستشرق أن الآيات الأخيرة تدل على أن محمداً « ﷺ » تتلمذ على بنى إسرائيل وأخذ عن علمائهم ، ولكن كيف أخذ ؟ متى كان ذلك ؟ مادليله على ذلك ؟ لا شيء عنده .

كل ما فى الآية أن هذه معلومات ثابتة من قبل ويعرفها ذو الديانات السماوية.وأن علماء بنى إسرائيل الذين على شريعة موسى يعلمون أن ما جئت به الحق .

وإذا كان القرآن من عند محمد كما يزعم هذا المستشرق فكيف يقول عن نفسه أنه أخذه من اليهود ؟

أما أن محمداً أخذ عن اليهود أو أنه قرأ كتبهم فهذا مردود لأسباب عديدة منها :

١ـ أن محمداً كان أمياً ، فلم يتعلم شيئاً من أحد فى حضر أو سفر بشهادة قومه المعادين له .

٢ـ أن العهد القديم لم يكن مترجماً إلى اللغة العربية، باعتراف المستشرق: أن صحائف الرهبان كانت بلغة أجنبية .

وقد أشارت الموسوعة البريطانية إلى عدم وجود ترجمة عربية لأسفار اليهود قبل الإسلام وأن أول ترجمة كانت فى أوائل العصر العباسى وكانت بأحرف عبرية (أنظر: الموسوعة البريطانية: التوراة بين الوثنية والتوحيد للأستاذ سهيل ويب ص(٢٦, ٢٧) .

٣ ـ لو أخذ محمد هذا القرآن من أهل الكتاب مع عداوتهم له لأذاعوه، ولقالوا إن هذا تعلمه منا أو عن نظرائنا،أو قرأه فى كتبنا لاسيما وهو يفعل فيهم ما يفعل لغدرهم ،وتآمرهم فى الخفاء، ومن أسلم منهم،فإنما كان يقبل على الحرمان والمقاطعة،ولو أنهم قالوا ذلك لنقل إلينا وعرف، فإنه من الحوادث التى تتوافر الهمم والدواعى على نقلها[١].

٤ـ من المعلوم أن فى القرآن مالا وجود له فى كتب اليهود والنصارى، مثل: قصة هود وصالح وشعيب ـ وما سنعرض له بالتفصيل بعد ذلك ـ ولو أن محمداً ـ « ﷺ » كان يتعلم من أهل الكتاب لما زاد هذه الزيادات، ولما خطأهم فى بعض ما ذكر فى كتبهم حتى لا يفتح عليه باب معارضتهم إذ لا يليق بالعاقل أن يقدم على فعل يمنعه من مطلوبه، ويبطل مقصوده من غير فائدة[٢]

١ ـ ابن تيمية:الجواب الصحيح ... جـ٣ ص٢٥ ، جـ٤ ص٥٧ . ٢ ـ ابن تيمية: السابق جـ٤ ص٥٤

٥ ـ يقول المستشرق الإنجليزى لايتنر LIGHTNER

« بقدر ما أعرف من دينى اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد «ﷺ» ليس اقتباساً بل قد أوحى إليه ربه،ولا ريب بذلك طالما نؤمن بأنه قد جاءنا وحى من لدن عزيز عليم ، وإنى بكل احترام وخشوع أقول: إذا كان تضحية المصالح الذاتى، وأمانة المقصد، والإيمان القوى الثابت والنظر الصادق الثاقب بدقائق وخفايا الخطيئة والضلال، واستعمال أحسن الوسائط لإزالتها،فذلك من العلامات الظاهرة الدالة على نبوة محمد « ﷺ » وأنه قد أوحى إليه »[١] .

إضافة إلى ذلك يقول هنرى دى كاسترى: « ثبت إذن أن محمداً «ﷺ» لم يقرأ كتاباً مقدساً ولم يسترشد فى دينه بمذهب متقدم عليه »[٢] .

المستشرقون يخبطون فى كل اتجاه فإن لم يصب السهم يصيب الآخر، والثالث... ولاشك أن هذه سمة الكذاب، فهو يطلق الكلام عله يصيب ويصدقه أحد .

فلما ثبت أن محمداً لم يتلق شيئاً من الأحبار ولا الرهبان ، فلعله تلقى وحيه من الشعراء العرب ، وما أفصحهم وما أعلمهم .

ادعى المستشرق «كليمان هوار» (HUAAR) أنه اكتشف مصدراً جديداً للقرآن، هو شعر أمية بن أبى الصلت[٣] .

لا شك أن أمية كان يعيش فى نفس بيئة رسول الله،وأن عمريهما متقارب ، وأعلن محمد«ﷺ» على مسمع من جميع معاصريه بأنه يتلقى وحيه عن الله وأنه لا يتلقئ شيئاً عن بشر .

ولنأخذ فى اعتبارنا موقف خصومه فلقد كانوا دائماً على يقظة لأقل ثغرة ليواجهوا من خلالها ضربتهم . ألم يكن من الأيسر لهم أن يضعوا يده على مسروقاته المفضوحة من شعر أمية الذى لم يكن قد جف مداده، بدلاً من أن يوجهوا حججهم فى كل اتجاه ؟

إن هذه النتيجة تؤدى إلى نتيجة أخرى أهم هى: أن القرآن هو الذى كان أساس الإنتاج الأدبى فى عصر نزوله ، فضلاً عما بعده .

ولقد لاحظ «هوارت»أن شعر أمية يرجع إلى عدة مصادر مختلفة: فعندما يتكلم

---

١ ـ لايتنر : دين الإسلام ص٤,٥ مصدر سابق .
٢ ـ هنرى دى كاسترى : المصدر السابق ص٦ ، وأيضاً : د. عماد الدين خليل : السابق ص١٣٤ .
٣- المجلة الأسيوية ١٩٠٤م ، د. تهامى نقره : القرآن والمستشرقون (مناهج المستشرقين جـ١)ص ٣٣ .

الشاعر عن وصف النار يقلد أسلوب التوراة،وعند ما يشرع فى وصف الجنة يستخدم عبارات القرآن،وعندما يقص التاريخ الدينى يلجأ أحياناً إلى الأسطورة الشعبية(١) .

ومع أننا نرفض أن تنزل السيرة النبوية منزلة أى رواية تاريخية لبعدها الدينى والعقدى،إلا أننا نرى أن نقد الرواية التاريخية مطلوب إن لم يكن ضرورياً، والمستشرقون تناولوا السيرة النبوية من خلال منهج نقدى مبالغ فيه بينما شعر «أمية » لم يتعرض لمثل هذا المنهج«والغريب فى أمر المستشرقين فى هذا الموضوع وأمثاله،أنهم يشكون فى صحة السيرة نفسها، ويتجاوز بعض الشك إلى الجحود، فلا يرونها مصدراً تاريخياً صحيحاً،وإنما هى عندهم...طائفة من الأخبار والأحاديث تحتاج إلى التحقيق والبحث العلمى الدقيق، ليمتاز صحيحها من منحولها، هم يقفون هذا الموقف العلمى من السيرة ويغلون فى هذا الموقف، ولكنهم يقفون من أمية وشعره موقف المتيقن المطمئن، مع أن أخبار أمية ليست أدنى إلى الصدق ولا أبلغ فى الصحة من أخبار السيرة فما سر هذا الاطمئنان الغريب إلى نحو من الأخبار دون الآخر؟أيكون المستشرقون أنفسهم لم يبرؤوا من هذا التعصب الذى يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات ؟»(٢) .

هذا النقد له اعتباره ، ويمكن الاعتماد عليه فى قياس ما كتب المستشرقون عن الإسلام .

وهناك عقبة يستحيل على المكابرين من المستشرقين تذليلها ، لأن فى هذا الوقت، لم تكن قد وجدت بعد توراة ولا إنجيل باللغة العربية(٣). ووجود هذه الوثائق بلغات أجنبية جعلها حكراً لبعض العلماء المتحدثين بأكثر من لغة الذين حفظوها بعناية (٤) .

فضلاً عن المستوى الثقافى المتدنى لليهود فى جزيرة العرب يقول ابن خلدون: «إذا تشوقت العرب إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية من أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى . وأهل التوراة الذين

---

١ ـ د. محمد عبدالله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ص١٤٣ ـ ١٤٤ .
٢ ـ د. طه حسين : فى الأدب الجاهلى ص١٤٣ ط لقاهرة ١٩٥٨م .
٣ ـ أكد الدكتور GRAF أنه لم يظهر الكتاب المقدس باللغة العربية إلا بعد ذلك ـ بعد البعثة المحمدية ـ بقرون عديدة ولم تكن الحاجة ملحة لإنجيل باللغة العربية إلا فى القرن التاسع والعاشر (مجلة العالم الإسلامى . إبريل ١٩٣٩) عن د. دراز : مدخل إلى القرآن العظيم . هامش ص١٤١ .
٤ ـ د. دراز : مدخل إلى القرآن العظيم ص١٤١ .

بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذو بدين اليهودية فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لاتعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك »[١] .

عجباً لأمر هذه الفئة من المستشرقين، فبينما يزعمون أن محمداً أخذ التوحيد من توراتهم ، ومفاد هذا الزعم: أن الإسلام دين توحيد ولكنه بشرى المنبع

يذهبون إلى أنه دين شرك، فلقد أراد محمد استمالة مشركي مكة وما حولها إلى جانبه فأثنى على آلهتهم فى قرآنه وهو ما يطلق عليه «واط» الآيات الإبليسية ، وهو يقصد قصة الغرانيق .

يريد «واط» أن يقول، من خلال سروره لهذه القصة وتأكيده على حدوثها: إذا كان الله يوحى إلى محمد فالشيطان هو الآخر أوحى إليه(!) .

والقصة ذكرت فى بعض كتب التراث الإسلامى بروايات متباينة ، غير أن المستشرق «واط» ـ وهو الباحث المنهجى المدقق الذى يعرض كل أحداث الوحى على منهجه الشكى الصارم ـ لم ينظر فى هذه الروايات ، وإنما اكتفى بالضعيف الشاذ منها ، وعول عليه ليفرز مكنون قلبه .

وردنا ينحصر فى أمرين: الأول : تأكيد «واط» على حدوث القصة ، والثانى : موقف العلماء منها .

يؤكد «واط» على حدوث قصة الغرانيق بقوله: «نلاحظ واقعتين نستطيع أن نعتبرهما أكيدتين : أولاً رتل محمد «ﷺ» فى وقت من الأوقات الآيات التى أوحى بها الشيطان على أنها جزء من القرآن ،لأنه لا يمكن أن تكون القصة قد اخترعها مسلمون فيما بعد أو دسها غير المسلمين . ثم أعلن محمد فيما بعد أن هذه الآيات لا يجب أن تعتبر جزءاً من القرآن ويجب استبدالها بآيات تختلف عنها كثيراً فى مضمونها... وهناك واقعة ثالثة أو مجموعة وقائع نستطيع أن نكون واثقين منها . وهى أنه كان يجب على محمد ومعاصريه المكيين أن يشير فى القرآن للآلهة: اللات .. والعزى .. ومناة .. ما تعنيه إذن الآيات الإبليسية أن الاحتفالات مقبولة فى المعابد الثلاثة حول مكة . وأما معنى الآيات التى تقول بأن العبادة فى هذه المعابد غير مقبولة فهى لاتحرم العبادة فى الكعبة .

١ـ ابن خلدون : المقدمة ص٣٦٧ . مؤسسة الأعلمى للمطبوعات بيروت ١٩٧١م .

ثم يستطرد : « وهكذا فإن قيمة الآيات الإبليسية مبهمة ، فهل اعترف محمد بصحتها لأنه كان يهمه كسب الأنصار فى المدينة والطائف وبين القبائل المجاورة ؟ هل كان يحاول التخفيف من تأثير الزعماء القرشيين المعارضين له باكتساب عدد كبير من الأتباع ؟ ذكر هذه المعابد دليل على أن نظرته أخذت فى الاتساع .(!)

أما وقد نسخت هذه الآيات ـ المزعومة ـ فإن نسخها « مرتبط ـ فى زعم المستشرق ـ أيضاً بفشل هذه التسوية ـ أى بين محمد وزعماء مكة ـ ولا شىء يسمح لنا بالاعتقاد أن محمداً قد استسلم لخداع المكيين . ولكنه انتهى به الأمر إلى إدراك أن الاعتراف ببنات الله (كما كانت تسمى الآلهة الثلاثة وغيرها) يعنى إنزال الله إلى مستواها ، وعبادة الله فى الكعبة لم تكن فى الظاهر تختلف عن عبادتها فى نخلة والطائف وقديد .. »[1] .

ثم يذكر « واط » أن محمداً تحت وطأة الحاجات المادية كان مستعداً للاعتراف بهذه الأصنام باعتبارها آلهة ، ولمَا فى هذا الاعتراف من تسهيل مهمته .

كلام المستشرق «واط» يشير إلى بشرية القرآن فمحمد ﷺ حرمختار يضيف إلى القرآن ويحذف ما يشاء ، فأمر القرآن أو الوحى موكول لإرادته ـ وقد سبق له الادعاء بقدرة النبى على استدعاء الوحى بوسائله الخاصة ـ يتمثل فى نحو قوله « أعلن محمد أن هذه الآيات لايجب اعتبارها جزءاً من القرآن » ،« كان يجب على محمداًأن يشير فى القرآن..»ونحو قوله فى موضوع آخر: «...والحقيقة هى أن توحيده ـ توحيد محمد ـ كان فى الأصل كما كان توحيد معاصريه المثقفين، غامضاً،ولم ير بعد أن قبول هذه المخلوقات الإلهية ـ اللات والعزى ومناة مخلوقات إلهية (!) ـ كان يتعارض مع هذا التوحيد.. »[2] .

استغل واط هذه القصة للتشكيك فى الوحى الإلهى إلى نبينا محمد «ﷺ»، لم يكلف نفسه البحث عما أثير حولها ورواياتها ، واستخلاص الصحيح من غيره ، و القوى من الضعيف، أو يكون قد بحث ـ وهذا واضح ـ ولكنه ، ـ وقد كوّن فكرة مسبقة ـ وقع على الضعيف الشاذ فأخذه سندا لدعواه .

من ناحية أخرى كيف فات على «واط» أن الأيات الإبليسية المدعاة لو وضعت فى سياق آيات السورة لظهر التناقض البين،و الذى لا يخفى على أحد؟ إنها ـ كما

---

١ ـ واط : محمد فى مكة ص١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ .
٢ ـ د . عماد الدين خليل : المستشرقون و السيرة ص ٧٢ مصدر سابق .

يقول الدكتور عماد الدين خليل[1] ـ فوضى فكرية، وتصور مضطرب متهافت للدين،لا هو بالمادى فيرفض الحقيقة الدينية، ولا هو بالمؤمن فيعترف ببداهتها ومسلماتها.

أما القصة المفتراة :فهي أن رسول الله ﷺ لما قرأ سورة النجم و قال: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ أضاف : تلك الغرانيق العلا و إن شفاعتهن لترتجي ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [النجم: ١٩ – ٢٤]

قيل : فلما ختم الرسول ﷺ السورة سجد و سجد معه المسلمون و المشركون ، وجاء في بعض الروايات أن الشيطان ألقاها على لسانه ، و أن النبى كان قد تمنى أن ألا ينزل عليه شيئ من الوحي يعيب آلهة المشركين لئلا ينفروا عنه .

أثبتنا فى غير هذا الموضع[2] أن عصمة الأنبياء واجبة حتى يؤخذ عنهم ، و أثبتنا ـ هنا ـ أن العلم المعجز يقع موقع التصديق لمدعى النبوة و الرسالة ، جارياً مجرى قوله تعالى له: صدقت فى أنك رسولى و مؤدٍ عنى . فلابد من أن يكون هذا المعجز مانعاً من كذبه و افترائه على الله فيما يؤديه عنه لأنه تعالى لا يجوز أن يصدق الكذاب المفترى ، لأن تصديقه قبيح [3].

لذلك يقول النبى ﷺ: «ما كان لنبى أن تكون له خائنة الأعين» فنفى ﷺ عن جميع الأنبياء أن تكون لهم خائنة الأعين و هو أخف ما يكون من الذنوب ومن خلاف الظاهر للباطن، فدخل فى هذا جميع المعاصى صغيرها وكبيرها ،سرها وجهرها[4] .

فى ضوء هذا نرد هذا الافتراء على الرسول ﷺ :

أولاً : عبارة : تلك الغرانيق العلى و إن شفاعتهن لترتجى . تقع بين ذمين ، مما يمنع حملها على المدح .

وإذا نظرنا إليها من جانب آخر نجد التناقض الواضح فى هذا السياق ، فالغرانيق مدحت و ذمت فى ذات الوقت و الجمع بين النقيضين فساد ، لا يعقله : لا المسلمون و لا المشركون و هم أصحاب الفصاحة و البلاغة .

يقول صاحب الظلال: ... وقد رفضت منذ الوهلة الأولى تلك الروايات جميعاً...

---

١ – المصدر السابق المستشرقون والسيرة.

٢ ـ انظر : عصمة الأنبياء بين اليهودية و المسيحية و الإسلام للمؤلف.

٣ ـ القاضى عياض : الشفا بتعريف حقوق المصطفى جـ ٣ ص ١٢٤ .

٤ ـ ابن حزم: الفصل جـ٤ ص ٢٢

فهى فضلاً عن مجافاتها لعصمة النبوة و حفظ الذكر من العبث و التحريف، فإن سياق السورة ذاتها ينفيها نفياً قاطعاً ، إذ أنه يتصدى لتوهين عقيدة المشركين فى الآلهة و أساطيرهم حولها ، فلا مجال لإدخال هاتين العبارتين فى سياق السورة بحال. حتى على قول من قال : إن الشيطان ألقى بهما فى أسماع المشركين دون المسلمين فهؤلاء المشركون كانوا عرباً يتقنون لغتهم . وحين يسمعون هاتين العبارتين المقتحمتين، ويسمعون بعدها: ﴿ألكم الذكر وله الأنثي؟ تلك إذاً قسمة ضيزي إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم و آباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان...﴾ ويسمعون بعد ذلك: ﴿ و إن الذين لا يؤمنون بالأخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثي وما لهم به من علم . إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئا﴾ ويسمعون قبله : وكم من ملك في السموات لاتغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء و يرضي ﴾ حين يسمعون هذا السياق كله فإنهم لا يسجدون مع الرسول ﷺ لأن الكلام لا يستقيم ، و الثناء على آلهتهم و تقرير أن لها شفاعة ترتجى لا يستقيم . وهم لم يكونوا أغبياء كالأغبياء الذين افتروا هذا الروايات التى تلقفها منهم المستشرقون مغرضين أو جاهلين (١)

ثانياً : ما ذهب إليه الأمام الفخر الرازى نقلاً عن الإمام البيهقى من أن : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، كما أن رواتها مطعون فيهم ، فضلاً عما جاء فى صحيح البخارى : أن النبى ﷺ قرأ سورة النجم وسجد و سجد المسلمون و المشركون، و الإنس و الجن و ليس فيه حديث الغرانيق و روى هذا الحديث من طرق كثيرة ، وليس فيها البتة حديث الغرانيق (٢)

ثالثاً: ما ذهب إليه الشيخ محمد عبده : أن العرب لم يرد فى نظمهم و لا فى خطبهم وصف لآلهتهم بأنها الغرانيق ، ولم يكن مثل ذلك جارياً على ألسنتهم . فالذى ورد أن الغرنوق و الغرنيق اسم لطائر مائى أسود أو أبيض وللشاب الأبيض الجميل . وكل ذلك لا يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب (٣)

رابعاً:أن النبىﷺ إذا أرسل الله ـ جل و علا ـ إليه الملك بوحيه، فإنه يخلق له العلم به حتى يتحقق أنه رسول من عنده، ولولا ذلك لما صحت الرسالة،ولا تبينت النبوة، فاذا خلق الله له العلم به تميز عنده من غيره ،وثبت اليقين، واستقام سبيل

---

١ ـ سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٤٢٠ الطبعة العاشرة . دار الشروق .
٢ ـ الإمام الرازى : التفسير الكبير جـ ٦ ص ١٩٣ .
٣ ـ د. محمود حمدى زقزوق : الإسلام فى الفكر الغربى ص ٤٤ .

الدين [١] فكيف يقال : أن النبى اختلط عليه فلم يعرف من شافهه الملك بالوحى ، أم شيطان ؟!

خامساً : لو حدث ذلك : لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة ، و لأقامت بها اليهود عليهم الحجة كما فعلوا مكابرة فى قصة الإسراء ، حتى كانت فى ذلك لبعض الضعفاء ردة... فلا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت ، ولا تشغيب للمعادى حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت ، فما روى عن معاند فيها كلمة ... فدل على بطلانها وإجتثاث أصلها [٢].

سادساً : ما ذكره الرواة من أن هذه القضية فيها نزل قوله تعالى : ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤)﴾[الإسراء: ٧٣ ، ٧٤]. يقول الإمام عياض : و هاتان الآيتان تردان الخبر الذى رووه ، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا ليفتنونه حتى يفترى ، و أنه لولا أن ثبته لكاد يركن اليهم ، فمضمون هذا و مفهومه أن الله تعالى قد عصمه من أن يفترى ، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً ، فكيف كثيراً ؟ وهم يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون ، الافتراء بمدح آلهتهم، و أنه قال ﷺ ـ (افتريت على الله وقلت ما لم يقل) و هذا ضد مفهوم الآية و هى تضعف الحديث لوصح ، فكيف و لاصحة له ؟ وقد روى عن ابن عباس : «كل ما فى القرآن (كاد) فهو ما لا يكون [٣]

سابعاً : يمكننا وضع آية سورة الحاقة فى قياس استثنائى على النحو التالى :

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾[الحاقة :٤٤,٤٥] (الكبرى)

لكننا لم نأخذ منه باليمين ولم نقطع منه الوتين (الصغرى) .

∴ فما تقول علينا بعض الأقاويل (النتيجة) .

وأيضاً آية الإسراء ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ . على النحو التالى :

أى : ولو فتنوك وافتريت علينا لاتخذوك خليلاً . (كبرى)

---

١ ـ الامام ابو بكر ابن العربى : فضل تنبيه الغبى على مقدار النبى نقلاً عن الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى : نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق ص ٢٦ المكتب الإسلامى . بيروت ص ٢

٢ـ القاضى : عياض : السابق

٣ ـ القاضى عياض : السابق.

ولكنهم لم يتخذوك خليلاً (صغرى ـ رفع فيها التالى)

∴ لم يفتنوك ولم تفترِ علينا (نتيجة ـ رفع فيها المقدم)

ولكن قد يقول قائل: إذا ثبت بطلان إلقاء الشيطان على لسانه «ﷺ» جملة (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) فلم إذن سجد المشركون ؟

يقول الإمام الألوسى: « ليس لأحد أن يقول : إن سجود المشركين يدل على أنه كان فى السورة ماظاهره مدح آلهتهم ، وإلا لما سجدوا ، لأننا نقول : يجوز أن يكونوا سجدوا لدهشة أحبائهم ، وخوف اعتراهم عند سماع السورة لمافي قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) ﴾ [النجم: ٥٠ - ٥٤] إلى آخر الآيات ، فاستشعروا نزول مثل ذلك بهم .. وقد ظنوا من ترتيب الأمر بالسجود على ما تقدم أن سجودهم لو لم يكن عن إيمان كاف فى دفع ما توهموه . ولا تستبعد خوفهم من سماع مثل ذلك منه «ﷺ»...» فقد ذكر السيوطى أمثلة فى أول « الإتقان » من حديث ابن عباس فلما سمع عتبة بن ربيعة قوله تعالى فى سورة السجدة: ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ أمسك على فم رسول الله «ﷺ» وناشده الرحم ، واعتذر لقومه حين ظنوا أنه صبأ وقال : (كيف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب؟ فخفت أن ينزل بكم العذاب)»[1] .

هذه هى قصة الغرانيق ، وضح أنها مرفوضة عقلاً ، فضلاً عن تهافتها من ناحية النقل ، ولاشك أن كلام «واط» ـ وبعض المستشرقين ـ حولها يظهر تحيزه فى تطبيق نزعته الشكية ، فبمجرد أن يجد رأياً فى غير صف الرسول وإن كان تافهاً ، أو كاذباً، ينقلب شكه إلى يقين وتأييد ، ولا شك أن هذا يعد أسوأ نموذج للإنحراف العلمى الموضوعى من جانب هذه الفئة من المستشرقين التى تتمسح فى العلمية والمنهجية .

ماذا أخذ محمد ـ «ﷺ» من التوراة والإنجيل ؟!

ذهب كثير من المستشرقين أن محمد نقل عن التوراة قصص الأنبياء ، وتوحيد الألوهية ، وعرف الملائكة من خلالها ، وعقيدة القضاء والقدر ... إلى آخر هذه المزاعم .

---

١ ـ الألوسى : جـ٢٧ ص٥٠ ـ ٥٩ دار إحياء التراث العربى بيروت ، وأنظر : الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى : نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق ص٣٨ . المكتب الإسلامى بيروت ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

التوحيد :

أما التوحيد فى القرآن ، فإن من يزعم أن اليهودية والمسيحية دينا توحيد وإن محمداً أخذ عنهما هذه العقيدة ، فعليه بالبينة : أولاً : أنهما دينا توحيد ثانياً: إن محمداً أخذ عنهما .

والبينة بين أيدينا كتابنا وكتاباهما فلنستعرض بعض مزاعمهم لنكشف عن هذا التوحيد فى عهديهما وإن كنا لا نعلم ـ مسبقاً ـ وجهاً ولا سبباً للمقابلة بين نص قرآنى وآخر توراتى أو إنجيلى فالأول وحى الله تعالى ، والآخران نالتهما يد البشر باعتراف علمائهم، غير أننا فى حالة اضطرار، فقد لجأ «الفريد جيوم» إلى مقابلة نص إسلامى بنص توراتى مستنتجاً أخذ الإسلام من التوراة باعتبار الإسلام لاحقاً .

فمثلاً يقابل شطر حديث أخرجه الإمام البخارى عن ابن عباس ، يقول : « ... أنت إلهى لا إله غيرك » (١) بنص توراتى يقول :

« لتعلم أن الرب هو الإله ، ليس إله سواه » (٢). ثم زعم أن الأول مأخوذ عن الثانى .

أما إقرار الله جل وعلا بالعبادة، وكما جاء: فى حديث معاذ بن جبل: « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » (٣) .

زعم «جيوم» أنه مأخوذ من نظير له فى التوراة يقول: « الرب إلهكم تسيرون وإياه تتقون ووصاياه تحفظون وإياه تعبدون » (٤) .

وعلى منوال جيوم نسج «ستوبرت» ، فحديث رسول الله «ﷺ» وهو يحطم الأصنام حول الكعبة يوم الفتح مأخوذ أيضاً من التوراة .

يقول عبدالله بن عباس : «دخل النبى «ﷺ» مكة ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصباً ، فجعل يطعنها بعود ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد » (٥) .

هذا الحديث أخذه رسولنا الكريم ـ فى زعم ستوبرت ـ من عبارة سفر التثنية ـ

---

١ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى : كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى ﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ﴾ جـ١٣ ص٣٧١ .

٢ ـ تثنية الاشراع : ٤ :٣٥ .

٣ ـ صحيح مسلم بشرح النووى : كتاب الإيمان : باب حق العباد على الله جـ١ ص٢٣١ ، ٢٣٢ .

٤ ـ تثنية : ١٣ : ٥ .

٥ ـ صحيح مسلم بشرح النووى . كتاب المغازى . باب فتح مكة جـ٢ ص١٣٣ .

لا يكون لك آلهة تجاهي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ، صورة ما في السموات من فوق ، وما في الماء من تحت الأرض ، تسجد لها وتعبدها [1] .

سبق لنا تقرير ما اتفق عليه العلماء ، أنه ليس بالضرورة أن يكون اللاحق آخذاً من السابق ، فمرجعهما قد يكون وحدة المصدر ، وما دام كل من عند الله فليس من الضروري أن يأتي الإسلام دائماً بشيء مخالف وجديد ، ولا يقتضي هذا ـ كما قلنا ـ أن محمداً اقتبسه ، ولكن رسالة الأنبياء من عهد آدم واحدة وتختلف الشرائع فيقر الله منها ما يشاء وينفي ما يشاء حسب مصالح عباده ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت : ٤٣] .

وبالرغم من اعتراف كثير من علماء الغرب وباحثيه باللمسات البشرية في إعداد الكتاب المقدس، حتى قالوا إن الكتاب المقدس المتداول حالياً لا يحتوي على التوراة والإنجيل المنزلين من الله .

نقول برغم هذا إلا أننا نوافق « جيمس هيستنج »على قوله « ..ومع هذا فإننا نتوقع أن نجد خلال صفحات الكتاب المقدس بعض الأجزاء من التوراة والإنجيل الأصليين مما يتحتم معه دراسة جادة لكي نجعل مضمون الكتاب المقدس مفهوماً »[2] .

ثانياً : وعلى فرض صحة الاتفاق ، فإن هناك فرقاً كبيراً بين الاتفاق والاقتباس ، فبينهما فراغ هائل .

وقبل أن نعرض لنماذج للتشبيه والتجسيم الغليظين في أسفار العهدين: القديم والجديد ـ مع تنزيه الله جل وعلا ، أو أن يكون هذا كلامه ـ نشير إلى مفهوم التوحيد في القرآن الكريم .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: التوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا الله: لا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يوالي إلا له، ولا يعادي إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله، وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات. قال تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]وقال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل :٥١] وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[الزخرف:٤٥] وأخبر عن كل نبي من

١ ـ تثنية ٥: ٧ـ ٩ .
٢ ـ James Hasting , Dicatianary of Bible (New York , 1963) PP.567-569

الأنبياء أنهم دعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له»[١]

هذا التوحيد الذى عليه اعتقادنا منشور فى قرآننا من أوله إلى آخره ، فضلاً عما جاءنا فى صحيح السنة النبوية . فرسل الله وأنبياؤه من أولهم إلى آخرهم بعثوا لدعاء العباد إلى توحيد الله ـ جل وعلا ـ بتوحيد العبادة ، لقد دعت الرسل أممها إلى قول: لا إله إلا الله ، واعتقادمعناها لامجرد قولها باللسان ، ومعناها هو إفراد الله بالإلهية والعبادة ، والنفى لما يعبد من دونه والبراءة منه .

ونشير إلى شهادة نصرانى منصف ، هو الدكتور نظمى لوقا حيث يقول: ﴿ ..لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ وفى ذلك نقض لعقائد الشرك وتصحيح لعقائد أهل الكتاب أيضاً ... فقد صار أتباع المسيح إلى القول بألوهيته وأنه ابن الله ... ولم يرد على لسان المسيح فى أقواله الواردة فى بشارات حواريه (الأناجيل) إشارة إلى شىء من ذلك بل كان يدعو نفسه على الدوام (بابن الإنسان) .

« لابد من رد الناس إلى بساطة الاعتقاد ولابد من نفى اللبس وشوائب الريب عن جوهر هذه العقيدة وهو التوحيد ، مطلق التوحيد .

«إذن تعين أن يأتى الدين الجديد ـ الإسلام ـ بحسم هذا الاختلاف الوبيل ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ »

﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ . فأقرب إلى العقل أن من يلد أحرى أن يولد ... وما كان سبحانه فرداً فى جنس وواحد فى سلالة من نوعه ـ حاشاه ـ ... بل جل عن النظراء والأكفاء فمن ذا الكفء لله ؟[٢].

وينتهى بعض المستشرقين إلى القول : «ومحمد «ﷺ» لم يغرس فى نفوس الأعراب مبدأ التوحيد فقط ، بل غرس فيها أيضاً المدنية والأدب »[٣] .

○ مظاهر اللمسات البشرية فى إعداد التوراة والإنجيل :

طريقة المستشرقين فى المقابلة بين النصوص ، طريقة غير علمية لافتقارها إلى الموضوعية ، فضلاً عن مكابرتهم لإفحام الخصم ، أى إفحام المسلمين . يتكلمون

---

١ ـ الشيخ عبدالرحمن آل الشيخ : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص١٥ دار الفكر بيروت ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .
شرح العقيدة الوسطية للشيخ محمد خليل هراس ص١٧ . الكتاب الإسلامى بالمدينة المنورة ١٤١٢هـ

٢ ـ د. نظمى لوقا : محمد الرسالة والرسول ص٥٣ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ٨٦ ط١ ١٩٥٩م .

٣ ـ هنرى سيروى : فلسفة الفكر الإسلامى ص٨ ترجمة محمد إبراهيم سلسلة الثقافة الإسلامية عدد ٣٢ . القاهرة ١٩٦١م ، أيضاً : رودى بارت : الدراسات العربية والإسلامية ص١٥ مصدر سابق .

عن التوحيد في التوراة والإنجيل ، فيسوقون نتفاً من هنا وأخرى من هناك ، أما تشبيه الله ـ جل وعلا وتجسيده ، ورميه بالتعب والنصب ، والجهل والندم وعجزه أمام نبي من أنبيائه ، وتحريضه موسى وبني إسرائيل على الكذب والنفاق والسرقة ، كل هذا يسقطونه أو يتجاهلونه ، وهم بذلك أمام أمرين كلاهما مرٌّ : إما أنهم يعتبرون هذا توحيداً أو أنهم يظنون المسلمين جهلة أغبياء .

١ــ جاء في سفر الخروج : « فقال الرب لموسى : انظر قد جعلتك إلها لفرعون وهارون اخوك يكون نبيا » (١)

النص ينسب إلى الله جل وعلا ــ أنه أشرك موسى معه في الألوهيه .

٢ ـ ويبدو أن إلصاق النبوة لله تعالى ليس من صنع بولس وإنما أخذها من أحبار اليهود كتاب التوراه .جاء في نفس السفر أن الله جل وعلا قال : « إن إسرائيل ابني البكر »(٢) أي أنهم اعتقدوا بوجود ابن لله ،فهل هذا من التوحيد ؟

٣ ــ نسب كاتب سفر التكوين إلى الله القصور عن الإدراك ، والجهل ــ فليس هو علام للغيوب ــ والندم والحزن . يقول :«ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض ، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم . فحزن الرب أنه عمل الإنسان وتأسف في قلبه »(٣)

الله جل وعلا ـ لم يكن يعرف ان شر البشر سيكثر ، فندم على خلقهم بعد أن رأى شرورهم (!)

٤ ـ أما كاتب (يونان) فيقول : « فلما رأى الله أعمالهم أنهم (٤) رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه » (٥)

وجاء في سفر صموئيل الأول : «وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلا : ندمت على أني جعلت شاول ملكا .لأنه رجع من ورائي،ولم يقم كلامي » (٦)

٥ ــ وجاء في سفر الخروج ، أن الرب غضب غضبا شديدا وقال لموسى: «رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبه ، فالآن اتركني ليحمى غضبي وأفنيهم .

فتضرع موسى أمام الرب إلهه وقال : ...يتكلم المصريون قائلين : أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال ... إرجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك ... فندم

---

(١) سفر الخروج ٧ :١ . (٢) سفر الخروج ٤ : ٢٢ . (٣) تكوين : ٥ ـ ٦ .

(٤) هم أهل نينوى و هي محافظة بشمال العراق الآن . (٥) يونان ٣ : ١٠ .

(٦) صموئيل الأول ١٥ : ١٠ ـ ١١ ، ٣٥ .

الرب على الشر الذى قال أنه يفعله بشعبه »[١]

ما هذا الإله الذى يركبه الغضب فيتوعد ويهدد ثم يعظه موسى ، ويأمره أن يندم فيفيء إلى رشده ،ويندم على هذا التهديد وهذا الغضب ،ألمثل هذا الإله صورة فى الإسلام ؟

هذه صورة إله بدائى تسعه عقلية لم تسل عبادة الأشباح ،وكاتب السفر لم تشرق فى عقله عقيدة التوحيد ،ولهذا جعله إله موسى ، وإله بنى إ سرائيل فقط ، فهو إذن يسلم بوجود آلهة أخرى لأمم أخرى وهو بعد هذا إله [٢]

ياترى ماذا استفاد محمد ـــ ﷺ ـ نبى الإسلام وسرقه منهم ؟

يقول الإمام ابن القيم : ومن العجب تواطؤهم على إمتناع النسخ على الله فيما شرعه لعباده ، لئلا يلزم منه البداء،ثم يقولون : إن الله ندم وبكى على الطوفان، وعض أنامله ، حتى رمدت عيناه ، وعادته الملائكة[٣]

٦ـ نسب سفر التكوين التعب والنصب إلى الله ـ جل وعلا ـ بعد عمل ستة أيام«وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمله . وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأن فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقا » [٤]

بدل اليهود لفظ «استراح » بلفظ «فونغ »فى الترجمة الأردية للكتاب المقدس، لأنهم رأوا أن الاستراحة لاتليق بذات الله تعالى ،واستحيوا من انتماء هذا اللفظ إلى الله تعالى ،المنزه عن الصفات البشرية [٥]

و فى النص الإنجليزى دلالة على ذلك:

and on the seventh day god ended work which he made ;and he rested on the seventh day from all his work which he had made [٦]

---

١ خروج ٣٢ : ٩ ـ ١٤

٢ د عبد الجليل شلبى . رد مفتريات على الإسلام ص ٨٨ دار القلم الكويت ١٤٠٢هـ ـــ ١٩٨٢ م

٣ ابن القيم هداية الحيارى ص ٥٨٣ ـ ٥٩٠ .وانظر : نبوة محمد «ﷺ» للمؤلف

٤ تكوين ٢ ٢ـ٣

٥ المودودى تفهيم القرآن جـ ٥ ص ١٢٥ .

٦- The holy Bible King James version1611, Genesis.

وفي سفر ا لخروج جاء : « لأنه فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض وفى اليوم السابع استراح وتنفس » [١]

ورد الله تعالى هذه الفرية في قرآنه الكريم ﴿ولقدْ خلقْنا السّموات والأرّض وما بيْنهما في ستَّة أيَّامٍ وما مسَّنا من لّغوبٍ (٣٨)﴾ [ق : ٣٨]

يقول المستشرق الفرنسى «بوكاى» : وإنه لمن الجلى الاستراحة التى أخذها الله بعد عمل دام ستةأيام هى أسطورة » [٢]

٦ ـ يقررسفر الخروج أن الله ـ جل وعلاـ حرض اليهود على الكذب والنصب والاحتيال على المصريين حين خروج اليهرد من مصر ، فيقول: « ولاتمضوا فارغين بل تطلب كل امرأة من جارتها ،ومن نزيلة بيتها ،أمتعة فضة وأمتعة ذهب ، وثيابا ، وتضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين »[٣]

عجيب أمر المستشرقين يثيرون الشبهات حسدا من عند أنفسهم وفى كتبهم ما يندى له الجبين

يقول كاتب سفر الخروج : «فتكلم الرب على مسامع الشعب ،أن يطلب الرجل من صاحبه ،والمرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب ...

وآتى الرب الشعب حظوة فى عيون المصريين فأعاروها لهم وسلبوا المصريين »[٤] فصنع بنو إسرائيل كما أمر موسى ، فطلبوا من المصريين أمتعة ذهب وثياباً.

هذه نظرة اليهود للألوهية ،وتلك منزلة الله جل وعلا فى توراتهم ، يقول الدكتور نظمى لوقا : «لقد أسف الشعب المسف بالتوحيدنفسه حتى جعلوا الأوثان فى بيوتهم ...أما الروح والضمير ، أما النظرة الشاملة لبنى الإنسان كافة ... فذلك وعى لم يكن لديهم إلامطموساً »[٥] لا نريد أن نستطرد فى ذكر افتراءاتهم على الله ـ جل وعلا ـ وأ نبيائه ـ عليهم السلام ـ فهى فى غاية الكثرة ولكننا أردنا ـ وفى عجالة ـ أن نضع طرفاً منها أمام المستشرقين والمنصرين لعلهم يتأملون فيرجعون .

لقد أصاب الدكتور «طيباوى »حين نحى باللائمة على المستشرقين والمنصرين لإشعالهم نار الحرب على الإسلام ،ونبى الإسلام ، ووضعهم بذلك عقبات خطيرة

---

(١) خروج ٣١ : ١٧ .

(٢) موريس بوكاى : التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ص ٤٩ ـ ترجمة الشيخ حسن خالد المكتب الإسلامى دمشق / بيروت ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م

(٣)الخروج ١٢ : ٢٣ ـ ١٥ . (٤) الخروج ١١ ٢ ، ١٢ ، ٢٦ ، ٢٧

(٥) د . نظمى لوقا : السابق ص ٦٣ ـ ٦٤

في طريق الحركة الفكرية بيننا وبينهم [(١)]

لقد أصبح المستشرق ـ بدافع عدائي ـ مشغولاً باستكشاف ما يسميه الأصول اليهودية المسيحية . ولما كان العين بالعين والسن بالسن فإننا نشير إلى بعض النصوص عند البراهمة والبوذيين وما يقابلها عند المسيحيين في ذات الوقت ننزه الله ـ جل وعلا ـ أن يكون هذا كلامه ، وننزه عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ أن يكون هو قائله ، فلن نجهل فوق جهل الجاهلين.

* * *

(١) د عبد اللطيف الطيباوى : المستشرقون الناطقون بالانجليزية ترجمة د . قاسم السامرائى ص ٣١ . ١٤١١هـ ـ ١٩٩١ مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

مقارنه بين عقائد المسيحيين حالياً و عقائد الوثنيين من البراهمة الهنود

أقوال الهنود الوثنين في كريشنه ابن الله	أقوال النصاري المسيحين في عيسي أو يسوع ابن الله
١ ـ كريشنه هو المخلص و الفادى و المعزى والراعي الصـالح و الوسـيط و ابن الله والأقنوم الثـانى من الثـالوث المقـدس و هو الآب والإبن و الروح القدس .	١ـ يسوع المسيح هو المخلص و الفـادى والمعزى و الراعى الصالح و الوسيط و ابن الله و الأقنوم الثـانى من الثـالوث المقـدس وهو الآب والابن و الروح القدس .
٢ ـ و لد كـريشنه من العـذراء ديفـا كى التى اختارها الله والدة لابنه بسبب طهارتها و عفتها .	٢ ـ ولد يسـوع من العـذراء مـريم التى اختـارها الله والدة لابنه بسبب طهـارتهـا وعفتها .
٣ ـ مـجـدت الملائكة ديفـا كى والدة كـريشنه ابن الله و قـالوا يحق للكون أن يفاخر بابن هذه الطاهرة .	٣ ـ فدخل إليها الملاك و قال سلام لك أيتها المنعم عليها الرب معك .
٤ ـ عرف الناس ولادة كريشنه من نجمـه الذى ظهر فى السماء .	٤ ـ لما ولد يسوع ظهر نجمـه من المشرق وبواسطة ظهور نجمـه عرف الناس مـحل ولادته .
٥ ـ لما ولد كريشنه سبحت الأرض و أنارها القـمـر بنوره و ترنمت الأرواح و هامت ملائكة السماء فرحا و طربا و رتل السحاب بأنغام مطربة .	٥ ـ لما و لد يسـوع المسيح رتل الملائكة فرحاً و سرورا و ظهـر من السحاب أنغام طربه
٦ ـ كـان كـريشنه من سلالة مـلوكـانيـة	٦ ـ كان يسوع المسيح من سلالة ملكية

يرجع إلى كتاب تاريخ الهند المجلد الثانى من صفحة ٣١٧ ـ صفحة ٣٢٩ ـ ٣٣٦ و إنجيل لوقا الإصحاح ٣ إنجيل متى الإصحاح الثانى .

و لكنه و لد فى غار بحال الذل و الفقر .	ويدعونه ملك اليهود ولكنه ولد فى حالة الذل و الفقر بغار فى فلسطين
٧ ـ لما ولد كـريشنه أضيء الغـار بنور عظيم و صار وجه ديفاك أمه يرسل أشعة نور و مجد .	٧ ـ لما ولد يسوع المسيح أضيء الغار بنور عظيم أعيا بلمعانه عينى القابلة و عينى خطيب أمه يوسف النجار .
٨ ـ و من بعد ما وضعته صارت تبكى وتندب سوء عـاقبـة رسالتـه فكلمـهـا وعزاها.	٨ ـ قال يسوع المسيح لأمه و هو طفل يا مريم أنا يسوع ابن الله و جئت كما أخبرك جبرائيل الذى أرسله أبى إليك وقد أتيت لأخلص العالم .
٩ ـ و عـرفت البـقـرة أن كـريشنه اله وسجدت له .	٩ ـ و عرف الرعاة يسوع و سجدوا له .
١٠ ـ و آمن الناس بكريشنه واعـتـرفـوا بلاهوته و قـدمـوا له هدايا من صندل وطيب .	١٠ ـ و آمن الناس يسوع المسيح .
١١ ـ و سـمع نبى الهنود (نارد) بمولد الطفل الإلهى كريشنه فذهب و زاره فى (كركول) و فحص النجوم فتبين له من فحصها أنه مولود إلهى يعبد .	١١ ـ و لما ولد يسـوع فى بيت لحم اليـهـودية فى عـهـد هيـرودوس الملك إذ الماجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قـائلين أين هو المولود ملك اليهود.
١٢ ـ أن كريشنا انبثق من الإله براهما الذى كان قبل الوجود حيث خالق العالم	١٢ ـ أن الآب هـو الأصل و الأبـن هـو الكلمـة التى تجسدت فى المسيح و أن

١ ـ يرجع إلى كتاب فيشنوبرانا صفحة ٥٠٢ .

٢ ـ تاريخ الهند المجلد الثانى ص ٣١١.

٣ ـ كتاب الديانات الشرقية.

٤ ـ كتاب الديانات القديمة المجلد ٢ .

١ ـ انجيل لوقا اصحاح ٢ .

٢ ـ انجيل لوقا اصحاح ٢ .

٣ ـ انجيل متى اصحاح ٢ .

و سمى نفسه الخالق و كريشنا هو الذى خلص بنى الإنسان بتقديم نفسه للصليب فداء عنهم و من ثم يصورونه مصلوبا مثقوب اليدين و الرجلين و على قميصه صورة قلب إنسان معلق و هناك إله آخر انبثق من الإله براهما و يدعى سيفا موكل بالخراب و الفناء .	اعدام المسيح صلبا كان تكفيرا منه عن خطيئه آدم الأزلية بعد أن أكل من شجرة المعرفة فانتقلت الخطية إلى ذريته جيلا بعد جيل و إلى جميع نسله حتى افتداهم المسيح و خلصهم من هذه الخطيئة بقتله و صلبه ـ و هناك أقنوم ثالث ضمن ثالوث الإله هو روح القدس .

مقارنة بين ما يقوله عباد الوثنية في بوذا ابن الله
و بين ما يقوله النصاري المسيحيون في يسوع المسيح ابن الله

أقوال الهنود الوثنيين في بوذا ابن الله	أقوال النصاري و المسيحيين في يسوع ابن الله
١ ـ ولد بوذا من العذراء مايا بغير مضاجعة رجل .	١ ـ ولد يسوع المسيح من العذراء مريم بغير مضاجعة رجل .
٢ كان تجسد بوذا بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا .	٢ ـ كان تجسد يسوع المسيح بواسطة حلول الروح القدس على العذراء مريم .
٣ ـ لما نزل بوذا من مقعد الأرواح ودخل في جسد العذراء مايا صار رحمها كالبلور الشفاف النقى و ظهر بوذا منه كزهرة جميلة .	٣ ـ لما نزل اليسوع من مقعده السماوى و دخل فى جسد مريم العذراء صار رحمها كالبلور الشفاف النقى و ظهر فيه يسوع كزهرة جميلة .
٤ ـ وقد دل على ولادة بوذا نجم ظهر فى أفق السماء ويدعونه نجم المسيح .	٤ ـ و قد دل على ولادة يسوع نجم ظهر فى الشرق و من الواجب أن يدعى نجم المسيح .
٥ ـ ولد بوذا من العذراء مايا التى حل فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد أى فى ٢٥ كانون الأول .	٥ ـ ولد يسوع بن العذراء مريم التى حل فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد أى فى ٢٥ كانون الأول .
٦ ـ لما ولد بوذا فرحت جنود السماء ورتلت الملائكة أناشيد المجد للمولود المبارك قائلين ولد اليوم بوذا على الأرض كى يعطى الناس المسرات و السلام ويرسل النور إلى المجالات المظلمة و يهب بصراً للعمى .	٦ ـ لما ولد يسوع فرحت ملائكة السماء و الأرض و رتلوا الأناشيد حمدا للواحد المبارك قائلين المجد لله فى الأعالى و على الأرض السلام و بالناس المسرة .

بوذا	يسوع
٧ ـ وعرف[1] الحكماء بوذا[2] و أدركوا أسرار لاهوته و لم يمض يوم على ولادته حتى جاء الناس و دعوه إله الآلهه . ٨ ـ و أهدوا بوذا و هو طفل هدايا من مجوهرات و غيرها من الأشياء الثمينة . ٩ ـ لما كان بوذا طفلا قال لأمه مايا أنه أعظم الناس جميعاً[3] . ١٠ ـ كان بوذا ولدا مخيفاً و قد سعى الملك جمارا لقتله لما أخبروه أن هذا الغلام سينزع الملك من يده إن بقى حياً . ١١ ـ أن بوذا هو الابن الوحيد و أنه تجسد في الناسوت و قدم نفسه ذبيحة ليكفر عن ذنوب البشر ومن ثم يسمونه المسيح و المخلص و الابن .	٧ ـ وقد زار الحكماء يسوع و أدركوا أسرار لاهوته و لم يمض يوم على ولادته حتى دعوه إله الآلهة . ٨ ـ و أهدوا يسوع و هو طفل هدايا من ذهب و طيب و مر . ٩ ـ لما كان يسوع طفلا قال لأمه مريم أنا ابن الله . ١٠ ـ كان يسوع ولدا مخيفا و سعى الملك هيردوس وراء قتله كى لا ينتزع الملك من يده . ١١ ـ أن الإبن يسوع هو الكلمة التى تجسدت فى المسيح نتيجة التقاء روح القدس بمريم العذراء و أنه صلب تكفيرا عن خطيئة آدم الأزلية التى انتقلت إلى ذريته حتى خلصهم المسيح بقتله و صلبه عن هذه الخطيئة .
١ ـ أنظر تاريخ الهند المجلد الثانى صفحة ٣١٧ . ٢ ـ كتاب ديانة الهند الوثنية للولبى صفحة ٨٢، ١٠٨، ٣ ـ كتاب تاريخ البوذيه صفحة ١٠٣، ١٠٤ تأليف بيل .	١ ـ أنظر إنجيل متى إصحاح ٢ عدد ١ ، ٢ وكذلك الإصحاح الأول . ٢ ـ كتاب الكونت امبرلى المدعو تحليل العقائد الدينية ص٤٢٤ . ٣ إنجيل الطفولة إصحاح ١ عدد ٣

الخاتمة

موضوع الوحى من أوسع الموضوعات وأدقها التى تناولها المفكرون الإسلاميون بالبحث والدرس والتحليل وإقامة الأدلة العقلية على إمكان الوحى وصحته وسلامته، كذلك تناوله فريق كبير من المستشرقين فى دراساتهم وأبحاثهم، ولكن اتضح لنا ـ من خلال هذا البحث ـ الهوة الهائلة التى تفصل بين الفكرين: الفكر الإسلامى، والفكر الغربى الاستشراقى ففى حين يقوم الأول على القرآن والسنة، يقوم الثانى على العقل الأرسطى اليوناني . الأول يقوم على ميتافيزيقا القرآن ـ إذا جاز التعبير ـ والثانى يقوم على الميتافيزيقا الأرسطية وهى مخالفة كل المخالفة لإلهيات المسلمين .

الوحى كما جاء فى القرآن الكريم وأخبرت به السنة تعليم خاص وهو المصدر الرئيسى لعلم الأنبياء، وهو بعد ذلك تجربة شخصية ارتبطت أولاً وأخيراً بمن تعرض لها، وهو تجربة فرضت من الله ـ جل و علا ـ ولم تأت قط بمشيئة إنسان .

إن أعظم دليل على نبوة محمد ﷺ وهو لا يزال قائما، موجوداً بين أيدينا هو القرآن الكريم، ذلك الذى أعجز أساطير البيان من العرب مع أنه منظوم من نفس الحروف و الكلمات التى ينظمون بها كلامهم .

ولما أعجز القرآن أصحاب اللسان العرب ، فهو لغيرهم أعجز .

لقد ثبت عند جمهور العلماء ـ وعند اليهود و النصارى ـ تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات ـ فضلاً عن الخبر ـ وثبت بدلالة الإخبار و الحس و المشاهدة : ما أجرى الله جل و علا على يدى محمد ﷺ من معجزات حسية ، مادية ، تماما كالأحداث التى وقعت للأنبياء السابقين .

فإن ردوا التواتر قلنا : إن المعجزة لا تدل على الصدق ، فحينئذ تبطل نبوة سائر الأنبياء ، وإن اعترفوا بصحة التواتر ، واعترفوا بدلالة المعجزة على صدق من أجريت على يديه ـ ثم إنهما حاصلان فى حق محمد ـ وجب الاعتراف قطعاً بنبوة محمد ﷺ ضرورة عند الاستواء فى الدليل لابد من الإستواء فى حصول المدلول[1]

وهم ـ أى أهل الكتاب ـ محجوجون بما ثبت عندهم من الأخبار عن الصادق المصدوق ﷺ . كما بطل زعم العيسوية من اليهود : أن إرسال محمد ﷺ كان إلى العرب خاصة ، لان مقتضى تسليمهم برسالته إلى العرب أن يصدقوه فى كل ما جاء

١ ـ الرازى : مناظرة فى الرد على النصارى ص ٢٢ مصدر سابق.

به ، ومن بين ما جاء به ؛ قول الله جل و علا ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [سبأ : ٢٨] بدا واضحاً أن من أهم أهداف الاستشراق ، صد العقل الأوربى عن معرفة الإسلام الحق و الوقوف عليه من مصادره ومنابعه الأصلية من ناحية أخرى محاولة تشكيك المسلمين فى عقيدتهم وإضعاف روحهم المعنوية كى يخضعوا مستسلمين للاستعمار : العسكرى ثم الفكرى .

لقد أدرك المستشرقون أن قوة المسلمين تكمن فى دينهم و أن روح المقاومة تكمن فى عقيدتهم ، فسعوا جاهدين للنيل من الإسلام لتنهار روح المقاومة . و غير خافٍ ـ علينا ـ وسائلهم لتحقيق أهدافهم ـ فضلاً تشويهاتهم ـ : من علمانية ، وجودية وفرويدية ، وبرمجاتيه و ..

أما عن محاولة بعض المستشرقين رد القصص القرآنى إلى أصول يهودية مسيحية ، فقد باءت بالفشل ، للتباين الواضح بين هذه وتلك فضلاً عن إفحام فريق آخر من المستشرقين لادعاءات الفريق الأول فى هذا الصدد .

كما فشلت محاولات المستشرق الإنجليزى « مونتجمرى واط » ـ الذى يدعى الإيمان ـ رد القرآن الكريم إلى العنصر البشرى ممثلاً فى محمد ﷺ ، وذلك حين حلل النبوة و أرجعها إلى ما أسماه التصور الخلاق أو التصور الخالق.....
creative immgination (١) ومعناه أن الوحى نوع من النشاط الذهنى غير العادى ، كما يظهر عند بعض الموهوبين ..

واتضح لنا أن القاسم المشترك بين المستشرقين ـ إلا قليل منهم ـ القدامى والمحدثين ، التشكيك في إلهية النص القرآنى ، و الوحى إلى محمد ﷺ ، ولم يتورعوا عن دس الأكاذيب و الأساطير ، كما فعل « هنرى لامانس » فى (كتابه فاطمة وبنات محمد) (٢) . ويبدو أن هذا التوارث أمر طبيعى على اعتبار أن اللاحق ينقل عن السابق .

علماً بأن التحرى العلمى يطلب من المستشرقين ـ وغيرهم من الباحثين ـ أن يتتبعوا جوهر حقيقة الإسلام حيث توجد فى مظانها الأولى ، أى فى القرآن وصحيح السنة ، لا أن يحكموا عليها من خلال وجهة نظر مستشرقين سابقين إليها ، مع ما عرف عنهم من عداء صريح للإسلام ونبى الإسلام .

---

١ ـ M.wat: Muhammad - Prophet and states man oxford uni - press new york 1978, p237

٢ ـ د . عبد الرحمن بدوى : موسوعة المستشرقين ص ٣٤٧ ـ ٣٤٩ مصدر سابق .

ذكرت المستشرقة الإنجليزية « تشاريس وادى» أن الغربيين لم يعرفوا الإسلام إلا من الغربيين ، ولم يعرفوه من أهله و لا من مصادره ، فهم عرفوه من أعدائه [١] ، ولو أن هؤلاء حذقوا اللغة العربية وتذوقوا بلاغة القرآن لأدركوا إعجازه و أنه تنزيل من حكيم حميد . وقد اعترف المستشرق « أندرسون » . رئيس قسم قوانين الأحوال الشخصية المعمول بها فى العالم الإسلامى ـ فى جامعة لندن ـ وهو متخرج من كلية اللاهوت فى جامعة كمبردج ، اعترف بأنه تعلم اللغة العربية من دروس اللغة العربية التى كان يلقيها بعض علماء الأزهر فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة ساعة فى كل إسبوع لمدة سنة واحدة [٢].

وقد حصل الدكتور طيباوى على معلومات مفصلة موثوقة من أحد الطلبة ممن درس اللغة العربية ـ فى جامعة كمبردج ـ خلال فترة ثلاث سنوات و بالتالى منحته الجامعة فى آخرها درجة الليسانس من الدرجة الأولى مع مرتبة الشرف : وهنا نشير فقط إلى المادة ومدرسها

ـ اللغة العربية الفصحى (المدرس : لايونز).

ـ اللغة العربية الحديثة (المدرس : هوبكنز).

و الكتاب الذى يدرس : كتاب هنرى بيريس : الأدب العربى و الإسلام

وكتاب نجيب محفوظ : اللص و الكلاب .

وكتاب أحمد أمين : كتاب حياتى .

وكتاب كان يا ماكان : لمخائيل نعيمة . وكتاب توفيق الحكيم : يوميات نائب فى الأرياف

(المدرس هوبكنز يساعده أحد الطلبة العرب)ـ القواعد العربية و القرآن (المحاضر : الطالب العربى المذكور أعلاه) .

أما عدد الساعات وعدد الطلبة وكثرة غياب المدرس ، أنظر المرجع المذكور.[٣]

وقد تبين أنه مهما ادعى الملتزم من المستشرقين المنهجية وعدم جرح مشاعر المسلمين ـ كما ادعى « واط » فى مقدمة كتاب « محمد فى مكة » ـ فإنه سرعان ما يتخلى عن منهجيته وأمانته ، فمهما « كان المستشرق ملتزماً بقواعد البحث

---

١ ـ The muslem mind نقلاً عن: د. عبد الجليل شلبى: ر د مفتريات .. ص ١٠٤ مصدر سابق.

٢ ـ د . مصطفى السباعى : الاستشراق و المستشرقون ص ٥١ مصدر سابق .

٣ ـ د . عبد اللطيف الطيباوى : المستشرقون الناطقون بالانجليزية ص ١٦٧ ـ ١٧٤ .

التاريخي و أصوله فإنه من خلال رؤيته التاريخية ، وتغربه يمارس نوعاً من التكسير والتجريح فى كيان السيرة ونسيجها ، فيصدم الحس الدينى ، ويرتطم بالبداهات الثابتة ... وهو من خلال منظوريه : العقلى و الوضعى يسعى إلى فصل الروح عن جسد السيرة ويعاملها كما لو كانت حقلاً مادياً للتجارب و الاستنتاجات و إثبات القدرة على الجدل .. »(١)

وإلى جانب هذا الخط العام للاستشراق ، تبين وجود فئة قليلة أنصفت الإسلام والنبى محمد ﷺ فى جل كلامها و أبحاثها ، وإن كان بدرجة محدودة نظراً للخلفية الفكرية و الثقافية و الاجتماعية الضاغطة عليهم .

وقد صدرت أصوات إسلامية تحذيرية حتى لا يخدعنا الأسلوب الحديث للمستشرقين فى تناولهم للإسلام .

« فالمفكرون المسلمون يعرفون جميعاً أنه فى العقدين الأخيرين قد تراجع الاستشراق عن أسلوبه القديم المباشر و استعمل أسلوباً أشد مكراً ، و أسوأ سبيلاً ، وهو محاولة الدخول فى الموضوعات من باب التقدير و المدح حتى يخدع القارئ ويكسب ثقته ، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يثير شبهات خفيفة متتالية فى إطار هذا التقدير العام الكاذب ، وقد تنبه كثير من الباحثين المسلمين اليقظين ، و أشاروا إلى خطورته وحذروا من الانخداع له »(٢)

ونسوق مقالاً واحداً على هذا الخداع الذى حذر منه علماء المسلمين : جوستاف قرونبوم: « Von Grunebaum » يتحدث عن قبول العرب للدين الإسلامى فيقول :

١ ـ إن نظامه الدينى من أشد النظم و الديانات إحكاماً و أعظمها توافقاً وتماسكاً.

٢ ـ كان هذا النظام ينطوى على أجوبة مقنعة للمسائل الى كانت تشغل مواطنيه كما كان يتجاوب وروح العصر .

٣ ـ إنه رفع العالم الناطق بالعربية إلى مستوى العوالم الأخرى ذات الكتب المنزلة(٣)

---

١ ـ د . عماد الدين خليل : المستشرقون و السيرة ص ٦ مصدر سابق .

٢ ـ انور الجندى : شبهات التغريب فى غزو الفكر الاسلامى ص ٢٩ المكتب الاسلامى / دمشق ، بيروت ١٩٧٨ ، د . محمود حمدى زقزوق : الاستشراق و الخلفية الفكرية ... مصدر سابق .

٣ ـ جوستاف قرونبوم: حضارة الاسلام. ترجمة عبد العزيز جاويد ص ٩٨. القاهرة دار مصر للطباعة ١٩٥٦ م

كلام المستشرق يوحى بالموضوعية و الإقرار بالحقيقة فهل استمر و التزم بهذه الموضوعية فى طول كتابه و عرضه ؟ لننظر إليه يقول ـ بعد هذا الإطراء ـ : « كان الهواء يفوح بالزهد وكان الزهاد يحرمون الخمر ، ويستحبون الاعتدال الجنسى ، وكما حدث فى الإسلام بعد ذلك فالراجح أن العناصر المسيحية غلبت اليهودية فى تكوين وجهات نظرهم وسننهم ، ولكن العربى الذى كان يبحث عن الصدق لم يكن يعنيه كثيراً ممن يأخذ آراءه الدينية التى يستولى عليها ، ذلك أن حرمانه من كل ميراث قومى أجبره على الأخذ من مختلف العقائد »[١]

ومع أننا رددنا مثل هذه الادعاءات الكاذبة ، الضالة المضلة لأمثال هذا المستشرق ، إلا أننا ننبه : كيف أنه يتسلل برفق و لين ودهاء ، دون ضجيج ، ودون الإعلان عن خبيئة نفسه إلى التشكيك فى القرآن الكريم .

إننا نحمد الذى أحسن و أنصف ـ فقد أنصف نفسه و احترم عقله ـ غير أننا لا ينبغى أن نستنيم إلى المديح حتى لا نخدر .

*** المآخذ علي جل المستشرقين ومناهجهم فيمكن اجمالها في الآتي :**

١ ـ انتقاء الضعيف الشاذ من الروايات طالما أنها تحقق أهدافهم ، و الإعراض عن الروايات الصحيحة المتواترة .

٢ ـ البعد عن الموضوعية ، و التأسيس على موقف مسبق مثل : « الإسلام لا يمثل منافساً رهيباً فحسب بالنسبة إلى الغرب ، بل إنه يمثل كذلك تحدياً متأخراً للمسيحية »[٢] مما يتنافى وما يزعمه المستشرق (بارت)[٣] ـ مثلاً ـ من نوايا علمية خالصة .

وتفتقد الموضوعية تماماً فى تناولهم للإسلام ، أما عندما يتناولون البوذية والهندوكية وغيرهما يكونون موضوعيين فى عرضهم لهذه الديانات[٤]

٣ ـ الرجوع إلى آراء و كتابات مستشرقين قدامى عُرِف عنهم العداء الشديد والخصام الألد للإسلام و المسلمين ، مما يؤكد التماثل بين الصورة ـ السيئة ـ التى ينظمها المحدثون للإسلام و الصورة السيئة التى وضعها القدامى مع ادعاء المحدثين

---

١ ـ المصدر السابق ، مصطفى نصر المسلاتى : الاستشراق . السياسى ص ٤٢ مصدر سابق و أيضاً : هاملتون جب : دراسة فى حضارة الاسلام ، و أيضا : مونتجمرى واط What is Islam ?

٢ ـ ادوارد سعيد : تغطية الاسلام ... ص ٣٦ ترجمة سميرة نعيم خورى بيروت ١٩٨٣ م .

٣ ـ بارت : المرجع السابق ص ١٠ .

٤ ـ د . محمود حمدى زقزوق : السابق ص ١٤١ .

الموضوعية ، ومعالجة أخطاء القدامى .

ويعترف « سوذرن » بذلك ، فيقول : « ... وهكذا فإنه فى ضوء العهد القديم الذى جعل فيه المسلمين أعقاباً لإسماعيل ـ وجعلهم أعقاباً لهاجر الجارية المصرية ـ أمكن فهم أخلاق و سلوك هؤلاء ـ أى المسلمين و يطلق عليهم الرازانيون ـ وما كان (بدا) ـ هو عالم بنصوص الكتاب المقدس فى أوائل القرون الوسطى ـ أول من فعل ذلك ، كما لم يكن الأخير ، بيد أن أهمية ما قام به تكمن فى أنه أول من أدخل المسلمين فى تفسير العهد القديم وصار الآخر بعده بمثابة كليشيه يستعمله الجميع فى شروح الكتاب المقدس وخارجها»[(١)]

٤ ـ وبمقتضى ما سبق فإن الزعم بأن الاستشراق المعاصر قد تخلى عن الأفكار القديمة و التى كانت تسىء إلى الاسلام ونبى الإسلام ، غير صحيح ، فمن الواضح أن صورة العصور الوسطى النصرانية للإسلام قد ظلت فى جوهرها دون تغيير ، وإنما نفضت عنها الثياب القديمة لأجل أن تضع عليها ثياباً جديدة أقرب إلى العصر ، وتتعدد أمثلة الإصرار على الأفكار العتيقة سواء فيما يتعلق بالقرآن ومحمد ﷺ أو ما يتعلق منطقياً بالعقيدة و الشريعة و التاريخ فى الإسلام»[(٢)]

٥ ـ الاضطراب ـ أو قل الفوضى ـ فى تطبيق المناهج ، كمحاولاتهم إخضاع ما هو غيب مناهج مادية صرفة ، علما بأنه إذا أخضع الغيب للحس و العقل لا يكون غيباً و لا يكون ديناً[(٣)]

من ناحية أخرى لا يريد المستشرقون أن يستغل المسلمون نفس المقاييس التى استخدموها للتشكيك فى الإسلام ، لأنه لو تمكن المسلمون من استغلالها و تطبيقها على عقيدة المستشرقين لاضطر هؤلاء إلى أن يسلموا على الأقل بأن الدين لا يجب أن يخضع لمثل هذه المقاييس .

يقول الدكتور مصطفى السباعى : « ... ترى لو استعمل المسلمون معايير النقد العلمى التى يستعملها المستشرقون فى نقد القرآن و السنة ، فى نقد كتبهم المقدسة ، وعلومهم الموروثة ، ماذا كان يبقى لهذه الكتب المقدسة و العلوم التاريخية عندهم من

---

١ ـ ريتشارد سوزرن : صورة الاسلام فى أوربا فى القرون الوسطى ص ٥٣ بيروت ١٩٨٤م .

٢ ـ د . طيباوى : المصدر السابق ص ٣٥

٣ ـ أنظر: مباحث فى المعرفة فى الفكر الاسلامى للمؤلف ، د . حسن حنفى: التراث و التجديد ص٩٠ ١٠١ مصدر سابق .

قوة ؟ وماذا يكون فيها من ثبوت »[1] ؟

و أخيرا ، لماذا يقتصر عملنا على درس ما يكتبه المستشرقون و الرد على ما يزعمون ؟ لماذا لا يتخصص منا من يقوم بدراسة تراثهم الديني و الفكري و عرضه على مناهجهم ليتعرى ، ويظهر ما فيه من خلل ومثالب ؟ لا أقصد بالطبع الأعمال الفردية التي تظهر هنا وهناك ، إنما أعني عملاً جماعيا مخططاً له تخطيط علمي .

فهل آن لموسساتنا : العلمية و الثقافية و الاجتماعية و السياسية و الإعلامية ، ... أن تأخذ المبادأة ؟

أما بحثنا هذا فهو بداية لينطلق منها شباب الباحثين منافحين عن ماهم عليه من تفوق، ذابين عن نبيهم فلا ينال منه عرق ينبض ...

و الله ولينا ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

المدينة المنورة

٢٩ ربيع الأول ١٤١٤ هـ

١٥ سبتمبر ١٩٩٣ م

---

١ ـ د الساعي الاستشراق و المستشرقون ص ٦٤ ـ ٦٥ مصدر سابق

قائمة المراجع

أ ـ مراجع القرآن الكريم و تفسيره :

* المصحف .
١ ـ ابن كثير. : تفسير القرآن العظيم . ط . الشعب ، الحلبى بمصر
٢ ـ احمد بن منير الاسكندرى : الانتصاف بهامش الكشاف للزمخشرى . الطبعة الأولى . الشرقية
٣ ـ فخر الدين الرازى . : مفاتيح الغيب الطبعة الثانية طهران
٤ ـ القرطبى . : الجامع لاحكام القرآن. كتاب الشعب . مصر
٥ ـ محمود بن عمر الزمخشرى. : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل الطبعة الأولى . المطبعة الشرقية .

ب ـ مراجع السنة :

٦ـ ابن حجر العسقلانى. : فتح البارى شرح صحيح البخارى١٣٧٩ هـ
٧ ـ ابن كثير . : السيرة النبوية الحلبى بمصر .
٨ ـ ابن هشام. : السيرة النبوية تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد . المدنى بمصر
٩ ـ البخارى. : الصحيح طبعة عيس الحلبى مصر
١٠ ـ القسطلانى. : إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى . مصر ١٣٠٤ هـ .
١١ ـ مسلم. : الصحيح بشرح النووى . دار الفكر بيروت .

ج ـ المراجع العربية :

١٢ ـ ابراهيم بيومى مدكور (الدكتور). : فى الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه. دار المعارف ط ٣ .
١٣ ـ ابراهيم خليل احمد (الدكتور). : محمد فى التوراة و الانجيل و القرآن . دار المنار . مصر ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩
١٤ ـ ابراهيم اللبان : المستشرقون و الإسلام . القاهرة ١٩٧٠ م .
١٥ ـ ابن تيمية : الرد على المنطقيين ط لاهور ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م

: نقض المنطق . مكتبة السنة المحمدية بمصر
: النبوات . القاهرة ١٣٨٦ هـ
:الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤أجزاء) مطابع المجد التجارية
العقيدة الوسطية . شرح وتعليق د . محمد خليل هـراس. ط ٤ مـن مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
١٦ ـ ابن حزم . : الفصل فى الملل و النحل . مكتبة السلام(ب.ت) .
١٧ ـ ابن خلدون. : المقدمة . كتاب الشعب . دار القلم بيروت ١٩٨٤ م.
١٨ ـ ابن سعد . : الطبقات . طبعة بيروت.
١٩ ـ ابن القيم . : مدارج السالكين . دار الكتاب العربى . بيروت ١٣٩٢ هـ.
: مختصر الصواعق المرسلة مكتبة المتنبى (ب.ت) .
٢١ ـ ابن منظور . : لسان العرب دار المعارف بمصر ١٩٨٢ م .
٢٢ ـ ابن الهيثم (الحسن) : مقال الشكوك على بطليموس . تحقيق د. عبد الحميد صبرة . القاهرة ١٩٧١ ٢٣
٢٣ـ أبو بكر الجزائرى. : هذا الحبيب « محمد ﷺ » . مكتبة لينة بدمنهور / مصر ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .
٢٤ ـ أبو الحسن الندوى. : الإسلام و المستشرقون . ط . ندوة العلماء لكنهو . الهند (ب . ت)
٢٥ ـ د . أحمد سمايلوفتش(الدكتور). : فلسفة الاستشراق و أثرها فى الأدب العربى المعاصر دار المعارف بمصر ١٩٨٠م
٢٦ ـ أحمد الشرباصى . : التصوف عند المستشرقين . القاهرة ١٩٦٦ .
٢٧ ـ أحمد شلبى (د) . : مقارنة الأديان : المسيحية .
٢٨ـ أحمد عبد الرحيم السائح (الدكتور) : العلاقة بين الاستشراق و التبشير (الكتاب الدورى لقسم الاستشراق بكلية الدعوة بالمدينة المنورة . العدد الاول ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣).
٢٩ ـ أنور الجندى. : شبهات التغريب فى غزو الفكر الإسلامى المكتب الإسلامى دمشق / بيروت ١٩٧٨ م.
٣٠ ـ الاسفرايينى (أبو المظفر عماد الدين). : التبصير فى الدين ١٣٥٩ هـ.

٣١ ـ الإيجى(عبد الرحمن) : شرح المواقف . المطبعة العامرة ١٢٩٢ هـ
٣٢ ـ الباقلانى : إعجاز القرآن . بهامش الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ط ٣ الحلبى مصر.
٣٣ ـ البغدادى : أصول الدين . الخانجى بمصر ١٣٤٦ هـ .
٣٤ ـ البيهقى : دلائل النبوة و معرفة أحوال صاحب الشريعة ط أولى . دار النصر بالقاهرة .
٣٥ ـ الجرجانى : الرسالة الشافية تحقيق د. زغلول سلام،د.محمد خلف الله دار المعارف بمصر.
٣٦ ـ جواد على (الدكتور). : تاريخ العرب فى الإسلام.بيروت ١٩٨٣م
٣٧ ـ الجوينى. : الإرشاد إلى قواطع الأدلة.تحقيق د.محمد يوسف موسى مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٠م
٣٨ ـ حسن حنفى (الدكتور).: مقدمة فى علم الإستغراب.الدار الفنية ١٩٩١م
٣٩ ـ : التراث والتجديد .مكتبة الجديد .
٤٠ ـ : دراسات إسلامية دار التنوير ١٩٨٨م .
٤١ ـ حسين الهراوى. : المستشرقون والإسلام .مطبعة المنار ١٩٣٦ .
٤٢ـ الحكيم السموءل. : بذل المجهود فى إفحام اليهود .تحقيق د.عبد الوهاب الطويلة الدار الشامية بيروت.
٤٣ـ الدهلوى. : حجة الله البالغة.دار التراث القاهرة.
٤٤ـ الرازى (فخر الدين). : أصول الدين. دارالكتاب العربى.القاهرة .
: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين دار الكتاب العربى ١٩٨٤م.
: مناظرة فى الرد على النصارى .تحقيق عبد المجيد النجار. بيروت ١٩٨٦ .
٤٥ـ رحمة الله الهندى. : إظهار الحق .
٤٦ـ الرمانى.: النكت فى إعجاز القرآن .تحقيق د.زغلول سلام ، د.محمد خلف الله دار المعارف بمصر.

٤٧ـ رشيد رضا. : الوحى المحمدى .القاهرة ١٣٨٠هـ ١٣٦٠هـ .

٤٨ـ زكريا هاشم.: المستشرقون والإسلام .المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٥ .

٤٩ـ ساس سالم الحاج (الدكتور) . : الظاهرة الإستشراقية .مالطا ١٩٩١م.

٥٠ـ سيد قطب . : التصوير الفنى فى القرآن دار المعارف بمصر ١٩٦٦م.

٥١ـ السيوطى . : الإتقان فى علوم القرآن ط٣ الحلبى بمصر.

٥٢ـ الشاطبى . : الاعتصام . الإسكندرية (ب.ت).

٥٣ـ الشهرستانى . : الملل والنحل بهامش الفصل لابن حزم١٩٦٨م.

٥٤ـ الطبرى . : تاريخ الطبرى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط٤دار المعارف

٥٥ـ د. طه حسين . : فى الأدب الجاهلى . القاهره ١٩٥٨م.

٥٦ـ د.عائشة عبد الرحمن. : تراثنا بين ماض وحاضر .ط معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة. ١٩٦٨م.

٥٧ـ عباس محمود العقاد.: مطلع النور سلسلة كتاب الشهر بمصر ديسمبر١٩٦٨م.

٥٨ـ عبد الجليل شلبى (الدكتور).: الإسلام والمستشرقون . دارالشعب القاهرة .

٥٩ـ عبد الجليل شلبى(الدكتور). : رد مفتريات على الإسلام .دار القلم .الكويت ١٤٠٢هـ١٩٨٢م.

٦٠ـ عبد الحليم محمود (الدكتور) . : التفكير الفلسفى فى الإسلام ط٣ـ ١٩٦٨م

٦١ـ عبد الحميد غراب (الدكتور). : رؤية إسلامية للإستشراق ١٤٠٨هـ .

٦٢ـ عبد الرحمن آل الشيخ. : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد . دار الفكر بيروت ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩

٦٣ـ عبد الرحمن بدوى (الدكتور).: موسوعة المستشرقين .دار العلم للملايين.بيروت١٩٨٩م.

٦٤ـ عبد العظيم الديب (الدكتور): المستشرقون والتراث البحرين ١٤٠٦هـ ـ١٩٨٦م

٦٥ـ عبد العظيم المطعنى (الدكتور).:الإسلام فى مواجهة الاستشراق العالمى دار الوفاء بمصر ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٦٦ـ عدنان وزان (الدكتور).: الإستشراق والمستشرقون ط. رابطة العالم الإسلامى (مكه المكرمة)ط١٤٠٤هـ .

٦٧ـ عبد اللطيف السبكى .: المعجم الرسول محمد ﷺ.

: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة

٦٨ـ عبد اللطيف الطيباوى : المستشرقون الناطقون بالإنجليزية .ترجمة د قاسم السامرائى . مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١١هـ ١٩٩١م

٦٩ ـ عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ١٣٢٧هـ ١٩٥٣م

٧٠ ـ على حسنى الخربوطى (الدكتور): المستشرقون والتاريخ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م .

٧١ـ عمادالدين خليل(الدكتور): المستشرقون والسيرة . دار الثقافة الدوحة ١٤١٠هـ ١٩٨٩م

٧٢ـ الغزالى (الإمام) : الإقتصاد فى الإعتقاد . بيروت ١٩٨٦م.

٧٣ـ الماردى . : أعلام النبوة مطبعة التمدن بمصر ١٣٣٠هـ.

٧٤ـ محمد البهى (الدكتور): الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى مكتبة وهبة ط١٠

٧٥ـ محمد عابد الجبرى (الدكتور): الرؤية الإستشراقية فى الفلسفة الإسلامية (كتاب مناهج المستشرقين مكتب التربية العربى لدول الخليج .

٧٦ـ محمد عبد الله دراز (الدكتور): مدخل إلى القرآن الكريم . دار القلم .الكويت ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

٧٧ـ محمد عبد الله الميروفى : تحفة الأديب فى الرد على أهل الصليب . تحقيق عمرو الداعوق . بيروت ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م

٧٨ـ محمد عبده : رسالة التوحيد ط دار الشعب

٧٩ـ محمد الغزالى : دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين

٨٠ـ محمد كرد على الإسلام والحضارة الغربية ١٩٣٣م

٨١ـ محمد ناصر الألبانى: نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق المكتب الإسلامى دمشق ط٢

٨٢ـ محمود حمدى زقزوق(الدكتور) : المستشرقون والخلفية الفكرية للصراع الحضارى.دارالمنار. القاهرة ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

: الإسلام فى الفكر الغربى .دار القلم بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

٨٣ـ محى الدين الألوائى.: النبوة المحمدية ومفتريات المستشرقين . ط ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

٨٤ـ مصطفى السباعى.: الاستشراق والمستشرقون .دمشق ١٣٩٩هـ ١٩٧٩ م.

٨٥ـ مصطفى السباعى.: السنة ومكانتها فى التشريع . بيروت ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٨٦ـ مصطفى نصر السلامونى. : الإستشراق السياسى . ليبيا ١٣٩٦هـ ١٩٨٦م.

٨٧ـ نجيب العقيقى . : المستشرقون [٣أجزاء] .

٨٨ـ نظمى لوقا (الدكتور) .: محمد الرسالة والرسول ط١٩٥٩م.

٨٩ ـ وحيد الدين خان . : الدين فى مواجهة العلم . القاهرة ١٩٧٨م.

د ـ مراجع مترجمة:

٩٠ ـ إدوارد سعيد . : الاستشراق (المعرفة ـ السلطة ـ الانشاء) .تعريب كمال ابو ديب . مؤسسة الابحاث العملية .

٩١ ـ : تغطية الإسلام . ترجمة سميره نعيم خورى بيروت ١٩٨٣ م .

٩٢ ـ باول كراوس . : من تاريخ الألحاد فى الإسلام . ترجمة د . عبد الرحمن بدوى . النهضة المصرية ١٩٤٥ م

٩٣ ـ توماس كارليل . : الأبطال . ترجمة محمود السباعى الدار القومية القاهرة (ب . ت)

٩٤ ـ جان بول رو . : الإسلام فى الغرب . تعريب نجده هاجر بيروت لبنان ١٩٦٠ م.

٩٥ ـ جوستاف قرونبوم. : حضارة الإسلام ترجمة عبد العزيز جاويد دار مصر

للطباعة ١٩٥٦

٩٦ ـ جوستاف لوبون : حضارة العرب

٩٧ ـ جولد تسيهر : العقيدة و الشريعة فى الإسلام ترجمة د محمد يوسف موسى و أخرون.دار الكتب الحديثة بمصر طبعة٢ : دراسات محمدية . ترجمة الصديق بشير نصر

٩٨ ـ دى بور . : تاريخ الفلسفة فى الاسلام . ترجمة د . محمد عبد الهادى أبو ريده . لجنه التأليف و الترجمة ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م .

٩٩ ـ رودى بارت : الدراسات العربية و الاسلامية فى الجامعات الألمانية . ترجمة د . مصطفى ماهر . دار الكتاب العربى بمصر ١٩٦٧ م .

١٠٠ ـ ريتشارد سوذرن . : صورة الإسلام فى أوربا فى القرون الوسطى . بيروت ١٩٨٤م .

١٠١ ـ فرانتز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى ترجمة د. أنيس فريحه . دار الثقافة بيروت ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م.

١٠٢ ـ فيليب حتى : تاريخ العرب . دار العالم العربى القاهرة ١٩٥٣ م .

١٠٣ ـ كايتانى : مقدمة كتاب حوليات الإسلام ترجمة محمد أحمد شلوف . طرابلس ليبيا ١٩٨٨ م (ضمن كتاب من قضايا الفكر الإسلامى كما يراها بعض المستشرقين) .

١٠٤ ـ لايتنر . دين الإسلام ترجمة عبد الوهاب سليم المكتبة السلفية دمشق ١٣٤٢ هـ

١٠٥ ـ مارسيل بوازار الإسلام اليوم بيروت ١٩٨٦ م

١٠٦ ـ . إنسانية الاسلام ترجمة عفيفى دمشقية دار الأدب بيروت ١٩٨٠ م

١٠٧ ـ مونتجمرى واط : محمد فى مكة . تعريب شعبان بركات المكتبة العصرية صيدا . بيروت .

١٠٨ ـ موريس بوكاى : التوراة و الانجيل و القرآن و العلم ترجمة حسن خالد المكتب الاسلامى بيروت ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م .

١٠٩ ـ : دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة . دار المعارف لبنان ١٩٧٧ م .

١١٠ ـ ناصر الدين دينيه . : أشعة خاصة بنور الإسلام ترجمة راشد رستم . المكتب الفنى . بيروت ١٩٦٠م .

١١١ ـ هاملتون جب . : وجهة الإسلام ترجمة د . محمد عبد الهادى ابو ريده مصر الطبعة الاولى .

١١٢ ـ هنرى دى فاسترى. : الإسلام خواطر و سوانح ترجمة احمد فتحى زغلول باشا . م . الشعب القاهرة ١٩١١ م .

١١٢ ـ هنرى سيروى . : فلسفة الفكر الإسلامى ترجمة محمد ابراهيم (سلسلة الثقافة الاسلامية) ع ٣٢ القاهرة ١٩٦١ م .

١١٤ ـ ول ديورانت . : قصة الحضارة . ترجمة محمد بدران لجنة التأليف والترجمة . القاهرة ط ٢ .

هـ الدوريات :ـ

١١٥ـ الكتاب الدورى لقسم الاستشراق . كلية الدعوة بالمدينة المنورة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد الأول ١٤١٣هـ ـ١٩٩٣م .

١١٦ـ مجلة الزهراء .. عدد ربيع الأول ١٣٤٧هـ القاهرة

١١٧ـ مجلة الفتح . السنة الخامسة . عدد جمادى الأخرة رقم ٢٢٢ . ليبيا .

١١٨ـ مجلة كلية أصول الدين . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد الأول ١٣٩٧هـ ـ ١٣٩٨هـ

١١٩ـ مجلة الهلال المصرية العدد الثالث ١٩٣٣م

هـ - المراجع الأجنبيه

1-Carlyle:Man the unknown(1961)

2- Granebaum, G.E: Islam: essays in the nature and grouth of cultural tradition, London,(1961).

3- Hasting James , dictionary of the Bible ,(NewYork ,1963)

4-Watt.M.:the Islamic Revolution in the modern world (1969)

5- Islam and Integation society (London)(1961)

6- Muhammead- Propht and states man (NewYork'1978)

* * *

فهرس بالموضوعات

الصفحة

الفصل الخامس

***

رقم الإيداع القـــــانونى
٩٥/٤٦٥٩

الترقيم الدولي 977-253-070-8

هذا الكتاب

أربع مراحل مر بها الصراع بين المسيحية والإسلام .

○ **المرحلة الأولي** : صراع الغضب لهزيمة المسيحية في أرض الشام ودخول أهلها في الإسلام.

○ **المرحلة الثانية** : صراع الغضب المتفجر المتدفق من قلب أوروبا مشحونا ببغضاء جاهلة عاتية ... سفاحة للدماء سفحت أول ماسفحت دماء أهل دينها ... جاءت هي الأخري تريد اختراق دار الإسلام .

○ **المرحلة الثالثة** : صراع الغضب المكظوم الذي أورثه اندحار الكتائب الصليبية ...

○ **المرحلة الرابعة** : صراع الغضب المشتعل بعد فتح القسطنطينية ... بعدها علموا يقينا أن السيف في هذه المرحلة لايغني غناءً حاسمًا فنحوا أمره جانباً إلي أن يحين حينه ... ولجأوا إلي سلاح العقل والعلم ، تم هذا علي يد طبقة عرفت باسم المستشرقين . وهم أهم وأعظم طبقة تمخضت عنها اليقظة الأوربية لأنهم جند المسيحية الذين وهبوا أنفسهم لقتال الإسلام بسلاحهم الجديد . سلاح تجنب الاستثارة ثم العمل الدائب البصير الصامت ، سلاح استنفاد قوة المسلمين بالتشكيك ، وبالدهاء والمكر والسياسة تارة ، وبالرفق تارة وبالتنمر والتكشير عن الأنياب تارة أخري ... وكذلك كان ما كان وما هو كائن إلي هذه الساعة. ساعة الاستسلام للهيمنة الصهيونية . ولله الأمر من قبل ومن بعد .وهذا الكتاب ينهض مع الناهضين لا للكشف عن أحدث شبهات المستشرقين وتفنيدها والرد عليها فقط وإنما يتجاوز هذه الحلقة إلي الكشف عن زيف معتقداتهم وتهافت ما بين أيديهم ..

﴿ ولا تهنوا في ابْتغاء القوْم إن تكونوا تألمون فإنَّهمْ يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما (١٠٤) ﴾ [النساء : ١٠٤]

* * *

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ ش منشا محرم بك الإسكندرية ـ ت : ٤٩٠١٩١٤ ـ ٤٩٠٧٩٩٨

فاكس : ٥٩٥١٦٩٥